

بسن البدندي

رواية

سلسلة
النسمة والرياح

حسن الجندي

صلادة
المهوس

رواية



إهداء

إلى ذلك الفتى الباكى الذى تركه معلمه وحيداً في
القبر ليلاً، حاولت التخلص من خوفك مما يحيط بك...
ونسيت أن تخاف مما بداخلك.

قال أبو إسحاق الزجاج: **الأصل في الصلاة اللزوم**, فيقال: قد
صَلَّى واصطَلَّ إِذَا لَزِمَّ, ومن هَذَا مَنْ يُضْلَى فِي النَّارِ أَيْ يُلَزَّمُ النَّارَ

معجم لسان العرب لإبن منظور

الفصل الأول

صلاة الخائف

(١)

..2002

برغم استغراقه في النوم إلا أنه استيقظ فجأة فاتحًا عينيه ليفاجأ بظلام الغرفة الدامس، ويرغم أن سنوات عمره لم تتحطّ السادسة إلا أنه تعود على هذا الظلام الذي يرغم رعبه الشديد منه إلا أن أمّه علمته أن يتعامل معه باحترافية شديدة.

كل ما عليه أن يغلق عينيه ثانية ويعتمد على حاسة اللمس ليتحسس الموجودات حتى يصل إليها، ثم يواظبها برفق لتنهض هي وتتولى كل شيء، ستحتضنه وتربيت على شعره المنكوش برفق وهي تسأله عما يتمنى، وفي الأغلب سيطلب منها أن تتحدث معه.

تأخذه إلى صالة استقبال الشقة ليجلس تحت ضوء المصباح الأبيض القوي الذي سيحدد خوفه، ويتحدثا في أشياء لا قيمة لها وهي تحاول مجاراته بعيونها نصف المفتوحة من أثر النوم حتى يغلبه النعاس فتحمله مرة ثانية إلى الفراش.

على كل حال قد تعودت هي على استيقاظه المتكرر كل

ليلة وبدأت تفتتح أنابتها (عبد الرحمن) - أو كما تناديه هي (بودي) - يكرة النوم ليلاً لسبب ما، ربما ورث تلك العادة من شخص ما، لكنها تتوقع أن تلازمها بقية عمره.. أما (بودي) فلم يحمل هم استيقاظه في الظلام لأنّه سيطبق الخطة التي يعرفها، يحرك يديه.. يصطدم بوجهه أمه النائمة بجواره.. تنهض هي لتتir مصباح الغرفة.. ثم نصف ساعة من الحديث خارج غرفة النوم، وربما طاوعته في بعض الليالي وسمحت له بأن يفتح التلفزيون لمشاهدته قليلاً وهو يريح رأسه على فخذه وهي تمسح رأسه بيديها حتى يعاوده النعاس رويداً رويداً.

لكن تلك الخطة غير قابلة للتحقيق الآن، فأمه لم يرها منذ أيام، والده الذي كان يراه سابقاً يوماً واحداً في الأسبوع أتى لمدرسته وأخذه لمنزل أحد أقربائهم وهو يخبره بأنّ أمه سافرت فجأة، هو طفل فعلاً لكنه ليس متخلفاً عقلياً، فقد كان يعلم أن هناك شيئاً سيئاً حدث لأمه، احرار عين والده وتهدر صوته والحزن البادي على وجهه لخصوا الكثير، لدرجة أن (عبد الرحمن) وضع احتمال موتها في مخيلته، لكنه بعقله الطفولي رجح أن هذا الاحتمال غير ممكن الحدوث فالآمهات لا يمتن.. هذه قاعدة مفهومة ولم يرَ من قبل ما يكسرها، لم يسأل والده واكتفى بهز رأسه اهتزازات غير ذات معنى ثم جلس في منزل أقاربه صامتاً حتى عاد والده في اليوم التالي ليأخذه لشقته الأولى ويقيم معه في نفس الشقة.

(عبد الرحمن) كان يدرك أن أمه والده قد تطلقا منذ عام، وقد عاش والده بعيداً عنها طوال تلك الفترة، لكنه الآن هو المسؤول عنه بدلًا من والدته، وعلى ما يظهر أن والده يخاف تلك المسؤولية ويعامل (عبد الرحمن) بنوع من الخدر والشفقة والخوف والعصبية، لدرجة أنه لم ينم بجانبه وفضل أن يتركه وحيداً في الفراش كي يصير رجلاً بطريقة أسرع، أو لربما خاف أن يظهر حنانه كي لا يفسده.

لم يتحقق في عقل (بودي) إلا الخطة البديلة، وهي أن يهبط من الفراش المرتفع عن الأرض في وسط الظلام، يمشي حافيًا مغمض العينين فارداً ذراعيه أمامه كي لا يصطدم بشيء، يتخطى قليلاً حتى يصل إلى باب الغرفة المغلقة، يفتحه ببطء ومعه يفتح عينيه متوقعاً أن يظهر شيء مخفى يقفز أمامه فجأة.. جهيل لا شيء أمامه وهو الضوء الآتي من صالة استقبال الشقة ياقوي بخيوط الضوء داخل عمر الغرف.. نجحت الخطة وانتصر على الظلام بلا أي مساعدات من أمه، تذكرها وشعر بافتقاده لها، ولكنه طمأن عقله بأنها ستظهر ثانية.

أطأطَّ برأسه من داخل غرفة النوم يحرك عينيه في المفر كنوع من الخدر، ثم أخرج جسده وهو يحسب احتفاليات استيقاظ والده من عدمه، تقدم لصالة الاستقبال وضوءها الساطع وهو يجلس على طرف الأريكة القديمة ويضع

قدميه من تحته كجلاسة مريحة، اشتم الهواء في الصالة محاولاً تحديد مصدر تلك الرائحة الغريبة عليه والتي يشتمنها في أحيان كثيرة في هذا الموضوع بالذات بعد اختفاء أمه.. رائحة ليست بالسيئة ولا بالجيدة، بعد سنوات طويلاً سيشتمنها ثانية عندما يقترب من موضع غسل جثة أحد أقاربه وتحضيرها للدفن، وسيشتمن تلك الرائحة العطرية النفاذة الآتية من خلطة رواجح تستخدم كثيراً لتعطير الجثث، وسيتذكر كيف كانت تلك الرائحة تتسلل لأنفه في شقته وسيربطها دائمًا باختفاء أمه.

فتح التلفزيون الصغير الموضوع على منضدة صغيرة بجانب الأريكة، وقلب القنوات حتى وصل إلى قنوات كابل القمر الصناعي، مصاريف شراء طبق وجهاز استقبال الأقمار الصناعية خارج ميزانية عائلته لذلك فقد اكتفوا بوصلة سلكية تتيح لهم بضع قنوات متنوعة عشوائية لا تخطط إلى 10 قنوات، وفي بعض الأحيان 15 قناة على هوى صاحب مزود تلك الخدمة لهم.. طبعاً اشتراك شهري بـ 30 جنيه في هذا الوقت لم يكن كبيراً لكنه ليس هيئاً بالنسبة لأسرته، ذلك المبلغ كان عادلاً في حصولهم على بعض تلك القنوات من (حمادة دش) ذلك الشاب الطموح الذي قام بذلك المشروع غير القانوني في شارعهم.. لو تغاضينا عن أن نصف تلك القنوات لم تكن تظهر بشكل واضح وتصدر أصواتاً مخيفة بدلاً من أصوات المذيعين والممثلين فسنشعر بالخدمة

العادلة مقابل تلك القنوات، والحقيقة أن كل تلك القنوات لا تهم (بودي) أكثر من قناة (سيس تون) وكواكبها التي ظهرت منذ عام ونصف، طبعاً بداع الفضول كان يذهب (بودي) لبعض قنوات الأفلام الأجنبية يتابعها بنصف فهم لأنه لا يستطيع قراءة الترجمة العربية التي تعرض أسفل الشاشة بنفس سرعة ظهورها، لكنه لم يحبها على كل حال.

أما الآن فهو يستخدم التلفزيون كمصدر للصور فقط بلا صوت كي لا يستيقظ والده، وحتى القناة المعروضة نفسها ليست بتلك الأهمية لأنه يستقى من التلفزيون الأمان والتسلية في وسط كل هذا الصمت والوحدة التي يشعر بها.. كم مرّ من الوقت؟ لا يعلم سوى أنه بدأ يشعر بالنعاس ثانيةً لكنه قاوم وهو يخبر نفسه عن غضب والده لو استيقظ ووجده نائماً أمام تلفزيون مفتوح، عليه أن يغلقه قبل نومه، لكنه لن يعود لغرفة نومه الليلة وسينام على تلك الأريكة في ذلك الضوء المريح.

شغل عقله بكل تلك الأفكار وهو يتابع بعينيه مذيعة شقراء مصابة بالبلهة وتضحك بلا توقف وهي تخاطب مثلاً معموراً، كاد أن يغلق التلفزيون لكن جاءه ذلك الصوت.

صوت وقع أقدام ثابتة تصعد سلم العماره، ما سيفعله الآن فعله كثيراً حتى إن والدته كانت تراقبه بابتسمة ساخرة

قد يَمَا وهو ينْهض ويُحضر مقعدها خشبياً مهملًا ليضعه بجانب الباب بحرص.. توقف وهو ينظر لمصباح الإضاءة في السقف والذي تراقص ضوءه بضع مرات!!.. التلفزيون هو الآخر تعرّض لنوع من التشویش وترافقـت صورة المذيعة البهاء واختفت ثم ظهرت بوضوح.

صوت الخطوات يعلو ويقترب من طابق (بودي) الذي تغلب فضوله على دهشته، وبدأ في محاولة الصعود على المبعد الذي اهتز قليلاً لكن (بودي) استطاع بخبرته أن يوازن جسده الصغير ليصعد عليه والخشب القديم يصدر أنيئياً مكتوماً عندما وقف (بودي) عليه بـكامل جسده ثم نظر في العين السحرية للباب التي تـيح له رؤية غير واضحة لما يحدث بالخارج.

أول ما لفت نظره أنه رأى كل شيء بوضوح، وشاهد بـباب الشقة المقابلة لهم في ضوء مصباح السلم، المفترض أن الضوء مطفأ في هذا الوقت، من يصعد الآن استخدم زر الإضاءة في أسفل العمارة لتضيء كل طوابق العمارة، إذا فهو من السكان لأن الزر يشبه خبأ في مدخل العمارة.

فرك عينه اليمنى قليلاً ليحسن رؤيته في انتظار صعود صاحب الخطوات.. ها هو رأسه يظهر صاعداً السلم ثم كتفيه ثم بقية جسده، لم يتعرف عليه جيداً لكنه قدر أنه ليس (عمو) أو (أنكل) كبير السن بل هو مراهق أو شاب غير مكتمل الرجولة سيناديه باسمه بلا ألقاب لو كان يعرفه.

هذا الشاب توقف أمام باب الشقة المقابلة يتأمله قليلاً، ثم ألقى بنظره عابر لباب شقة (بودي) الذي أجهل بموضعه متنبياً ألا يكون لاحظه.

الشاب يسير نحو باب الشقة المقابلة ويشير إليه بإصبعه.. صوت صرير خافت يخرج من الرتاج ثم انفتح الباب ببطء للشاب، تلك الشقة يعرف (بودي) قاطنيها الذين أتوا من دولة عربية لا يتذكر اسمها لكنه يعرف أسماء بعض من يسكنوها، فكّر أن هذا الشاب يقتحم الشقة لكنه لا يفهم الكيفية؟

أمعن النظر في الشاب الداخل إليها بتحفز وهو يغيب عن عينيه، صوت شيء يرتطم بداخل الشقة مع صوت رجل يتكلم بنبرة مرتفعة بكلمات منغمة.. اهتزت إضاءة مصباح شقة (بودي) ثانية بنفس وقت انفجار مصباح السلم ليغرق السلم في ظلام مقبض ولم يسبق إلا ضوء خافت من داخل الشقة المقابلة.

وسط هذا الظلام خرج هذا الشاب ثانيةً من الشقة ناظراً بتحفz إلى الشقة وهو يحذر شخصاً ما من شيء أو كأنه يقوم بتهديـd شخص يراه بالداخل.. في الثانية التالية خرج من الشقة (عمو) يعرفه (بودي) لكنه لا يتذكر اسمه، هو يعرف فقط أنه والد الفتاة قريبة من عمره تدعى (فاطمة)، لعب معها من قبل كثيراً، و(فاطمة) نفسها شقيقة (سليم) الذي

يكبره بعدد من السنوات و(هاشم) الذي يكبر (سليم) نفسه ببضع سنوات، أما (عمو) الذي لا يتذكر اسمه فقد ظهر خارجًا من باب الشقة مرتدًا جلباب نوم، واهية تظهر عليه برغم جلبابه وهو يردد كلمات منغمة لم يفهم (بودي) أيا منها.

هل ما يحدث صراع؟ توقع هذا مع ما لاحظه على الشاب الخائف، فقد تراجع للوراء قليلاً حتى أصبح قريباً من باب شقة (بودي) ثم فجأة تصلب جسده ووقع أرضاً ويداه مضمومتان بجسده كأنه مكبل بالحبال وهو يحاول التخلص منها متلوياً على الأرض، و(عمو) يقترب منه ويقف عند رأسه وهو يوقف حديثه المنغم، وعلى الضوء البسيط القادم من الشقة المفتوحة وهو يرى تفاصيل جسد (عمو) الواقف ينظر للشاب الرائق بنوع من الاحتقار ويقول:

- كما توقعت.. لست سوى طفل يلهو بلعبة ورثها عن أجداده.

تلوي الشاب أكثر للحظاتٍ ثم توقف وهو ينظر لعمو ويقول ببرودة:

- لكنني أحضرت لعبتي معي.

برغم الظلم وعدم وضوح الرؤية إلا أن (بودي) شاهد جسد (عمو) يهتز خوفاً وهو ينظر حوله برعبة ويقول بصوت عالي:

- غبي

في المساحة بين الشاب و(عمو) سطع ضوء أحمر كأنفجار الألعاب النارية لكن بلا صوت، وفي موضع السطوع تكون جسد مخيف طويل يقررون ضخمة.. عقل (بودي) لم يفهم ما يراه لأول ثانيةين، حتى نظر هذا الشيء المخيف ناحية باب شقة (بودي) يبطئ كأنه يراه ثم أدار وجهه ناحية (عمو). عند هذا الحد ترغرغت الدموع في مقلة (بودي)، وارتعش جسده ولكن بشكل لا إرادي قفز الصبي إلى الأرض من على المهد وجرى ناحية غرفته وقدماه تجريان بإرادتها الخاصة.. تعثّر ساقطاً على الأرض فبكى أكثر لكن بصوت مكتوم، ووسط دموع عينيه رأى مصباح صالة استقبال الشقة يصدر طيناً مزعيّاً وضوءه يرتفع، نهض بخوفٍ من سقطته ودخل غرفة نومه المظلمة فاقداً القدرة على التحكم في مثانته فشعر بالسائل الساخن يغرق سرواله.. اصطدم بفراشه فألقى نفسه عليه ودفن وجهه في الوسادة والبلل يتقبل من سرواله إلى الفراش مع رعشات جسده اللا إرادية.

(2)

١٣٦٦ مـ - الإسكندرية - مصر

في خيمة صغيرة نصبت على عجل بجانب سور طابية (رشيد) التي تحمي (الإسكندرية) من الهجوم البحري، جلس رجل متربعاً على الأرض في العقد السابع من عمره لكن ملامح العجز لا تظهر على وجهه الملتح وبشرته البيضاء المشربة بحمرة الإجهاد يظهر عليه خاصة بملابسها الملهلة وجليابه الممزق في أكثر من موضع ويقع دماء تتنااثر عليه، دماء أتت منه هو شخصياً من جراء الضربات القوية التي تلقاها طوال الأيام السابقة على يد جنود الأمير المملوكي (خليل بن عرام)، لقد امتلك ذلك الأمير طرقاً عبقرية في الإقناع والتفاوض، الضرب والإهانة والتجويع والتهديد ليسوا أكثرها قوّةً، وها قد اقتنع الرجل العجوز المسمى بـ (غраб القبطي) بأفكار الأمير (بن عرام) واليوم يوم التنفيذ، نصبوا له خيمة صغيرة بجانب الباب الخشبي الكبير لطابية (رشيد) ليطبق فيه اليوم حكم الإعدام، والخيمة ليتسنى له تناول آخر وجبة يطلبها ويقابل آخر من يريد

رؤيته قبيل موته.

ها هي الوجبة أمام (غراب) على الأرض تتكون من دجاجة محمرة في السمن وبازلاء وجزر مطبوخ في صلصة الطماطم وبضعة أرغفة خبز، وعلى عكس العادة المتخيلة لمن يعرف بموته بعد قليل فإن شهرية (غراب) كانت مفتوحة وهو يغمض الخبز الساخن في البازلاء يلتقطها ويلقى باللقيمات في فمه، نفس الحال مع الدجاجة اللذيذة التي فاربت على الاتهاء وهو يتلمس لحمها في فمه باستمتع.

الأصوات خارج الخيمة متداخلة بين أصوات الجناد وطبول تقرع وأصوات أهالي (الإسكندرية) المتجمعين ليشاهدوا ما سيحدث وكأنه احتفال بالعيد.. في الواقع لم يكن الأهالي في حالة احتفال لأن ما أصاب (مصر) منذ أيام كسر الجمیع، فقد حضر ملك (قبرص) بحملة صليبية جديدة لاحتلال (مصر) من مدخلها الشمالي.. مدينة (الإسكندرية)، لكنها حملة مجنونة غير مُحَكَّطة لها، دخل جنود الحملة للمدينة مع غياب والي المدينة الأمير (خليل بن عرام) لذهابه إلى الحج، ثم هروب نائبه الأمير (جنغرا) إلى (دمنهور)، أرسل أهل المدينة لقائد الجيش المصري الأمير (يلبغا المجنون) في (القاهرة) لطلب المدد والعون لكن (يلبغا) اعتقد أن الرسالة مفبركة من أحد الملوك لاستدراجه إلى الإسكندرية وقتله.

لو طالعت ما حدث لشعرت أن الجميع كان غبياً بدرجة

مفزعه، الماليك وجيوشهم في حالة من الارتباك بسبب صراعاتهم الداخلية على مناطق نفوذهم، والحملة الصليبية ليس لها خطة واضحة لاحتلال مصر فقد هبطوا على (الإسكندرية) وأعملوا فيها النهب والسرقة والقتل حتى وصل أعداد من قتلوا من أهل المدينة لعشرات الآلاف وأسر منهم النساء والأطفال بآلاف وحرقت المدينة التي كانت بلا حماية، ثم بعد ثلاثة أيام من دخول الحملة الصليبية بدأ الجيش المصري في القاهرة في إعادة تنظيم صفوفه للمواجهة العسكرية.. لكن ملك (قبرص) قرر الفرار من المدينة بجيشه ومراكبه وألاف الأسرى والثيائن التي سرقوها، لتنتهي الحملة ويذهب الجيش المصري للإسكندرية المحترقة الحالية من البشر اللهم إلا القليل من بقوا من الأهالي آملين في الدفاع عنها.

هنا ظهرت معضلة عند الماليك.. من المسؤول عن تلك المهزلة؟ من الذي سيحاسب على المشاريب ويعتلي الخازوق بإرادته الحرة؟ هل هو قائد الجيش (يلبغا)؟ أم سلطان البلاد الأشرف (شعبان) ذو الثانية عشر عاماً والذي كان يستجم في متربة (سرياقوس) بالخانكة في الفترة السابقة؟ أم الأمير (صلاح الدين خليل بن أحمد بن عرام) متولي (الإسكندرية) الذي سمع بarrivée الحملة قبلها بشهور لكنه لم يصدق وذهب لأداة فريضة الحج؟ أم عشرات الأمراء من الماليك؟

- هل تشعر بالبرد يا سيد (غраб)؟

توقف (غраб) عن تناول طعامه ونظر بشك إلى (محمد بن الأصفر عينه السودوني) المملوكي الشاب الذي وقف على باب الخيمة القماشى بكامل ملابسه العسكرية التي يستخدمها الملك للتشريفات والمناسبات، والغريب أن (محمد) هذا كان ملوكاً غير ذي شأن عند سيده (سودون) حتى أرسله إلى (الإسكندرية) وتولى طيبة (رشيد) منذ عامين، ولم يرتد ملابس التشريفية العسكرية طوال حياته كملوك.. أما اليوم فالحال مختلف، أو إذا شئنا الدقة في يوم اختفاء (محمد) من حماية الطيبة أمام جحافل الحملة الصليبية وعودته اليوم ليشاهد حكم الإعدام تغير من حال إلى حال.

- لا يا حضرة الأمير.. كنت سأحزن إن رحلت بلا وداعك.

ابتسم الأمير (محمد) بخجل وهو يقترب من مجلس (غраб):

- ولم تلقبني بالأمير؟، عندما عملت تحت إمرتك كنت تناديني بـ «يابني»، ما الداعي لهذا اللقب؟

- ستصبح أميراً في الأيام القادمة، أنت تفهم وأنا أفهم.

اختفت الابتسامة من على وجه (محمد) ولكنه أكمل اقترابه من (غраб) وهو يقول:

- هل أنهيت طعامك؟

- الحمد لله.

تناول (محمود) إبريق الماء النحاسي من طرف الخيمة
ومعه الطبق الكبير وقطعة الصابون يناؤ لها الغراب الذي
وقف أدبًا يمنعه مما يفعل.

- العفو.

أشار له (محمود) بيده مطمئناً وهو يعطيه قطعة الصابون
 قائلاً :

- عفا الله عنّا وعنك.. أنت لي في معزة أستاذِي (سودون)،
علّمتني الكثير في إدارة الدواوين وأمور الحياة.

ابتسم (غраб) بإرهاق وهو يغسل يديه و(محمود) يصب
الماء بحرص حتى انتهى.

- هل لك في حاجة غير الطعام ورقية ابنك؟

- إن أجاز لي الأمير يساعدني في الوضوء قبل نفاذ أمر
الله.

ارتعشت شفتا (محمود) كأنه يمنع نفسه من إظهار أي
تعابير على وجهه في تلك اللحظة وهو يكمل صب الماء في
الطبق، و(غраб) يتوضأ وصوت أنين مكتوم يغادر حلقه
عندما يمسح عسل جلده بالماء وهو يلمس بعض أجزاء
جسمه، حتى رفع قدمه اليمنى ليمسح عليها فشاهد (محمود)
تورثها وأثر جروح السياط عليها من تعليق (الفلكة).

- بالله عليك أن تصدقني في رفضي لقصوة (بن عرام)
عليك.

لم ينطع (غраб) فأكمل (محمود):

- أنا مجبر على الموافقة مثلك، وإن رفضت سألقى
نفس مصيرك.

أنهى (غраб) الموضوع وجلس جانبًا بوجه صامت
فجلس (محمود) بجواره محترمًا صمته.

- أتخاف مصيري بحق؟

خلع (محمود) عمامته وخوذته النحاسية ليظهر شعره
الأسود الفاحم المعاشر.. على الأغلب لو نظر أي شخص
لمحمود و(غраб) لاعتقد أن هذا الأخير من المماليك وأن
(محمود) من مصر، لون عين (غраб) الأخضر الباهت
وبشرته حلت الكثير من التناقض لتوقع شكل المصريين
عدا أن (غраб) نفسه يؤمن بشدة أن أصوله ضاربة في القدم
بأرض مصر من آلاف السنين.

ابتسם (محمود) بطرف شفتيه اليسرى وقال بصوت
منخفض:

- الخوف هو صلاتنا يا سيد (غраб)، نيارها خمس
مرات باليوم.. ونلتزم بالسنة والنوافل.

ابتسם (غраб) ابتسامة عريضة ظهرت معها بعض أسنانه
النخرة، واستنشق نفساً طويلاً كأنه يزود نفسه بالشجاعة
وقال:

- أبي رحمة الله قال لي عبارة لم أفهمها في حينها.. أتسمح لي
بتردیدها على مسامعك وتعدنی بـألا تغضب؟
- تفضل.

- قال أبي «صلوة الماليك الخيانة، وصيامهم الكذب،
وزكاةم القتل، وقبلتهم التي يحجون إليها هي عرش مصر»
مررت لحظات صامتة لا يتخللها إلا الأصوات من خارج
الخيمة.. حتى تكلم (محمود) مرتبكًا محاولاً رسم ابتسامة:
- أخبرتني عن صلاتنا، ألا تخبرني عن صلاتك؟ أهي
الشجاعة والصدق والأمانة؟
- لا.. فأنا خائف.. وصلة الخائف الصبر.

- هل أنت راض بها أو قعك الصبر فيه يا سيد (غраб).
حل صوت (محمود) الكثير من الشفقة:
- لو لا الصبر لما اخترت التعقل والحلم ولو لا..
صمت فجأة (غраб) ولم يكمل جملته وهو يرى الأمير
(خليل بن عرام) يدخل عليهم الخيمة وهو ينظر لغراب
بنوع من الاحترام والجدية في نفس الوقت ويقول:
- (عبد الرزاق) ابنك يتذكر بالخارج، أرجو أن تعجل
لقائه كي نبدأ.

أنهى عبارته، ثم نظر إلى (محمود) وتبادل معه بعض
كلمات بلهجة من لهجات قبائل الترك فنهض هذا الأخير

مخادِرًا الخيمة والغضب بـأدٍ على قسمات وجهه.. عاود (بن عرام) النظر لغراب ثانية.

- أدخله علي يا أمير، وعند خروجه افعل بي كما اتفقنا.

أدَار (بن عرام) جسده ليغادر الخيمة لكنه توقف، أراد أن يتكلّم مع (غراب) لكن قريحته لم تتّجُ ما يناسب هذا الموقف الغريب، لذا أدَار جسده ثانية وقال بجدية:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- بالنسبة لماذا؟

امتلاً وجهه الغضب فجأة وهو يصرخ:

- بالنسبة لأي شيء.

- هدى قلبك يا أمير فما يحدث اليوم لا مفرّ منه.

تنفس (ابن عرام) براحة وتنحنح متسلّكًا أعصابه وهو يغادر الخيمة، لم تمر ثوانٍ إلا ودخل (عبد السرازق) ابن (غراب) والذي يقترب عمره من عمر والده لا يفرق بينهما إلا 17 عامًا، ويحمل نفس ملامحه تقريبًا عدا أنه يرتدي ملابس أكثر هناءً وفخامة عن والده، كان يسير بجانبه ابنه الصغير الذي لم تخط سنوات عمره العشرة أعوام، وطبعاً يظهر الفزع على ملامحه.

- لماذا أحضرت (ماجد)؟

قالها (غراب) بصوت حزين وهو ينظر للطفل المذعور

الذى جرى على جده يختضنه و(غراب) يربت على ظهره
بحسان بينما (عبد الرزاق) يجلس أمامه.

- تراجع عما تنوي يا أبي، ما زال الوقت في أيدينا.

قبل (غراب) حفيده على جبينه وأجلسه بجانبه واضعا
يده على كتفه الصغيرة، نظر لعبد الرزاق وتغير ملامح
وجهه للجدية وصوته يخرج صارماً وهو يقول:

- لا ترتكب أيّ حماقة تضيع بها ما أخطط له.

- أيّ خطط تقصد، أنت ستموت يا أبي، كل شيء انتهى.

- لم يتته شيء، انصت لكلامي وافهم ما يحدث، (ابن
عرايم) اتفق معى على أن أعدم اليوم مقابل ترك داري
ملكك، وتركك أنت لتعيش، و...

قاطعه (عبد الرزاق) بشورة:

- عما تساومه يا أبي؟ اتركني لأقضي عليه هو وماليكه في
ساعة واحدة.

بحركة خاطفة لا تناسب جسد (غراب) الواهن العجوز
قفز هذا الأخير من مجلسه وأصبح فجأة أمام (عبد الرزاق)
وهو يمسكه من جلبابه ويهزه بعنف وهو يقول:

- الجان الذين أحضرتهم للخيمة ويحيطون بنا لن يغيروا
فيها يحدث، أنا من علمتك وأنا الذي أعرف قدراتك،
تخلص من غبائك وغرورك وتقبل ما أمليه عليك.

هذاً (عبدالرازق) قليلاً من ثورته و(غраб) يترك ملابسه ويعود بجلساته السابقة.

- اسمع يا (عبدالرازق) لا وقت لعاطفة غير مجده الآن، لو كنت قد رفضت التضحية بنفسي لقتلوني وقتلوك في كل الأحوال، وأعرف ما يدور بخلدك الآن، لماذا لا نخرجه من موضعه؟

التمعت عيناً (عبدالرازق) وكاد أن يتكلم لكن (غраб) أكمل:

- لو أخرج جنا صديقنا من مكمنه لن نسيطر عليه كما تعتقد، أنت تذكر ما حديث منذ أيام حين أخرجته ليوقف زحف جيش ملك (قبرص) وكانت النتيجة أنه لم يفرق بين العسكر والمصريين.

خُفِضَ (عبدالرازق) صوته وهو يقول بتردد:

- لكنه أخاف عساكر الفرنج، وأجبرهم أن يغادروا على مراكبيهم وانتهت الحملة الصليبية قبل أن تبدأ.

- أترغب بمذبحة لأهلك؟

لم يرد (عبدالرازق) فأكمل (غраб):

- انزع من قلبك نار الثأر من الماليك ولا تمسمهم بمكره حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

- كيف لا تشعر بألم الخيانة يا أبي؟ أو لم يحنك (محمد بن

الأصفر عينه) بعد أن كان تابعك وتلميذك وها هواليوم يقف مختالاً في الخارج يتظاهر مع البقية موتك.

- (محمود) مملوك حتى ولو أظهر لنا اللين، وما سرقه من منازل التجار والأعيان في الإسكندرية في وقت هجوم الفرنج لا يختلف كثيراً عما سيفعله أي مملوك آخر، بالعكس أتوقع له الترقي حتى يصل إلى أعلى المناصب، وربما أصبح سلطان المسلمين في يوم ما، لذا لا تناصبه العداء فربما أظهر لك المودة فيما سيأتي.

- أنت ترخص دمك يا أبي.

- دعك من ترف المشاعر وانتبه للقادم، سيفصلك (ابن عرام) في نفس منصبي بالإسكندرية وهذا سيثبت فيها بعد للناس بأنني كنت بريئاً، ويفهمون الاتفاق الذي عقدته، كما سيترك لك خمسة أفراد من عمتلكاتي لتعيش عليها، عليك بالآلا تصطدم مع الملايك تحت أي ظرف، علم هذا لأولادك وأحفادك، ولا تنس أن تعلمهم كيف يحافظون على سرنا.. إلى هنا يكفي ما قلناه يا بني لأن الأهالي في الخارج يتظاهرون بالإعدام بفارغ الصبر وتأخرنا عليهم أكثر من هذا يعتبر قلة ذوق.

نظر (عبد الرزاق) مصدوماً لوجه والده الذي ابتسم بسخرية وهو يقبل حفيده ويعيدل من هدامه.

- أبي.. لن يعدموك شيئاً، لم تنصب مشنقة بالخارج ولا وجود لحبال.

تلاشت ابتسامة السخرية من على فم (غراب).

- سيعدمونك بالتوسيط.

فأها (عبد الرزاق) ومقلتا عينيه تمتلئان بالدموع الحبيسة،
بينما (غراب) ينهض واقفًا وهو يستعيد ابتسامته الساخرة
قائلًا:

- جيد.. سيعدمونني كما يعدم المماليك بعضهم البعض،
إن لم نحيا مثلهم فعلى الأقل نموت مثلهم.. هيا يا بني غادر
المكان ولا تنظر وراءك.

نهض (عبد الرزاق) وهو يسحب طفله (ماجد) الذي
تعلّقت عيناه بعيني جده المتسم له حتى غادر، حقيقة
توقع (غراب) ألا يغادر ابنه الخيمة بتلك السرعة، ربما بعض
الرفض أو الغضب، ربما قليل من لحظات الوداع المؤثرة
والتي سيرفضها على الأغلب لكنه تناهى، وقف وسط الخيمة
يحرك رأسه يتأملها وهو يتسم ويقول بنبرة منخفضة كأنه
يحدث نفسه:

- أمتعتنا الحياة يا أصدقائي، أذاقتني الدنيا طعمَ المال
والصحة والشهوة والمرض، ولن أنكر أني أخذت منها أكثر
ما احتجت، والساعة وصلنا إلى نهاية الطريق، أستودعكم الله.
انقلبَت صينية الطعام وتناثر ما به على الأرض، ضحك
(غراب) وهو يقول:

- لا تثروا الشبهات بفلتان غضبٍ لا طائل من ورائها،

أنتم أحرار من وقت موقى، لكن طلب أخير لا أمر فيه،
أتمني ألا تغادروا الخيمة وقت إعدامى، وألا ترتكبوا المهاقات
فلكلّ منّا نهاية.. أترككم بسلام.

سقط كتفي (غراب) تسلّيًا وهو يسير منكس الرأس
حتى خرج من الخيمة، تشم هواء الإسكندرية فسكت
أساريره وهذا بالله، نظر حوله لجموع الناس الواقفة تنظر
له بخليط من الفضول والشفقة والحسنة، ارتفعت أصوات
بعضهم بكلمات غير ذات معنى فابتسم (غراب) لهم لكنهم
ارتباكوا فلم يظهر على وجوهه أيٌّ من الأهالي الواقفين تعbir
واضح، أدار (غراب) رأسه على يمينه ليجد جنود المٌاليك
يقفون متراصين بملابس الاحتفال بوجوه باردة تعودت على
تلك المواقف، أما أمراء المٌاليك جلسوا بأريحية على خيولهم
المزينة ماعدا (محمد بن الأصفهاني) .. هو الوحيد الواقف
بجانب فرسه يمسك بذمامته وينظر لغراب نظرة تأسف
لحاله، لكن (غراب) ابتسم له بأدب وهو يستنشق هواء
البحر من حوله ويدير وجهه ناحية طايبة (رشيد) الحجرية
وبوابتها الخشبية التي تكسرت أثناء المعارك.

هناك يقف الأمير (خليل بن عرام) وحوله مماليكه
يحدثهم وهو يشير لهم فوق فتحة الباب وهم يهزون رأسهم
احتراماً، نظر (خليل) ناحية (غراب) وأشار لماليكه، جرى
اثنان منهم ليقبضوا على ملابس (غراب) حتى وقف (خليل)

أمامه وأخرج ورقة من ملابسه فأدت قرعات طبول متتظمة من بعض الماليك الواقفين بجانب الحشود المشاهدة، بعد ثوانٍ توقفت أصوات الطبول وهجم الصمت على المكان إلا من صوت ضربات موج البحر على الشاطئ القريب من الحدث.

سعل (خليل) وهو يفجُّ الورقة ويقرأ ما بها بصوت جهوري:

- بسم الله الرحمن الرحيم، بأمر من سلطان المسلمين الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، في الوقت وال الساعة ينفذ أمر الله في الخائن (غраб القبطي) متولياً نظر الإسكندرية، بعد اتفاقه مع ملك القبارصة ليعينه على دخول الإسكندرية في شهر محرم من 767 هجرياً.

- سعل (خليل) للمرة الثانية، وابتليع ريقه وهو يلقى بنظره للحظة إلى (غраб) ليرى حاله، وجده يهرش في شعر رأسه وعلى قسمات ملامحه نوع من البرود وشبح ابتسامة لا يظهر ولا يختفي، عادت عينه إلى الورقة وهو يكمل قراءة:

- فخان المذكور لعنة الله عليه دينه وأهله عندما فتح بوابة طيبة (رشيد) بجنود القبارصة وأعادتهم على نهب ديار أهل الإسكندرية وشاركتهم في النهب والسرقة، كما أخبرنا شهود عيان بأن الخائن نهب دور التجار والأعيان، وأنخذ ما بها

من مالٍ ونفائس لم يستدل على موضعها حتى الآن، وعلى ما جرى وما صار وما حدث يقتل الخائن جزاءً بما فعل على رؤوس الأشهاد، بسم الله الرحمن الرحيم وَمَنْ خَلَقَنَا أَمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهُوَ يَعْدِلُونَ صدق الله العظيم، والسلام من سلطان المسلمين على من سمع ومن حضر.

أغلق (خليل) الورقة متحاشياً النظر إلى (غراب) وانشغل عقله بصوته أثناء قراءة الأمر السلطاني، وهل كان عليه أن يقول الآية القرآنية بصوت أعلى لت Dell على القوة أم بصوت أكثر خفوتاً لت Dell على الخشوع، أثناء انشغاله بأفكاره وأشار للجنود المسؤولين عن الإعدام ليأتوا له، لكن إشارته لم تكن واضحة كفاية لأن الجنود اعتقدوا أنه يشير إليهم ليأخذوا (غراب) لوضع الإعدام، لذلك جرّوه من ملابسه حتى إنه سقط مرّتين على الأرض من شدتهم، و(خليل) مذهول من جنوده لكنه لن يستطيع لومهم أمام العامة، المشكلة أن موضع الإعدام على بوابة الطابية لم يجهز بالكامل وهو يعلم بذلك لكنه جاراً هم فيما يفعلون، حتى إن ما حدث لاحقاً أظهر عبادة الموقف وعدم التنظيم، حتى إن الأهالي بدأ صوتهم يعلو بالهمميات وعدم الرضا.

تحركت الأحداث بسرعة شديدة، الجنود ألقوا أخيراً بغراب أمام البوابة، صعد جندي من داخل الطابية إلى سطحها وهو يلقي بالحبيل، ارتفعت أصوات قرع الطبول

لكنَّ أحدَ الْأَمْرَاءِ أَسْكَتُهُمْ لِأَنَّهُمْ بَدَأُوا فِي الْمِيعَادِ الْخَطَا،
الْجَنُودُ يَلْفُونَ الْحَبْلَ بِسُرْعَةٍ حَوْلَ صَدْرِ (غَرَابٍ) وَمَنْ تَحْتَ
إِبْطِيهِ، وَيَعْقِدُونَهُ بِعَقْدَةٍ بَسِيِّطَةٍ.

يَشَدُّ الْجَنْدِيُّ الْوَاقِفُ عَلَى سُطْحِ الطَّابِيَّةِ الْحَبْلَ لِيَرْتَفَعَ
جَسْدُ (غَرَابٍ) لِلأَعْلَى لَكُنْ عَقْدَةُ الْحَبْلِ تَفَكَّ مِنْ تَلْقَاءِ
نَفْسِهَا بِسَبَبِ ارْتِبَاكِ الْجَنُودِ فَيَقْعُ (غَرَابٍ) أَرْضًا عَلَى قَدْمِهِ
فَتَنْكَسِرُ سَاقَهُ وَتَتَصَاعِدُ صَيْحَاتُ (غَرَابٍ) فَيَصِيبُ الْجَنُودَ
الْأَرْتِبَاكَ أَكْثَرَ، وَالْأَمْرِيرُ (خَلِيلٌ) يَأْمُرُهُمْ بِعَصْبَيَّةٍ بِلْفِ
الْحَبْلِ ثَانِيَةً.. الْأَهَالِيُّ وَالْمُتَفَرِّجُونَ تَتَصَاعِدُ هَمَمَاهُمْ وَبَعْضُ
الْاعْتِراضَاتُ.. الْجَنُودُ يَعْقِدُونَ الْحَبْلَ ثَانِيَةً وَيَرْتَفَعُ (غَرَابٍ)
الْمَتَأْمِمُ حَمَالًا كَمْ صَرَخَاتُهُ وَهُوَ مَعْلُقٌ كَالذِيْحَةِ.

الْخِيمَةُ الَّتِي كَانَ يَجْلِسُ بِهَا (غَرَابٍ) مِنْذَ قَلِيلٍ اهْتَزَتْ
أَعْمَدَتُهَا فِي نَفْسِ الْلَّهَظَةِ الَّتِي أَضْطَرَبَتْ فِيهَا خَيْولُ الْمَالِيَّكِ
وَهِيَ تَنْظَرُ لِلْخِيمَةِ وَتَتَقَافَزُ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَ الْأَمْرَاءِ الْمَالِيَّكِ
الرَاكِبِينَ كَادَ أَنْ يَسْقُطَ.

يَظْهُرُ الْجَنْدِيُّ الْمَكْلُفُ بِتَفْيِذِ التَّوْسِيطِ وَهُوَ يَصْرُخُ بِلِغَةِ
إِحْدَى قِبَائِلِ الْسُّرْكَ مُخَاطِبًا شَخْصًا آخَرَ بِأَحْشَاءِ الْبَلْطَةِ
الَّتِي سِيَسْتَخْدِمُهَا لِتَظْهُرِ الْمَفَاجَأَةِ؛ الْبَلْطَةُ لَيْسَ بِالْمَكَانِ، يَسْتَلِ
سَيفًا مِنْ أَحَدِ الْجَنُودِ وَيَجْرِي عَلَى جَسْدِ (غَرَابٍ) الْمَعْلُقِ وَهُوَ
يَضْرِبُ بِالسَّيفِ ضَرِبَةً قَوِيَّةً عَنْ دُجْزِهِ، وَلَكُنْ لَأَنَّ السَّيفَ
كَانَ أَنْفَفَ مِنِ الْلَّازِمِ فَقَدْ شَقَّ بَطْنَ (غَرَابٍ) فَقَطَ.

أجزاء من أمعائه خرجت من ذلك الشق وسط صرخاته فضرب الجندي ضربة ثانية وثالثة على أمل انفصال الجذع لتم عملية التوسيط، لكن السيف كان يُحدث المزيد من القطوع والجروح الغائرة والمزيد من الأمعاء تتدلى، وبركان من الدماء ينفجر في وجه الجنود ويغرق ملابسهم، حتى إن الأمير (خليل) تراجع للوراء وهو يتمتم بكلمات دينية وأصوات الأهالي الذين جاءوا في الأصل ليستمتعوا بمشاهد إعدام الخائن أصبحت تعترض على ما يحدث النساء تصرخ ملولة.

أما الجندي القابض على السيف فقد توقف وهو يزبح الدماء عن عينيه، ثم أمسك بمقبض السيف بكلتا يديه ليعطيه زخماً أكثر، وبدأ يضرب ضربات قوية يائسة لجذع (غраб) حتى وصل لعموده الفقري ثم انفصل الجزء السفلي من جسده واقعاً على الأرض ويقيمة الجزء الأعلى ما زال معلقاً.

الغريب أن هذا الجزء ما زال يرتعش، عدا أن صرخات (غраб) توقفت وزاغت عيناه لكن رأسه اتجه ناحية الأمراء المتطئن الخيول التي أصابها الجنون، والأمير (محمد) قد ترك لجام فرسه الذي جرى مبتعداً ووقف هو ينظر لغраб وهو يقسم بأن هذا الأخير ينظر له بلوم برغم أن عينيه

مازالت زائفتين، بعد بضع ثوانٍ توقف الجسد عن الارتفاع
وأغلقت عين (غراب) من تلقاء نفسها.

فجأة اشتعلت النيران في الخيمة بلا سبب فغادر الأماء
بخيوthem هاربين من الجنون الذي أصاب كل شيء والأهالي
يتعدون عن موضع النيران في حالة من التخبُط، إلا (عبد
الرازق) الذي وقف وسطهم لا يتحرك وعيشه معلقاً بجثة
والده ويده اليمنى تقبض على ابنه (ماجد) ويده الميسري
وضعها أمام عين الطفل ليمنعه من الرؤية، لكن الدموع
المتهمة من عينيه تشفي بأنه رأى الكثير ولن ينسى مهما طال
عمره.

(3)

2002

(بودي) لم يتعود أن يستيقظ من نفسه، بالإضافة إلى أن والده أخباره منذ اختفاء أمه أنه لن يذهب للمدرسة لبضعة أيام، لكن أصوات جلبة خارج غرفته أيقظته، ضوء الشمس المتسلل لغرفة نومه أعطاه بعض الطمأنينة التي افتقدها أمس عندما رأى ما حدث خارج شقته.

حتى ما حدث شك أن يكون كابوسًا تمنى أن يرويه لأمه، المشكلة أنه بدل فراشه وملابسها، وعليه أن يعتمد على نفسه في مداراة تلك المصيبة كي لا يعرف أبوه، سحب ملابس نوم أخرى من الدولاب وكورها تحت إبطه وهو يفتح باب الغرفة، عندما سمع أصواتاً كثيرة مختلطة ميّز منها صوت والده وهو يتحدث مع آخرين بحسرة عن الحريق ومن ماتوا.

أطل (بودي) برأسه الصغيرة ليتأكد أن الطريق خالٍ إلى الحمام، ثم جرى إليه وأغلقه خلفه ليبدل ملابسه حتى لا يعلم والده بما اتبا به، أتاه صوت والده من خارج الحمام

يأمره بأن يخرج ليتيح لأحد الجيران الدخول، انتهى الصبي سريعاً من تغيير ملابسه، وخرج منكس الرأس يجري لغرفة نومه، لكن والده أمسك به وهو ينظر للملابس الملقاة بالداخل ويقول بعصبية:

- مازلت تبلل نفسك.

لم يرد الصبي ومستوى خوفه يعلو، والأب يقول بشارة متضاعدة تدريجياً:

- لم تحسن أمك تربيتك، لو لا أن الجيران عندي في الشقة لربّتكم كما يربى الرجال.

أفلت الصبي الذي جرى لغرفته ودخل الأب للحمام يحاول مداراة ملابس ابنه، الأب (أحمد عبد المولى) لم يكن يعرف ما يجب فعله، لكن يجيد التظاهر بأنه يعرف دائمًا، شاربه الكث وطوله الفارع يعطى ممتلئة لا تناسب مع جسده الأميل للنحافة تعطيك هيئة الأب المصري العتيق على أنه لم يورث لابنه (بودي) طوله الفارع ولا لونه الأبيض المشرب بحمرة لكن ابنه ورث لون بشرة والدته الأسمر وصغر حجمها ووسامة قسمات وجهها.

فكّر (أحمد) في زوجته المتوفاة وهو بالحمام يداري ملابس ابنه وعقله مشغول بالمستقبل، أيتزوج ليجد من يرعى شؤونه وشؤون الصبي؟ أم سيتهمه من حوله بأنه قاسي القلب ليأتي بزوجة أب لابنه؟، حقيقة أنه اتفق مع شقيقته لتأتي للشقة

هنا من وقتٍ لآخر لتنظيفها وإعداد بعض الطعام الساخن، لكن هذا الحال مؤقت ويجب إيجاد الحال النهائي.

دارى الملابس وخرج من الحمام ليشير لأحد الجيران بدخول الحمام، وعاد لصالحة استقبال الشقة الضيقة الممتلئة بالجيران رجالاً ونساءً، دخان السجائر يصنع سحابة قريبة من السقف وأكواب شاي أحضرتها إحدى الجبارات ملقاة في كل مكان.

- لماذا تأخرت الشرطة كل هذا الوقت؟

قالت بها إحدى الجبارات كنوع من مشاركة الوقت فرد عليها زوجها الجالس بملابس المنزل واضعاً قدماً على الأخرى بتناكية.

- ما زالت الساعة السابعة صباحاً يا أم (فوزي) ضباط الشرطة لم يصلوا إليهم بعد.

- وهل لهم مواعيد حضور وانصراف؟

دارت مناقشة تافهة اشتراك فيها الجميع بحماسة عن دور رجال الشرطة المصرية ومواعيد عملهم وكأنهم يجلسون في نادي اجتماعي أرستقراطي، متناسين أنهم يجلسون بالقرب من الشقة المقابلة والتي حدثت بها كارثة أجبرتهم على التجمع في شقة (أحمد عبد المولى).

القصة بدأت باستيقاظ (أحمد) للذهاب للحمام في الخامسة فجراً، رائحة احتراق أجبرته على الجري داخل الشقة

كالمجانين يستطلع مصدرها، غرفة (بودي) سليمة وابنه يغط في سبات عميق، الحمام والمطبخ والصالون وبقية الشقة بلا مشاكل، وجد مقعد خشبي بجانب باب الشقة فازاحه مسرعاً وخرج، فعلم وقتها مصدر الرائحة.

دخان بسيط يخرج على دفعات قليلة من تحت باب شقة جارهم الذي أتى من سلطنة عمان ليستأجر الشقة منذ شهور، هو نفسه تعرف عليه وعلى عائلته، تذكر بسهولة اسمه.. (صابر الحريري)، وسبب تذكره الاسم أنه لوقعه على الأذن غرابة لم يالفها.

- أستاذ (صابر).

نادي (أحمد) بخجل وهو يقف أمام الباب عاجزاً، أعاد النداء بصوت أعلى، ثم طرق على الباب بقوة، يعلم (أحمد) أن عليه أن يكسر باب الشقة وهذا ما حاوله متدفعاً أكثر من مرة ليصطدم به بكفه لكن الباب كان قوياً.

جري لينزل السلم ويوقظ أحد الجيران ليساعده في كسر الباب، ثم عاد ومه جاره الأستاذ (فتحي) والذي كان نسخة منه في الهيئة لكنه كان قوياً بحق، بالطبع بضع ثوان واستيقظ جiran العماره، وأتوا يحيطون بأحمد و(فتحي) الذي استطاع بقوته، كسر الباب.

الدخان لم يكن كثيراً، لكن النيران واضحة من الداخل، برغم أنها لم تتشير، إلا أنها ظهرت بمواقع مختلفة، جثة

رجل في الخمسين متفحمة توقع (أحمد) أنها جثة (صابر) رب العائلة، المشكلة أن (أحمد) لم يستطع التقدُّم لداخل الشقة، الجثة المتفحمة النائمة على ظهرها بجانب أريكة أصابته بالبرعشة، الرجال من خلفه شهقاً والنساء تكفلن بالصویت والولولة، تراجع هو خطوة للوراء بينما اقتحم (فتحي) الشقة مدارياً أنفه بكم يجاجة نومه، التمع خاطرٌ في عقل (أحمد) للحظة يخبره بأن حجم النيران التي يراها داخل الشقة لا تناسب مع تفحُّم الجثة الغريب، ولكنه وبعد ذلك الخاطر وهو يتراجع أكثر مغمضاً عينيه ليعد تلك الجثة عن عقله.

دارت تلك الذكرى في عقل (أحمد) الحالس ببرود بجانب جيرانه في شقته بانتظار الشرطة بعد ما نجحوا في إطفاء النار بسهولة، ولم تكن مهمته في الإطفاء أكثر من تمرير دلو ماء من وقت لآخر لأستاذ (فتحي) البطل الذي تطوع بقيادة المجموعة.

- ما رأيك يا أستاذ (أحمد) في تأخُّر الشرطة عن الحضور؟

قالها أحد الجيران بعد ما رشَّف بصوت مسموع من كوب الشاي بيده، لكن لم يرد (أحمد) بسبب زوجة (فتحي) التي قررت أن تعبّر عن فخرها بزوجها فجأة وهي تقول مبتسمة:

- وما الذي ستقدّمه الشرطة أكثر مما قدّمه (فتحي)؟

أنهت عبارتها بنظره جانبية مبتسمة لزوجها الحالس يمثل التواضع وهو يقول:

- لم أفعل إلا ما يملئه عليّ واجبي.
- هل لك ملاحظات جديدة يا أستاذ (فتحي) عما رأيته
بالداخل؟

فاما أحدهم فتحفز (فتحي) بجلساته ورسم الجدية على
لامعه وهو يقص ما حدث بفخر شديد كأنه هو من
أشعل الحريق، وكانت هذه هي المرة الرابعة يقول فيها نفس
الكلمات:

- عندما كسرت باب الشقة ودخلت بعدما خاف أستاذ
(أحمد) وهذا أمرٌ طبيعيٌ فليس كل الرجال يتحملون مرأى
الجثث مثلما أتحمل أنا، فلقد شاركت في غسل الجثث من
طفولتي، وأصبح قلبي لا يهاب تلك الأشياء.
التفت إلى (أحمد) بالحالي بخجل، وأكمل قائلاً:

- لكن أستاذ (أحمد) ساعدني بإطفاء الحريق حتى ولو لم
يدخل الشقة.

ثم نظر لبقية الحالين ليكمل متھماً:

- طبعاً طلبت منكم ألا تدخلوا الشقة كي لا تصابوا
أو تخنقوا.. ولأنني رأيت جثة صاحب الشقة في الصالة
التهمتها النيران، وعلى وجهه صرخة ألمٌ فعلمت أن الكارثة
انتهت ودخول أي أحد غيري لن يزيد أو ينقص شيئاً،
اتجهت لغرف النوم فعثرت على الأم محترقة ومتفحمة لكن
النار في غرفتها انطفأت بعدما حرقـت أجزاءً من السقف

والحوائط والفراش، وفي غرفة أخرى وجدت بعض النيران
ما زالت مشتعلة وفتي بجهة متفرمة يحتضن طفلة صغيرة،
أرجح أن الفتى هو (هاشم) الابن الأكبر للعائلة، رأيته كثيراً
وكان ودوداً محترماً، وشقيقته (فاطمة) رأيتها تلعب كثيراً مع
(بودي) ابن الأستاذ (أحمد)، النار كانت ما زالت مشتعلة
بهما، لكنهما تفحما بالكامل، جريت على باب ...

توقف (فتحي) عن رواية قصته ونظر هو والبيبة
خارج الشقة لصوت خطوات تصعد على السلم بعد لحظة
ظهر صاحبها، (سليم) المراهق ذو السادسة عشر عاماً ابن
(صابر) والذي لم يكن وسط الجثث داخل الشقة ولم يعلم
أحد بمكانه، لم يعلموا بأنه كان في زيارة لصديق المصري،
وقد تعودَ أن يبيت عنده في منزله من وقت لآخر، يمكنه
أن تسمها صدفة أو معجزة لإنقاذ هذا المراهق أو سماها ما
شئت، المهم أن (سليم) توقف أمام باب شقته ينظر لدخلها
بهشة يشوبها الحذر ثم يحرك نظره لينظر للجيران الجالسين
بشقة (أحمد) الناظرين له بصدمة.

المشهد كارتوني بعض الشيء لأن الجيران الثرثارين منذ
لحظات تسمروا صامتين، و(سليم) ينظر لهم بعدم فهم
ويعود لينظر لباب الشقة المفتوح مفترياً منه ببطء.

أخيراً نهض (أحمد) قائلاً:

- انتظر يابني ..

لكن (سليم) دخل بخطوات واثقة للشقة، وعندما لاحق به (أحمد) كان (سليم) يخرج من باب الشقة ثانية بقصبات وجهه مصدوم، الجميع توقع أن يسمع صرراخ (سليم) من الداخل وهو ينادي على أبيه وأمه وإخوته أو على أقل تقدير تمنى الجيران أن يسقط مغشياً عليه ليدخل أستاذ (فتحي) البطل السوبر مان ليحمله من داخل الشقة ويحضره بينهم. لكن (سليم) حاول أن يتمالك نفسه وهو ينظر لأحمد والجيران الذين توافدوا ليقفوا بجانبه و(سليم) يهز رأسه بعدم فهم وهو يتنفس بصوت مسموع ويشير بإصبعه ناحية باب شقته.

الجيران يربتون على كتفه وهو يهز رأسه بعدم فهم حتى قال بصوت متحشرج:

- أهذا والدي؟

قصد بالطبع الجثة المحترقة والتي طالها عند دخوله، في ذلك الوقت لم يكن (فتحي) قد غادر مقعده، حتى نهض بهيبة وكاريزما وتنحنح وهو يخترق جموع الواقفين حتى وصل إلى (سليم) وأمسك بكتفه وهو يقول بصوت قصد أن يجعله جهورياً:

- البقاء لله في عائلتك، يجب أن تتحمل الأمر كالرجال.

نظر له الفتى كأنه لا يصدق هذه المعاشرة في الحديث و(فتحي) يكمل:

- اذكر الله يا بني وتقبل مصيبك.

- ما هذا الكلام الغبي !!

قامت الفتى فشدَّ (فتحي) على يده بعصبية وهو يبرق عينيه صائحاً كالمجاذيب:

- هل ستکفر بقضاء الله، استغفر الله استغفر الله .

على الأرجح قد مر (فتحي) بتلك اللحظات كثيراً وهو يستمتع بإبلاغ خبر الوفاة لمن حوله ويستمتع أكثر بالسيطرة عليهم لينفجروا بكاءً، حتى إنه لربما صفع أحدهم مرة أو اثنتين من باب الحماسة، لكن هذه المرة الوضع مختلف، فسليم برقت عيناه هو الآخر وتفوه بكلمتين توقع الجميع أنهما سباب بلهجته الأم، ثم دفع الأستاذ (فتحي) في صدره بقوة جعلت هذا الأخير يطير للخلف ليقع في أحضان أحد الجيران، تعالىت الأصوات وصرخ بعض النساء، ثم أبعد البعض (فتحي) الذي أصبح كالثور الهائج قليلاً ورذاذ فمه يتطاير في كل مكان وهو يصبح متوعداً الفتى الذي سحبه البعض هو الآخر بعيداً.

حسناً لقد هدأ الجميع.. أستاذ (فتحي) اصطحبته زوجته لشقتها ودخل (سليم) لشقة (أحمد) وتفرق الكثير من الجيران حتى حضرت الشرطة ثم المعمل الجنائي الذي قرر مبدئياً أنه لا وجود لشبهة جنائية، برغم أن مصادر اشتعال

النيران غير واضحة كأنها اشتعلت من أجساد الضحايا أنفسهم، لكن في الوقت الحالي وربما مستقبلاً لن يظهر جديد تحت السطح.

الحضر كتب على عجلة وأدل (سليم) بأقواله والتي كانت غير ذي فائدة، عرض أحد رجال الأمن على (سليم) توصيله لسفارة (سلطنة عمان) فرفض، وأخبر الجميع بأنه سيحصل بأقارب ليأتوا لمصر في أقرب وقت.

والده (صابر) كما شرح (سليم) في محضر الشرطة قد جاء لمصر منذ شهور لفتح مشروع استثماري بسيط يعتبر امتداداً لمشاريع العائلة بسلطنة (عمان)، ومن كان سيدير المشروع هو شقيقه الأكبر الذي توفي وتعود بقية العائلة لبلدهم.

لم يفت على رجال الأمن أن يسألوا عن إقامة العائلة في مصر وموعد انتهائهما، ولكن كل الأوراق جيدة وما زال هناك مدة كافية.. انتهى رجال الشرطة وتم نقل الجثث للمشرحة، وانتهت القصة في العاشرة صباحاً، إن كنت معهم ربما اندھشت من عدم بكاء (سليم)، تتوقع أنه سينهار ويغشى عليه من الصدمة، لكن لم يحدث، تتوقع إذاً العكس، هل جلس الفتى بنظرات نارية متوعدة ينظر للامكان ويحلم بالانتقام حتى لتحسب أنه ستسمع صوت موسيقى متربعة تأتي في خلفية المشهد كأفلام الثأر؟ الحقيقة أنه لا، كان يتعامل بقليل من الارتباك مع الكثير من التحفظ والتماسك، ربما

هي الصدمة؟ أو أنه لم يصدق بعد؟ حتى هو لا يعلم سر تعامله مع الجميع بشكل طبيعي.

رحل الجميع بما فيهم الجيران وتطوع (أحمد) باستضافة (سليم) الذي رفض في البداية لكنه قبل مع الإلحاح والموافقة على أن يبيت في الصالون، تركه (أحمد) في الشقة ونزل إلى الشارع ليحضر بعض الطعام.

مررت دقيقة وسمع (سليم) صوت باب غرفة يفتح ثم أطلَّ رأس (بودي) الصغير ينظر له مبتسمًا، بادله (سليم) الابتسامة و(بودي) يسير إلى التيليفزيون يفتحه كنوعٍ من أنواع الترحيب بالضيف وهو يقول:

- أتريد قناة (سبيس تون) أم قناة أخرى؟

زادت ابتسامة الفتى لبراءة الطفل وهزَّ رأسه نافِئًا، أغلق (بودي) التلفزيون وجلس بجانبه، وقال بحرج وابتسامة طفولية ترتسم على فمه:

- هل يمكنني أن ألعب مع شقيقتك (فاطمة) أم ما زالت نائمة؟

لم يجد (سليم) ردًا مناسِبًا، برغم فاجعته لم يفضل أن يخبره بالحقيقة بنفسه، لكن العجيب أن (بودي) تصلب في جلسته وظهر الخوف عليه، ثم نهى فجأة من على الأريكة وعاد جريًا لغرفته مغلقاً بابها خلفه.

في نفس الوقت عاد (أحمد) من الخارج يحمل أكياس

شطائر القول والطعمية والبطاطس وهو يبتسم بمحاملة ويضع الأكياس جانبًا وهو يقول:

- وافقتك منذ قليل على أن تبيت في غرفة الصالون بسبب عصبيتك، لكن يا بني لن أقبل بذلك في النهاية، ستبقيت في غرفة النوم الرئيسية وأنا سأنام بجوار (بودي).

هزَ (سليم) رأسه بالموافقة، توقف (أحمد) وقد ذهل لأنَّه قد حضر خطاباً طويلاً لم يسمح له (سليم) بيلقائه.

- هل لك أعمام في بلدك يا بني؟

- لا، والدي وحيد أبويه، وخالي توفي منذ ستين.

جلس (أحمد) على أحد المقاعد محاولاً أن يلطف أسئلته كي لا يثقل على الفتى.

- إذاً من أقاربك الذين أخبرت عنهم الشرطة؟

- هم أقارب والدي وأصدقاؤه، سيحضرون لمساعدتي في إرجاع عائلتي لدفنهم بموطتنا بصحار.

هزَ (أحمد) رأسه كأنه يفهم كل شيء، لكنه قال بشكلٍ عابرٍ:

- هل أنتم في الأصل من (صحار) وتقيمون في سلطنة عمان؟

- (صحار) داخل السلطنة يا عمي.

ابتسم (أحمد) خجلاً ونهض ليفتح أكياس الطعام وهو يقول محاولاً مداراة جهله:

- هل ستقيم بمنزل العائلة عند عودتك لبلدك؟

- لن أعود.

نظر له (أحمد) متسائلاً فرداً عليه:

- سأظل بمصر وأنقل دراستي هنا، لقد فكرت في كل شيء.

- متى فكرت؟ لم تتركك إلا بعض الوقت، اسمح لي يا بنى أنت تشغلى بالكثير الآن، دعانا نأكل وسانزل معك بعدها لأقرب سنترال لتحدث أهلك.

أنهى عبارته ونادى على (بودي) الذي جاء منكس الرأس يتحاشى أن ينظر لمن حوله، أمره (أحمد) بالجلوس إلى طاولة الطعام، رفع (بودي) رأسه للأعلى قليلاً بترقب ثم ارتاحت قسمات وجهه وهو ينظر ناحية (سليم) نظرة غريبة لم يفهمها هذا الأخير.

بعد متصف الليل ببعض ساعات، وقت كافٍ لينهض (سليم) من على الفراش في غرفة النوم الرئيسية بالشقة، فكر أن يعود لشقته لكنه لم يكن قد استفاق من صدمة موت عائلته بعد، لم يكن قد نام من الأصل لكنه انتظر حتى يتأكد من نوم (أحمد) و(بودي) ليبدأ ما أراده.

الغرفة مظلمة وهذا لا يؤرقه لكنه لا يعرفها مسبقاً وهذا يُشعره بعدم ارتياح، جلس على حافة الفراش وهو يقول هاماً:

- إن كنت قريباً فاحضر يا (صالم) وأسمعني صوتك.

جاءه صوت هامس في أذنه يقول:

- حضرت.

أكمل (سليم) همساته وهو يقول:

- ابحث لي عن أقرب جنٍّ شاهد ما حدث لعائلتي بالأمس، أي جنٍّ أو ساكن من عمار المكان لاستجوبيه.

- أخبرتك يا سيدى أن كل خدام ومُرافقى أبيك قُتلوا بالأمس ومعهم عمار شقق هذا البناء.

تململ (سليم) وارتفع صوته وهو يجز على أستانه:

- مارس عملك وابحث مرة ثانية وثالثة، يجب أن تأتي لي بأي جنٍّ شاهد ما حدث.

مررت دقيقة عاد بعدها صوت (صالم) يقول:

- غادر غرفتك في التو واللحظة لترى شيئاً هاماً.

نهض (سليم) من على الفراش وتحسس طريقة حتى الباب ليفتحه، وجد (سودي) يقف بوسط صالة الشقة وهو يداري جزءاً من عينيه بيديه الطفوليتين وهو ينظر للأسفل وهو يقول:

- (سليم)، أنا أعرف أن عم المخيف هذا هو صديقك..

ـ قُل له ألا ينظر لي بتلك الطريقة لأنه يخيفني.

- عما تتحدث؟

نظر (بودي) بطرف عينه ناحية (سليم)، وعاد لينظر أرضاً وهو يقول مترجحاً:

- عن عموم الذي يقف بجانبك الآن، ذي الجسد التحيل والعيون الواسعة، الذي يتحرك بسرعة كبيرة، قل له أن يتوقف عن تخويفي.

(4)

1382 م - الإسكندرية - مصر

أنهى (ماجد) طعامه، ونهض من على الأرض ينادي على خادمه (حسن) الذي أتى جريأاً يحمل الدلو وإبريق الماء ليصب لسيده الماء بعد مناولته قطعة الصابون اللزجة.

كانت دار (عبد الرزاق بن غراب) كما هي تقريباً عداؤ من بقي بها من الخدم هو (حسن) العجوز الذي تعود على خدمة (غраб)، ومن بعده (عبد الرزاق) الذي توفي منذ عام والأآن هو في خدمة (ماجد).

وقد وفي الأمير (خليل بن عرام) بوعيده لغراب عندما ترك (عبد الرزاق) كمتولي لنظر الإسكندرية في الشؤون الإدارية ومن بعده (ماجد) الذي شرب صنعة جده وأبيه في الإدارية برغم حداة سنه والذي لم يتجاوز السادسة والعشرين عاماً، ربما قلل مصدر دخل العائلة لكنهم ظلوا على حسن السمعة بالإسكندرية ونواحيها وكان إعدام (غраб) بتهمة الخيانة لم يكن، وحتى الآن ما زال (بن عرام) يعامل (ماجد) وعائلته بذوق خاص وكأنه يكفر عن خطيئة لم يعترف بها.

اتهى (حسن) من صَبَّ الماء على يد سيدده ثم توقف وهو يستمع لصوت قرعات طبلٍ خارج الدار، نظر له (ماجد) مطمئناً وهو يقول:

- هذه تشريفة الأمير (بن عرام)، افتح المجلس بسرعة وسخن بعض اللبن بالعسل.

هرول (حسن) للخارج بينما (ماجد) يعدل من هندامه ويرتدي عمامته ثم يسحب قارورة العطر من أحد الأدراج يغرق بها ملابسه، تنفس بضعة أنفاس ليطرد التوتر من عقله وهو يغادر الحجرة متوجهًا لقاعة الاستقبال بالدار المعدة منذ سنين طويلة لمناقشة شؤون إدارة الإسكندرية.

دخل القاعة مرتفعة السقف المزданة بالنقوش النباتية على جدرانها وأمتالات بالمقاعد التي تزييت بالصدف الأبيض المصري، وأمام كل مقعد طاولة صغيرة لتقديم المشروبات، وفي وسط القاعة نافورة يُلقى فيها من وقت لآخر زيتٌ عطريٌ يشيع رائحة خلابة حول الجالسين، باختصار كانت قاعة ملكية الطبع تختلف عن بقية الدار المتواضعة والعادمة، لكنها واجهة العائلة التي وجوب الاحتفاء بها أمام الكل.

دخل القاعة فوجد بها المطل على الشارع قد فتحه (حسن) ليتقدم من الباب اثنان من الجنود الماليك بملابس التشريفة وبلا أسلحة.

- الأمير صالح الدين (خليل بن أحمد بن عرام) يطلب مقابلتك.

ابتسم (ماجد) وفي باله فكرة أن (بن عرام) يحب مناداة اسمه أباً عن جد ليتشبه بالمصريين الذين يحفظون أسماء جدودهم، لكنه مع ابتسامته قال بتملقاً:

- هذه الدار، وكل دور الإسكندرية ملك للأمير يدخل ما شاء منها بغير استئذان ولا موعد.

أنهى عبارته وهو يتقدم ناحية الباب متخطياً الجنديان ليستقبل الأمير بنفسه لكن (بن عرام) دخل عليه القاعة قائلاً:

- حلو اللسان أنت يا (ماجد)، عمر الله دارك وأمنتك شر الزمان ومكائده.

كانت التجاعيد بادية على وجه (خليل بن عرام) ولكنها تجاعيد قسوة أكثر منها عجزاً، وكلما ابتسם زادت التجاعيد وكأنها تشققات في وجهه الصارم، مدّ يده يصافح (ماجد) بمحبة وهو يربّت على كتفه كعادته في معاملة خصومه قبل أحبابه، ثم أشار للجنديين بالخروج، لكن طفلاً صغيراً أزرق العينين أصفر لون الشعر مليح القسمات يرتدي جلباباً وحذاء، دخلَ من الباب ينظر للجنود برهبة، حمل (بن عرام) الطفل وهو يقول مبتسمًا:

- أترك شقيقك ليلعب في الخارج يا (ماجد)؟

ثم احتضن الطفل وهو يربّت على ظهره بحنان ويجلس على أحد المقاعد محلساً الطفل على قدمه و(ماجد) يجلس بالقرب منه و(بن عرام) يكمل:

- اسمه (إبراهيم).. نعم أنا أتذكر الاسم.
- خادمك (إبراهيم بن عبد السرازق) يا أمير، شرف لنا أن
تتذكرة اسمه.

فأها (ماجد) وهو يطلب من الطفل (إبراهيم) مغادرة
القاعة لكن (بن عرام) أخذ يلاعبه وهو يخبره:

- أتعرف يا (إبراهيم) أنتي حضرت ولادتك؟

ردّ الطفل ببراءة:

- أنت الأمير (بن عرام)؟

- نعم.

- أخي (ماجد) أخبرني عنك.

حاول (بن عرام) الحفاظ على ابتسامته وهو يسأل
(إبراهيم):

- ماذا أخبرك؟

- قال لي إنك صديق لأبي وجدي، وإنك تحمينا من
الأشرار.

نظر (بن عرام) ياعجاف إلى (ماجد) ثم أعاد بصره
لإبراهيم وقال:

- صدقت يا ابن الغالي، أرى فيك جمال جدك ونبوغ
والبدك.

ثم لش الطفل على خديه وهو يتزله للأرض ليجري
معادراً القاعة و(بن عرام) ينظر لماجد ثانية بامتنان فاقرأ:

- لم تُنْجِبْ ظني فيك يا (ماجد).

- عمَّ تتحدث يا أميرنا؟

- عما أخبرت به شقيقك.

- والله ما أخبرته إلا بالحقيقة.

ارتاح (بن عرام) أكثر بمقعده وهو يتنهد قائلاً:

- عجيب أنك لست من الماليك وتحمل لي صفاء نية لا يحمله أبناء جلدتي.

- أراك مثقلًا بهموم الأرض، هل عودتك لإマارة الإسكندرية أثقلتك بالهموم؟

- لا.. بل القاهرة المحروسة هي ما تقلني.

دخل الخادم (حسن) إلى القاعة حاملاً صينية نحاسية عليها إبريق امتلأ باللبن الساخن المُحلّى بالعسل وأكواب نحاسية مزخرفة يمتلىء إحداها بالماء والبقية فارغة، وضع الصينية على الطاولة المقابلة لماجد الذي أخذ الإبريق وتناول كوبًا فارغًا أصبَّ فيه القليل من اللبن وشربه على دفعه واحدة.

فعلَ ما فعلَ لأنَّ هذا ما علَّمه إيه والده، أن يشرب من نفس الكوب الذي سيشرب منه أمراء الماليك ليثبت لهم أنه غير مُسْمِمٌ، وأصبحت تلك عادته التي يفعلها لا شعوريًا أمام من يضييفهم من الأمراء، حتى إن (بن عرام) لم يلقي

بِالْأَلْمَا يَحْدُث لَأَنَّهُ تَعُودُ عَلَيْهِ هُوَ الْآخِرُ وَلَوْلَمْ يَفْعُلْ (ماجد)
مَا فَعَلَ فَلَنْ يَقْرَبْ (بن عرام) شَرَابٌ وَلَا طَعَامٌ فِي دَارِهِ.
أَعْادَ (ماجد) صَبَّ الْلَّبَنَ فِي نَفْسِ الْكَوْبِ الَّذِي شَرَبَ مِنْهُ
وَأَعْطَاهُ لَابْنِ عَرَامِ الَّذِي تَنَاهَى وَهُوَ يَرْتَشِفُ مِنْهُ مُسْتَمْتَعًا
وَ(ماجد) يَقُولُ:

- مَا أَعْلَمْهُ أَنْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ (سيف الدين برقوق)
حَفَظْهُ اللَّهُ يَقْدِرُكَ وَيَحْبُكَ.
- السُّلْطَانُ لَا يَفْهَمْنِي، يَخْيَّلُ إِلَيْهِ أَنِّي خَطَرْتُ عَلَى سُلْطَانِهِ،
وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا بِقَلْبِي نَاحِيَتِهِ.
- أَعْتَدْتُ يَا أَمِيرَنَا بِأَنِّكَ تَشْعُرُ بِالتَّفْيِي فِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ،
بَعْدَمَا كُنْتُ وزِيرَ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ بِالْمَحْرُوسَةِ.

نَظَرَ (بن عرام) لِماجد وَقَالَ بِلَوْمٍ:
- قَلَهَا وَلَا تَخْفَ، قَلْ إِنِّي عُزِّلْتُ عَنِ الْوَزَارَةِ ثُمَّ عَيْنَتِ
فِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِأَبْعَدِي عَنِ مَصَارِعِ الْحُكْمِ فِي الْقَاهِرَةِ.
- وَمَا الضَّيْرُ فِي أَنْ تَكُونَ هُنَّا فِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ؟، لَمَذَا لَا
تَرَا هَا فَأَلْ سَعْدَ عَلَيْكَ، عَلَى الأَقْلَلِ لَنْ تَكُونَ وَسْطَ الْمَخَاطِرِ
حَتَّى تَتَهَيِّئَ الْغَمْمُ وَالْمَعَارِكُ حَوْلَ الْعَرْشِ وَيُمْكِنُكَ وَقْتَهَا أَنْ
تَعُودَ لِلْوَزَارَةِ ثَانِيَةً.

ضَحِّكَ (بن عرام) وَهُوَ يَرْتَشِفُ لِلْلَّبَنِ وَيَقُولُ:
- لَقَدْ تَمَكَّنَ مَالِيكُ الْجَرْكَسُ مِنْ مُفَاصِلِ السَّلْطَانَةِ يَا
(ماجد) وَاتَّهَى الْأَمْرُ، مَالِيكُ التَّرَكِ أَصْبَحُوا خَدَامَهُمْ.

- علمني والدي يا أمير أن في عرف الماليك كل شيء ممكن، وإن كان الجركس في الحكم اليوم، فغدًا يفعل الله ما يشاء، وربما كنت أنت السلطان بعد طول عمر سلطاناً بالطبع.

- ابتعد عن القاهرة خطوة على خطوة، يجب أن أكون وسط مكائدكم قبل فوات الأوان.

صبّ (ماجد) اللبن في الأكواب ثانية وتناول كوبه وارتشف منه مفكراً وهو يقول:

- هل هناك حاجة لوجودك في الإسكندرية بنفسك؟ ضع نائباً لك وأذهب إلى السلطان في القلعة.

- والسبب؟

- عندي اقتراح، مارأيك أن تخبر السلطان بأن هناك مكيدةً تدبّر له من بعض عماليك الترك.

أبعد (بن عرام) بصره عن (ماجد) وهو يقول باستخفاف:

- أنت لا تفهم شيئاً عن مكائد الماليك، سيعلم السلطان

...

قاطعه (ماجد) متھمساً وصوته يشبه الفحيح وهو يقول:

- لكنك ستتحبّط المؤامرة فعلًا، ستقوم بقتل 20 ملوكاً من الترك من يتولون حراسة القلعة.

صرخ فيه (بن عرام):

- أجتنب؟

- لا، أنا أخبرك بما فيه مصلحتك، أنا أسمع أن لكل باب من أبواب قلعة الجبل نوبة حراسة يتبادل عليها فرقان من الملائكة، اختر نوبة بها ملائكة الترك، واقتلو عدداً كبيراً من أفرادها بشكل سري، واخترهم من غير الملائكة السلطانية، ثم اذهب للقلعة بشكل مفاجئ وانفرد بالسلطان وأخبره بأن عيونك أرشدتني للمؤامرة لكنك فضلت التصرف في أسرع وقت وقتلتهم قبل أن ينفذوا مهمتهم، واطلب من السلطان أن يخفى الأمر عن الجميع كي لا تدب الفتنة بين ملائكة الترك والجرأسة الذي يتميّز هو لهم.

ظهرَ بعض الاقتتال في عين (بن عرام) وهو يضع الكوب على الطاولة أمامه ويقول بشك:

- السلطان (برقوق) سيسألك، لو كنت أنا بموضعه لشككت.

- وهذا هو المطلوب، أو تدخل الريبة قلبه، لن يصدق، ولكنه لن يكذب حتى تأتيه البيضة، وفي ذلك الوقت يرتفع شأنك عنده ويعطيك الفرصة للعودة للقاهرة ثا... توقف فجأة (ماجد) عن الحديث وكأنه تذكر شيئاً.. شرد بعقله لحظات استفزت (بن عرام) الذي قال بعصبية:

- ما بك؟

- أخبرني يا أمير.. ألم يأمر السلطان بحبس الأمير (بركة اليبيغاوي) وأنصاره في سجن ثغر (الإسكندرية)؟

- نعم لكنه عفا عن أنصار (بركة) وأشرف أنسا بنفسه على خروجهم وعودتهم للقاهرة منذ أيام طوال.

- إذاً لم يبق في سجن (الإسكندرية) ملوكى بأهمية الأمير (بركة)؟

- أفضى لي بما يعتمل برأسك.

نظر (ماجد) ناحية باب القاعة ليتأكد من عدم اقتراب أي جندي من الباب، ثم همس قائلاً:

- (بركة اليبلغاوي) هو عدو سلطاناً، والجميع يعرف أنها تنافس على حكم مصر والشام، منذ سنين، وانتصر السلطان بأتباعه من الماليك الجراكسة وحبس الأمير (بركة) وأتباعه من ماليك الترك، ثم أفرج عنهم واحداً بعد الآخر وملكون بعض المناصب ليتقى شرهم.

- لم تضف على ما يعرفه العامة بمصر جديداً.

أكمل (ماجد) بخيث:

- لكن الصراع ما زال قائماً، أليس كذلك؟

- هاتِ ما عندك.

- طالما (بركة) ما زال حياً في السجن، يظل عرش السلطان مهدداً، فربما استطاع ماليك (بركة) إخراجه وتنصيبه.

- لا تكون أحمق وتفكر في قتل الأمير (بركة)، فهو خشداش السلطان، تربى معه عند نفس الأستاذ والمملوك لا يقتل خشداشه.

- لكن السلطان يحلم بقتله لتشهيه الفتنة ويتفرق أتباعه، وإن قتله لشار أتباعه وماليكه من الترك وربما قتلوا السلطان.

داعب (بن عرام) شاربه وهو يقول مفكراً:

- تقصد أن يقتل (بركة) بمحبسه، ولكن بدون أمر السلطان؟

- وهذه هي مكيدتك يا أميرنا.

- أقتلته أنا؟

- لا.. هذا هو ما سيحدث.

أنهى (ماجد) عبارته في وقت نهوضه وذهابه ليغلق باب القاعة وهو يكمل:

- انس كلّ ما قلته لك عن ذهابك للقاهرة وقتل الماليك لظهور للسلطان بمظاهر المدافع عنه، عليك بالمكوث بيتنا في (الإسكندرية)، لأن السلطان يستعد لقتل الأمير (بركة) في سجنه وتلفيق التهمة عليك ثم الاقتصاص منك ليشفى غليل ماليكه.

عاد للجلوس أمام (بن عرام) وهو يكمل:

- عليك بزيادة الحراسة على (بركة) ومنع أي رجل من الاقتراب منه، حياتك يا أمير تتصل بحياة سجينك، وسيخلص السلطان من (بركة) ومتى بضربة واحدة.

- تفكيرك غريب لكنه عاقل.

- إن طلبَ منكَ السلطانُ الخضور للقاهرة عليكَ بنقل
(بركة) من محبسهِ لـ كانِ آمنٌ حتى تعود للإسكندرية، لا
تنسِ يا أمير، فحياتك على المحك.

منتصف الليل حلَّ على (ماجد) وهو جالسٌ على
وسادة مريحة بـ أحدى قاعات داره، ما زال الحوار بينه وبين
(بن عرام) يدور برأسه ويُعاد مراًةً منذ غادر الأمير، فَكَرَّ
بأنه قد زود الحراسة الليلة على الأمير (بركة) بـ سجن ثغر
(الإسكندرية) كما اتفق معه.. المشكلة أن قلقه الآن مضاعف،
 فهو يعلم عن المهايلك الكثير لكنه ليس منهم، فهل صدقه
(بن عرام)؟

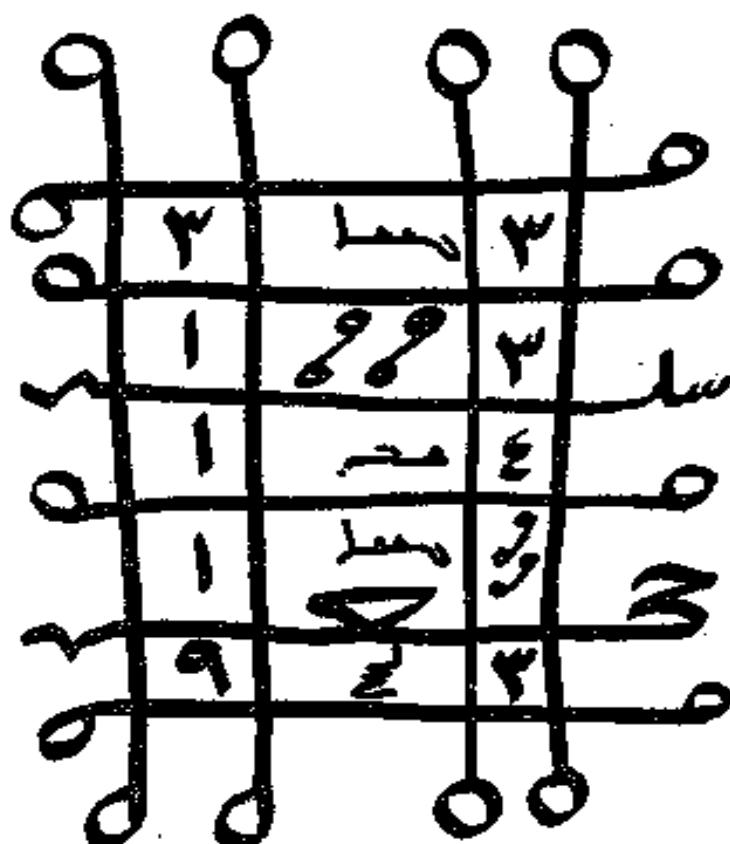
فَكَرَّ هل يجب عليه تنفيذ ما انتوى عليهِ منذ أيام؟ هل
سيفشل فيقبض عليه ويقتل كما قتل جده (غраб)؟ هل
سيقف شقيقه الأصغر (إبراهيم) وسطَ الجموع ليشاهد
إعدامه كما شاهد هو توسيط جده؟ هل سيأخذون (إبراهيم)
من أمه والتي هي زوجة والده الثانية؟ أم سيقتلونه؟

الفرصة التي ستحت له هذه الأيام ربما لن يطالها
مستقبلًا؛ لذا نهض مثاقلاً ووقف يتنفس ببطء ليجبر نفسه
على الهدوء والاتزان قبل بدء ما سيفعله.

تجزَّرَ من كامل ثيابه حتى أصبح كما ولدته أمه، ذهب
لصناديق أغراضه في طرف الغرفة وأخرج منه حقيبة من

القماش الأحمر مملئه، سحبها حتى متتصف الغرفة عند
مصباح الزيت الذي اشتعل طرفه ليضيء المكان بجانب
مصابح آخر معلق على الجدار.

أخرج من الحقيقة أدواته وقطعة قماش بيضاء مربعة
المقياس، فضها على الأرض وأخرج دواة حبر عاملها بحرص
كبير وهو يضعها على الأرض، فتحها ليظهر داخلها سائل
أحمر تطفو داخله قطع صفراء تشبه جبات الأرز، تناول قلم
من البوص المدبب حفر عليه طلasm ورسومات وحروف،
غمسه في الحبر الذي يسميه المداد الروحاني والذي صنعه
منذ ثلاثة أيام فقط، ثم رسم بتأنٌ على قطعة القماش طلسيًا.



ترك قلم البوص على الأرض وغمس إصبعه الإيمام في الخبر ثم رسم ثلاثة دوائر على جسده، واحدة أعلى فخذه وأخرى عند موضع الطحال وأخيرة بجانب أذنه.

جلس على ركبتيه بجانب مصباح الزيت الذي يشبه مصباح شخصية (علام الدين) الخيالية، أطفأه وأخرج فتيله، وألقاه بعيداً، أمسك قطعة القماش المطلسمة ولفها حول نفسها حتى صارت كفتيل في هيئة قريبة من الحبل، ألقى بعض الزيت من المصباح عليها ثم أدخل طرفها في المصباح لتصبح كفتيل الشمعة.

أشعل طرفها بحرص بحجر الإشعال المتشر في منازل مصر، أضيأت بوهج عالي وهو يقول بخوف:

- أقسم وأعزم عليكم أيها الجن والأعوان والخدم والمردة والشياطين والغواصين والطيارين في الهواء، وساكنني الجبال والتلال والرمال والأشجار، والساعة والسبعين فرقه منكم والجنود والعساكر والوزراء والملوك، بشسلة القعقعان وقسمها وسرها وزجرها أن تظهر لي البيان بصوت أو همس أو حركة أو رجف.

نظر حوله مترصدًا لما سيحدث لكن الصمت بقي على حاله. أعاد ترديد عبارته لسبع مرات.. لا علامه على شيء. افترش الأرض على ظهره والخصير يضايق جسده العاري ويؤلمه، ثبت نظره على سقف الغرفة المظلمة يفكر في جدوى

ما يفعله، هل أخطأ في تلاوة القَسْم؟ ربما ما علّمه إياه
والده لا يضر ولا ينفع؟

طالت أفكاره حتى بات لا يعلم كم مضى عليه وهو في
هذا الوضع، حتى سمع الأصوات.

ليست أصوات خفيفة لمن تعود عليها، فهي أصوات مواء
قطط خارج منزله، القطط تنتشر بشوارع مصر كلها فليس
غريباً عليه أن يسمعها في أي وقت ليلاً نهاراً، لكنها هذه المرة
أكثر قليلاً من المعتاد، مواء عنيف وأصوات غرغرة تخرجها
القطط من حناجرها كأنها متزعجة من شيءٍ تراه.

أضيفت على أصواتها صوتُ كلابٍ تبح بلا انقطاع
بجنون وكأنها تهاجم شخصاً أو تخيفه، نظر لمصباح الزيت
ونهض متأهباً، سمع طرقاً على باب الغرفة، ثلاث
طرق، هل هي علامـة؟

- أعطـني علامـة أخرى على الحضور.

قالـها بعدم ثقة خوفاً من أن يكون قد تخيلـ ما حدث،
اهتز ضوء اللهب واشتم رائحة عفن ملأـت أنفـه لدرجة
وضعـه يـده على وجهـه يـسد أنفـه، لو كان قد نجـح فهو الآن
في نقطة اللاـعودة.

حافظ على استقامة ظهرـه وأغمـض عينـيه وهو يـشير بيـده
اليمنـى للمواضع التي رسمـ عليها دوائر بجسـده وهو يقولـ:
- عـال مـتعـال في عـلوـه بالـأجنـاد الـقوـية، عـال مـتعـال في عـلوـه

بالأجناد القوية، أجيبيوني من قبل حلول العذاب ووجوب
النkal بالشلالات السريانية حر.. حر.. قر.. قر.. شر.. شر،
انزلوا على (بركة) الملقب بزین الدين الجویانی الیلغاوی،
انزلوا على (بركة) الملقب بزین الدين الجویانی الیلغاوی،
بالضرب والتسليط بمواضعی هذه
أحس (ماجد) بآلم في جسده في نفس الموضع التي يشير
إليها، ولكن أكمل:

- أين كردم أين دردم، أين عصاب، أين صاحب جبل
الدخان، أين الراكب على الفيل والمتمم بالثعبان، بتکفال
بصعى کعی مهیال مطیعین لك يا آل زریال، بسفح دم (بركة)
وقتله في التو واللحظة..

في سجن ثغر (الإسكندرية) نام قائد الحراس على فرشة
صغريرة بغرفة النوبة، انفتح باب الغرفة فجأة ودخل جندي
يصرخ في قائدته الذي استيقظ مفروعاً وهو يشتمه بلغة قبائل
الترك:

- هصيبة بعنابر الأمراء يا سيد.

ولأن القائد كان ينام بكمال ملابسه فقد سحب سيفه
المعلق، ووضع عمامة على رأسه في لحظات وهو يجري
خارج الغرفة وأمامه الحراس حتى وصلا إلى مرج سجن
الأمراء مليء بزنزيز الأمراء المهايك.

بعض زنازينه يطل منها الأمراء المحبوسون ينظرون إلى زنزانة بعينها بخوفٍ وهم يتكلمون هامسين، وبعضهم يقرأ القرآن، كانوا ينظرون لزنزاناً الأمير زين الدين (بركة)، اقترب القائد من الزنزانة وهو يراه راقداً على ظهره يتاؤه ممسكاً بمواضع بجسده، ثم يتحول التاؤه إلى صرخات، ولأن القائد ملوكى فهو يعلم أن (بركة) لن يصرخ من ألم بسيطٍ من الممكن تحمله، فقد تعرّض هو وبقية المهايلك لآلام لا يتحملها البشر الطبيعي.

- افتح باب الزنزانة.

قالها القائد بعصبية فردَ الجندي خائفاً:

- لربما كانت مكيدة من الأمير.

صرخ فيه القائد فأخرج الجندي المفتاح الذي يفتح كل زنازين هذا الممر ورشقه في القفل، لكن الوقت كان قد فات. فالامير (بركة) تلقى ضربة على جانب رأسه الأيمن من شيءٍ غير مرئي لكن صوت تحطم عظام ججمته كان واضحًا، بعدها سكنَ جسد (بركة) والدماء تسيل من رأسه تصنع ببطءٍ بركةً من الدماء والقائد يصرخ في الجندي:

- اذهب لطواشى السجن، وأخبره أن يستدعي الأمير (خليل بن عرام).

انطفأ نار المصبح الزيتني فجأة فنظر له (ماجد) في حيرة
وهو يمسح عرق جبينه بيده، حتى أتساءل صوت يخبره في أذنه:
- تم مرادك يا ابن آدم.

نظر حوله في جزع وكأنه كان يتوقع أن يرى من يحدثه،
ثم هدأ غير مصدق لما سمع، ذهب لملابسه الملقاة وأعاد
ارتداءها بعقلٍ خاويٍ، وصوت القطط والكلاب يتوقف في
الخارج، جلس على الوسادة يلتقط أنفاسه بصعوبة ويحاول
أن يفكر، لكن عقله لا ي العمل، حاول التفكير في (بركة) لكن
عقله يمنعه، حاول ثانية التفكير في أنه قتل شخصاً لأول مرة
في حياته لكن عقله منعه.

ووسط حبات العرق التي تملأ وجهه تساقطت بضع
دمعات من عينيه لكنه لم يشعر بهم وهو يمسحهم مع عرقه.

(5)

2002 م

تسمر (سليم) واقفا ينظر إلى (بودي) الذي ما زال
يداري وجهه، شعر أن الكلمات تهرب منه لكنه قال بصوت
مبحوح:

- منذ متى ترى شخصا يقف بجانبي؟

أجاب (بودي) ببساطة:

- رأيته اليوم صباحا بجانبك يأتي ويهرب، ورأيته يحدثك
أكثر من مرة يحدثك في أذنك وأنت تهز رأسك كأنك تفهمه.

نظر (سليم) ناحية (صالم) الذي لا يراه الآن وقال:

- اذهب أنت من ينام بالداخل وراقبه، إن استيقظ أبلغني.

أبعد (بودي) يديه تدريجيا حتى نظر لسليم وابتسم:

- ألم تخف من هيئته يا (بودي)؟

قاما (سليم) محاولا السيطرة على صدمته وهو يجلس
على طاولة السفرة و(بودي) يجلس على مقعد بجانبه وهو
يقول ببراءة:

- خفت منه في البداية، لكن عندما رأيتك تحدثه تأكيدت
أنه طيب، لأنك طيب.. أليس كذلك؟
تراحت الأفكار بعقل (سليم) عما يشاهده (بودي)، لقد
وصف (صالم) بدقة، حتى حركته السريعة، هذا الصبي لا
يتخيل، لكن ما الذي أكسبه هذه القدرة؟

- هل أخبرت أباك بها تراه؟
يكاد يقسم (سليم) أنه رأى الخوف في عين الصبي، خوف
لم يرَ مثله عندما كان ينظر لصالم، قال (بودي):
- لن يصدقني لأنه لا يحبني، أمري كانت ستصدقني لكنك
تعرف ما حدث لها.

لم يشعر (سليم) بأن الصبي كان ينصب له فخاً، فبودي
توقع موتها لكنه غير متأكد، وشعر بأن عليه أن يختبر
(سليم) بادعاء أنه يعلم، لذا أجاب (سليم) بتأثر.
- أعرف.. رحمها الله.

في ثانية واحدة احتقن وجه الصبي واغرورقت عيناه
بالدموع، هنا فطن (سليم) للمكيدة لكنه لم يمنع نفسه
من الإعجاب بعقل الصبي، ثم تذكّر أنه عندما كان في
نفس عمره لم يكن غبياً، ومعظم الأطفال يعاملهم الكبار
باستخفاف وتكون التيجنة مثلها فعله (بودي) الآن.

رمت على رأسه فانهمرت دموع الصبي الذي حاول أن
يكتم صوته لكنه خرج متقطعاً، قال (سليم) بسرعة محاولاً

أن يشغل عقل الصبي وفي نفس الوقت يرضي فضوله:
- قلت لي إنك رأيت (صالم) الذي يقف بجانبي اليوم
أليس كذلك؟

من وسط دموعه أجاب:

- نعم.

- ألم تر شيئاً غريباً مثله؟

توقف الصبي عن البكاء وهو يستنشق مخاطه ويفكر ثم يقول:

- أمس رأيت شيئاً ما أخافني.. لكن لا أتذكره.

اتبه (سليم) هنا وهو يقول للصبي بهدوء؟

- متى رأيت هذا الشيء؟

- استيقظت أمس لأشاهد التلفزيون فسمعت صوت
أقدام تصعد على السلم، نظرت من فتحة عين الباب
السحرية فوجدت شخصاً لا أعرفه يحاول الدخول لشقتكم،
و...

- أكمل ولا تخف.

- لا أتذكر سوى وجهه خفيف ينظر لي.

قاها (بودي) وهو يهز رأسه دلالة الحيرة بينما (سليم)
يتحفز بمقعده ويقول:

- هل تتذكر وجه هذا الشخص؟

- نعم.

- أتقدر على وصفه؟

- لا.

لم تسلل الخيبة إلى (سليم) بل على العكس انتابته جملة من الأفكار حاول أن يقيس إداتها، كل أفكاره تتضمن استغلال الصبي، وفي نفس الوقت لا يقدر على تركه فهو الوحيد الذي يعلم بما حدث.. لم يفكر كثيراً قبل أن يأخذ قراره.

- (بودي) هل تعلم أن أبي وأمي وأخوتي ماتوا بالأمس.

برقت عين الصبي واتسعت وهو يقول ببطء:

- حتى (فاطمة)؟

لم يرد (سليم) على ماسأله وإن كان شعر بغضبه يفجور بأعماقه لثانية قبل أن يتحكم فيه وهو يقول:

- ما رأيك أن تساعدي مقابل أن أساعدك في أن لا ترى (صالم) أو أيّاً من الأشكال المخيفة تتحرك حولك.

- لكنني أرى شخصاً واحداً، الذي يقف بجانبك.

- مع الوقت سترى آخرين، لقد فتحت روبيتك وسترى الكثير الأيام القادمة.

لم يجد على (بودي) أنه يفهم كلماته و(سليم) يتنهد ناظراً للسماء مفكراً في شيء ما ي قوله لكن الصبي قال بعد أن هدأ من البكاء:

- كيف أساعدك؟

ابتسم (سليم) وقال بسرعة:

- أول شيء عدني أنك لن تخبر أحداً عما رأيته.

- أعدك.

- ثانٍ شيء سأجعلك تتذكر ما حدث بالأمس، ويعدها سلخلصك من كل ما يخيفك، لكن أريد منك أن تنفذ ما أطلبه الآن.

لم يفكر الصبي كثيراً وهو يهز رأسه متفهمًا وهو يقول:

- ما الذي يجب عليّ فعله؟

- أن تسبقني لغرفة الصالون الآن، وأن أسألحق بك.

قفز الصبي قفزًا من مقعده بحماسة كأنه يستعد للعبه جديدة وكأنه نسي كل ما حدث له و(سليم) يراقبه بدھشة وإعجاب حتى دخل (بودي) لغرفة الصالون المظلمة و(سليم) ينهض ويهمس:

- (صالم) احضر إن كنت تسمعني.

ھمس الصوت في أذنه:

- حضرت.

بنفس الصوت المنخفض قال:

- أعرف أنك تستطيع إدخال البشر في غيوبه لفترة،

أتقدر أن تتحقق ذلك على (أحمد) النائم بغرفة الصبي؟

- أقدر.

- لكم من الوقت بزمننا؟
- 15 دقيقة تقل أو تزيد.
- اسمع.. أنا أحتاج لأطول فترة ممكنة لأنني سأتعامل مع
قرين الصبي.

قال (سليم) عبارته وهو يتجه ليعاودر صالة استقبال
الشقة لكن شعر بأن ملابسه تحذب للخلف وصوت (صالم)
يقول بأذنه:

- أنت من نوع من هذه الأشياء، والدك لم يعلمك ما يكفي.
ببرود نظر (سليم) خلفه وقال:
- والدي مات إن كانت ملاحظتك جيدة، لم يبق إلا أنا
وأنت فلا تفك في التخلي عنّي.
- ستؤذني الصبي.
- لا تجادلني واذهب ونفذ الأمر ثم ساعدني في تهدئة
الصبي.
أنهى عبارته واتجه إلى المطبخ.

جلس (سودي) بجسده الضئيل على مقعد من مقاعد
الصالون الضخمة المزخرفة وهو يتقلب في جلسته بين الثانية
والأخرى بعدم راحة، وأمامه جلس (سليم) على ركبتيه والقلق
يعصف بعقله لكنه يخفى خلف ابتسامة مطمئنة.

- (بودي) سأستدعي الآن (صالم) الذي رأيته، أحتاج منك ألا تخف منه، وأن تعلم أنه يحبك ولن يؤذيك.

- لكن مظهره خيف.

بنفس الابتسامة أجابه:

- ليس له حيلة في شكله، هو وعائلته ومن يشبهونه يحملون مظهراً لم نتعود عليه، لكنه طيب القلب وإنما صادقته.

لم يلُد على الصبي أنه اقتنع بما يسمع لكنه هزَّ رأسه بتفهم، فقال (سليم):

- والآن أهدأ تماماً.. (صالم) أحضر الآن.

رأى (بودي) جسد (صالم) النحيف يدخل غرفة الصالون من أحد الحوائط، يسير ببطء حتى وقف بجانبه.

- أجعله ينام بعمق.

قاما (سليم) فلمس (صالم) بيده التحيلة رأس الصبي الذي أغلقت عيناه ونام بعمق غريب، نهض (سليم) وهو يدور في الغرفة ويقول بعصبية:

- لا أريد أنخطاء الآن يا (صالم)، سأستطع قرين الصبي ثم أنسيه ما رأى حتى يعيش حياة طبيعية.

برغم أن (سليم) لم يكن يرى (صالم) إلا أنه كان ينظر لنفس النقطة بجانب الصبي النائم التي يقف فيها تقريرياً، هنا أتى صوت (صالم) واضحاً يمكن لأي شخص سماعه:

- يمكن أن تتظر رجال أرض النحاس حتى يحضروا، هم أعلم منك.

- توقف عن تخييفي، ربما لن تسع لي تلك الفرصة ثانية.

- يمكنني أن أستجوب قرينه بنفسه.

- لا.. أنا أريد القرين في حالة موافقة ليمسح ذكريات الصبي بعد أن يبلغني بما حدث.

قاموا وهم يجلسون ثانية على ركبتيه أمام الصبي، رفع يده اليمنى ووضعها على جبهة (بودي) وقال:

- عزمت وأهبت عليك بفتح ينتا وبين قرينك، بحق الملك الذي نصفه من ثلج ونصفه من نار، وبحق الملك القاعد على الكرسي الجديد، وبحق الهواء السابع بين السماء والأرض، بحق من وصفوا باللون الأخضر المتصرفين بالأرواح، وبحق الكروبيين الذين يدخلون الحجب ويخرجون، في عين برق إذا أبرق ورعد إذا أرعد، بحق كل عزيمة عزمها مخلوق من طين على مخلوق، من نار أهيا شراهيا أهيا شراهيا ونحت شروا بدموتا عليك إن لم تخضع وتظهر، شرغ في السماء ينفتح تإن حيق عليك حتى تظهر، زجري إليك إن لم تحضر بكل أولاد الجان من أولاد كاح وحمال سلاح وسكان رياح، الغائصين طباق الشري والطائرين في الهواء والسابحين في الماء، السلام عليك يا قرين (عبد الرحمن)، يا من ولدت حين ولد، وبكيت حين

بكى، ومشيت حين مشى، احضر أمامي مستكين مستكين،
الوحـا الـوحـا العـجل العـجل السـاعة السـاعة السـاعة.

انتفض جسد (بودي) وتصلب، ولكنه ما زال نائماً، فتح
فمه لآخره ثم أغلقه وعاد جسده للاسترخاء، أطـلـ شـيءـ ما
برأسـهـ منـ رـأـسـ الصـبـيـ، رـأـسـ فيـ نـفـسـ حـجـمـهـ لـكـنـ بلاـ عـيـنـ
وـلـأـنـفـ، فـمـهـ يـشـبـهـ فـمـ الصـبـيـ وـشـعـرـهـ الأـسـودـ الأـكـرـتـ،
تـحـرـكـ الرـأـسـ شـبـهـ الشـفـافـ يـنـظـرـ يـمـيـناـ وـيـسـارـاـ بـلـأـعـيـنـ، لـكـنـ
هـذـاـ الرـأـسـ نـظـرـ لـصـالـمـ الـواـقـفـ.

– أنت قرين (عبد الرحمن)؟؟

نظر الرأس باتجاه (سليم) الذي لم يستطع إخفاء فزعه
 فهو لم يجرِ بنفسه استجواب قرين وكان الموقف غريباً عليه
 بل ومرعباً، لم يتكلم الرأس فأعاد (سليم) السؤال، فتكلم
 الرأس بصوت متحشرج وبنبرة ليست قريبة من صوت
 الصبي:
 – أنا.

لم يفهم (سليم) هل اكتفى القرين بتلك الإجابة أم هناك
 تكميلة.. مرت لحظات قال بعدها (سليم):

– ماذا رأيت بالأمس؟

لم يتحرك الرأس وظل ثابتاً فسمع (سليم) صوت (صال)
 يهمس بأذنه:

– أسأله بدقة أكثر عـيـاـ تـرـيدـ لـأـنـهـ لـنـ يـفـهـمـكـ.

استجتمع (سليم) رياطة جأشه وقال بصوت حاول أن يجعله مهيباً:

- هل شاهدت (صابر) الذي يسكن في الشقة المقابلة لك بالأمس؟

- نعم.

قالها القرین وصمت فسأل (سليم):

- أخبرني ما الذي كان يفعله وقت أن شاهدته.

بنبرات باردة لا تتحمل أي شعور بـأقرین في رواية ما شاهده.

استيقظ (بودي) على أصوات تأتي من خارج غرفته، نظر حوله بربية، ضوء النهار يدخل من النافذة، نهض وهو يمسك برأسه الذي شعر فيه بقليلٍ من الألم، هل يخبر والده بهذا الألم؟ لا سيلومه بالتأكيد.

نزل من على الفراش وهو يستمع لأصواتٍ تأتي من الخارج، الحقيقة أنه لا يتذكر كثيراً مما حدث الأيام السابقة، هناك ذكريات متفرقة عن أن والده نام بجانبه بالأمس في الفراش، وذكرى عن (سليم) لكنها ذكرى غير ذات معنى، يتذكر أنه يجلس يشاهد التلفزيون وقد خفض الصوت كي لا يوقظ والده وصوت أقدام تأتي من خارج الشقة.

كلها ذكريات غير مترابطة وغير مفهومة، لذا فقد أبعدها عن رأسه المتألم وتوجهه ناحية باب الغرفة يستمع لأصوات الرجال الآتية من الخارج.. تحديداً من صالة استقبال الشقة حيث جلس (أحمد) يرحب بشدة بضيوفه القادمين من سلطنة عمان، كانوا ثلاثة رجال أعمارهم بين الأربعين والخمسين، يرتدون ملابس غالية الشمن وتفوح منهم عطور قوية وترتسم على وجوههم ابتسامة محبيّة كأنهم تدرّبوا عليها أو على أقل تقدير قد تعودوا على مجاملة من حولهم.

بجانبهم يجلس (سليم) صامتاً وأكبرهم سنًا يوجّه كلامه إلى (أحمد) قائلاً بلهجّة عمانية سهلة الفهم:

- كنا نعلم أن لسليم أهلاً بمصر يحفظونه من كل شر ويقفون معه كمثل وقفتنا وأكثر.

كان الرجل مجاملاً بلا سب وأحمد يحاول أن يرد عليه بعبارة أكثر مجاملة لكنه كان يفشل في كل مرة، ولكن أعد ردّه جيداً وألقاه:

- يا (مؤيد) بيـه (سليم) كولـدي (عبد الرحمن) وهذا متـله ومتـلكم الـذـي أصـبـع عـامـراً بـوصـولـكـم الـيـومـ نـظـرـ (مؤـيد) لـسـليمـ وـقـالـ:

- بمـجرـد اـتصـالـكـم بـالـأـمـسـ حـجـزـناـ تـذـاكـرـ السـفـرـ وـجـشـناـ بـأـسـرعـ مـاـ مـكـنـنـاـ الـوـسـائـلـ، كـنـاـ نـعـلـمـ أـنـهـ فيـ حـيـاـكـ يـاسـيدـ (أـحمدـ) لـكـنـهـ وـلـدـنـاـ وـعـلـيـنـاـ أـنـ نـسـاعـدـهـ فـيـ العـودـةـ.

- للأسف يا عمي لن أعود للسلطنة، سأظل بمصر حتى
أنهي ما بدأه أبي.

قالها (سليم) بلهجـة عمانية أدهشت (أحمد) لأنـه تـعـود على
كلـام (سلـيم) بلـهجـة مـصـرـية لـنـ تـفرـقـهـاـعـنـ أيـ مـصـريـ تـقـابـلـهـ.
ضـيـقـ (مؤـيدـ) عـيـنيـهـ وـهـوـ يـلـمـسـ شـارـبـهـ الضـخـمـ بـيـدـهـ
الـيـمنـىـ بـحـرـكـةـ لـاـ إـرـادـيـةـ وـيـقـولـ:

- ما بدأه أبوك ستنهيه نحن، أمـ أنـكـ تـشـكـكـ فـيـنـاـ يـاـ بـنـيـ؟

- لا لا لا.. لكنـهاـ إـرـادـيـ.

- ستـتـنـاقـشـ فـيـ ذـلـكـ بـعـدـ عـودـتـكـ مـعـ المـغـفـورـ لـهـ إـلـىـ بـلـدـنـاـ.

قالـهاـ أـحـدـ الرـجـالـ بـأـدـبـ وـبـابـسـامـةـ وـدـوـدـةـ حـقـيقـيـةـ فـقـالـ
(سلـيمـ) بـسـرـعـةـ:

- أـظـنـ أـنـاـ سـبـداـ إـجـرـاءـاتـ شـحـنـ الجـثـثـ مـنـ الـيـوـمـ.

برـغـمـ ثـقـلـ كـلـمـةـ شـحـنـ الجـثـثـ التـيـ قـالـهاـ إـلـاـ أـنـهـ لـمـ يـنـدـمـ
عـلـيـهـاـ،ـ نـهـضـ بـعـدـهـاـ (مؤـيدـ) وـ(سلـيمـ) وـمـنـ مـعـهـ وـ(أـحمدـ)
يـطـلـبـ مـنـهـمـ الجـلوـسـ لـيـقـومـ بـضـيـافـهـمـ،ـ لـكـنـهـمـ أـصـرـواـعـلـىـ
الـذـهـابـ بـسـلـيمـ الـآنـ وـالـعـوـدـةـ فـيـ وـقـتـ آـخـرـ إـنـ اـسـتـطـاعـواـ.

خـرـجـواـ جـمـيعـاـ مـنـ الـعـمـارـةـ لـيـسـتـقـلـواـ سـيـارـةـ مـرـسـيدـسـ سـوـدـاءـ
أـجـرـهـاـ (مؤـيدـ) بـمـجـرـدـ وـصـولـهـ وـهـوـ الـذـيـ يـتـولـيـ قـيـادـتـهـ،ـ
الـغـرـيـيـةـ أـنـهـ طـوـالـ الطـرـيقـ فـيـ السـيـارـةـ لـمـ يـنـطـقـ أـحـدـهـمـ سـوـىـ
الـوقـتـ الـذـيـ يـسـأـلـ فـيـهـ (مؤـيدـ) باـعـتـبارـهـ السـائـقـ عـلـىـ الطـرـيقـ

فيجيده (سليم) الذي حفظَ الكثير من شوارع (المعادي) بسبب تسكعه مع مصريين تعرف عليهم من قاطني منطقة (المعادي).

خرجت السيارة واتجهت إلى طريق كورنيش النيل، وبعد أقل من ساعة كان (مؤيد) يركن السيارة في أحد شوارع منطقة (الهرم) الجانبيَّة الهدئَة، خرجوا ودخلوا أحد المنازل التي تُصنَّف كفيلاً صغيرة تحيط بها بعض الأشجار.

الجميع يتبع خطى (مؤيد) الواقة وهو يفتح الباب ويدلف داخل الفيلا التي امتلأَت بحقائبهم.. من الداخل لم تكن مجهَّزة بشكلٍ جيدٍ برغم أنها تؤجر كمنزل خاص مفروش لكنها نظيفة على كل حال.

جلس (مؤيد) على مقعد مريح والبقية يقفون له احتراماً، فأشار لهم بالجلوس على المقاعد والأرائك وهو يقول بجدية: - والآن سنوزع الأدوار علينا، أنا سأظل بمصر لأفهم ما حدث لصابر وأتأكد إن كان قتل أم...

قاطعه (سليم) برعونة:

- أنا الذي سأبقى.

صرخ فجأة (مؤيد):

- أجنت يا ولد.. تراجعني في كلامي، تأدَّب.

- هذا قرارِي يا عمي، من ماتوا هم عائلتي وهذا الشأن يخصني أنا وحدي.

قال أحد الرجال مؤيد ملطفاً الأجواء:

- (سليم) لا يقصد إهانة، هو فقط متهم ومشاعره هي قائدة آرائه الآن، دعونا لا ننسى ما حدث لصابر.
هذا (مؤيد) نوعاً ما وهو يتراجع بظهره للوراء ويداعب شاربه بيده قائلاً:

- إن كان (صابر) والدك فهو صديقي ورفيقي منذ صبايَا، ولنا عهد أنت لا تفهمه، وهو يخصني مثلما يخصك، لكن تلك الأمور لسن تؤخذ بحمية الشباب ورعونتهم، أنت أضعف مما تخيل.

- لن أكون ضعيفاً بمساعدتكم.

نظر الرجال لبعضهم البعض ثم قال أحدهم:

- مساعدتك في ماذا؟ نحن لا نعرف ما حدث بعد، سنبدأ بحثنا...

أوقفه (سليم) بإشارة من يده وهو يقول:

- أنا علمت، ماتت عائلتي على يد من كان يبحث عنه والدي.

ضيق (مؤيد) عينيه وهو يقول:

- كيف عرفت؟

- استجوبت قرينَ طفلٍ شاهدَ ما حدث.

نهض (مؤيد) غاضباً يردد:

- استجوبت قرين طفل؟ هل أصابك مَسٌّ من الجنون؟
- الطفل شاهد ما حدث وفتحت رؤياه على الجنان بالخطأ،
وأنا أصلحت الخطأ وحجبت الذكريات التي شاهدها كي لا
يجهن وفي المقابل عرفت كل المعلومات.

ركل (مؤيد) المقعد المجاور له بقدمه، ويرغم كبر سنه إلا
أن المقعد الثقيل تحرّك متراجعاً إلى الوراء من عنف الضربة.

- اسمع أيها المتحذلق ستعود معي مكبلاً لأعيد تريتك
ثانية، أتمارس السحر على طفل وتنتظر متأملاً ساعدتك.

قاها (مؤيد) وهو يصرخ فتهض (سليم) يصرخ هو
الآخر والدماء تجتمع في رأسه:

- لن أعود وكلماتي نهائية، وإن كنت صادقاً في علاقتك
بأبي فلي عليك حق في أن تساعدي.

صراخ (سليم) في وجه (مؤيد) أصابه بالدهشة وهو
المهاب من الجميع، لم يتقبل في البداية أن يواجهه مراهق بتلك
الطريقة المفلترة، فكر في أنه ليس مندفعاً أو متأثراً بسبب موت
عائلته، بل هذا هو طبعه الحقيقي، يعتمد على الانفجار على
مراحل وإن بدأ في الصراخ فلن يتوقف.. لذا سحب (مؤيد)
المقعد الذي ركله وجلس عليه وقال بهدوء مفتuel:

- لنفترض أني ساعدتك.. احك لي عن خطبك وما
ستفعله.

جلس (سليم) ويداه ترتعشان بشكل غير ملحوظ وهو
يسعل قليلاً ليعيد صوته لطبيعته بعد الصراخ وقال:

- لا أمتلك خطةً متكاملةً الآن، أحتج لأن أبدأ من البداية
مثلاً بـأبدأ والدي.

- قلت إن من قتل عائلتك هو من كان يبحث عنه والدك،
ماذا إن عاد وقتلك أو على أقل تقدير كان يبحث عنك الآن.

- هذا أول طلب لي عندك قبل أن أشرح لك أي شيء.

- أي طلب؟

- أريدكم أن تحضوروا قريني وتلقنوه بيانات مختلفة عني
وعن عائلتي وحياتي حتى لا يتم استجوابه بدون علمي.

سؤال أحد الرجال بدھشة:

- عم تتحدث؟

أكمل (مؤيد) بنفس الاستغراب:

- لا يوجد مثل هذا الشيء.

لكن (سليم) ردّ بإصرار وهو ينظر للأرض:

- وأريد أن تعلموني أن أخاطب قريني وألقنه ما أريده
من قصص وبيانات فيما بعد لأحمي نفسي في المستقبل من
الذي قتل عائلتي، وفي نفس الوقت لا أريد لذكرياتي الحقيقة
أن تُمحى.. ولا تحاولوا الإنكار فوالدي وأخي أخبراني بوجود
تلك الطريقة وأنكم تعلمونها.

عاد (مؤيد) يداعب شاريه مفكراً ثم قال:

- هل تعلم يا (سليم) لم جاء والدك لمصر؟

- ليتبّع حالات قتل سحرة مصرىين ماتوا بطرق غريبة.
- إذاً لم يخبرك والدك بكل شيء.

امتنع وجه (سليم) لكن (مؤيد) أكمل ببساطة:

- لا تحاول أن تدعى أنك علیم بكل الأمور، فأنا أعلم أن من كان سيختلف والدك هو شقيقك (هاشم) رحمة الله والذي تدرّب جيداً على مان فعل، أما أنت فلم تكن تستهويك طرائقنا ولا حياتنا، وفضلاً أن تتعلم القليل، وقد أحبك والدك وتركتك على راحتك، لكنه لن يرضي بأن أرمي بك إلى التهلكة لأنك ترفض تصديق أن هذا الأمر أكبر منك.

خيّم الصمت على الجميع و(مؤيد) ينظر لـ سليم يحاول قراءة تعابيرات وجهه، وهذا الأخير ينظر للأرض في نفس وضعيته الثابتة.. كم مرّ والجميع ساكنون كالتهائيل.. ربما دقيقة أو أكثر، نظر بعدها (سليم) مؤيد وقال بنبرة هادئة واثقة:

- لن أجبركم على شيء، ولن تجبروني بالمثل، الحقيقة التي لا جدال فيها أني سأعيش بمصر وأبدأ رحلة بحث طويلة عنها كان يبحث عنه والدي ومعي الأساسيةات، موقعي مسألة واردة بدون مساعدتكم لكن لا اختيار أمامي فأنا أعرف طريقي، فهل تعرفون طريقكم؟

أكمل (مؤيد) تحريك أصابعه على شاريه وهو ينظر لـ سليم بلا كلام، بعد فترة ليست بالطويلة ابتسם وقال ببساطة:

- أرى أمامي رجلاً لا مجرد مراهق، تذكّرني بنفسي وبصابر
أبيك وبكثير من الناس، تلك الطاقة التي تسري في جسدك
ولا تعلم مصدرها، لكن عندي سؤال فضولي أرجو أن
تجيبني عليه بصراحة، هل تشعر بالخوف؟

بلا تفكير أجاب:

- لا... لم يبق عندي ما أخسره لأشعر بالخوف.
ابتسم (مؤيد) مستهزئاً وهو يتأمل بعينيه سقف الفيلا
ويقول كأنما يخاطب نفسه:

- حتى ولو علمك والدك رحمة الله عليه لم يكن سيعلّمك
على طريقتي الخاصة.

ثم نظر لسليم في عينيه وأردف:

- بما أنني سأساعدك فيجب عليك أن تتعلم معنى
دروسك، وأوها أنك عليك أن تحافظ على خوفك، لو فقدت
القدرة على الخوف ستفقد قدرتك على الحذر.. لا تتبااه بأنك
لاتخاف فمن يدعون ذلك هم أكثر أشخاص يمكن إفزاعهم
وتهديدهم لأنهم يعيشون وهم القوة ويقيمون قدراتهم بأعلى
من الحقيقة.

لم يعرف (سليم) أيفرح أم يتبه لكلمات (مؤيد)، لكن هذا
الأخير لم يعطه الفرصة لأنه نهض من مقعده مشيراً للرجلين
وهو يقول:

- ثبتوه على الكرسي جيداً.

أمسakah من كل يد بقوة و(مؤيد) يقول:

- سأنفذ لك ما تريده ولنبدأ معاً صفحة جديدة، سأغير
من هوية قرينتك وأبقى على هويتك، لكن احذر دائياً مما
تتمناه لأنك ستتحمل نتائج أخطائك.

اقرب منه (مؤيد) ووقف أمامه وهو يكمل كلماته:

- والمعضلة يا (سليم) أن الأخطاء في طريقنا هذا تساوي
الموت أو الحياة.

(6)

١٣٨٢ م - الإسكندرية - مصر

تبَدَّل حَالُ (ماجد) مِنْذُ أَيَامٍ، يَجِلس شَارِدًا فِي غُرْفَتِه بِدِيوان (الإسكندرية) يَتَحَدَّثُ الْعَامِلُونَ تَحْسِتُ يَدِه عَلَى أَصَابِيهِ، يَتَلَقَّى الْأَوَامِرَ مِنْ (القَاهِرَة) وَيُشَرِّفُ عَلَى تَنْفِيذِهَا، يَتَشَرَّعُ عَلَيْهِ فِي كَامِلِ قَاعِسَاتِ الدِّيْوَانِ يَعْمَلُونَ بِنشَاطٍ خَوْفَى مِنْ عَقَابِهِ، يَقُولُونَ إِنَّهُ كَانَ صَارِمًا فِي عَمَلِهِ كَأَبِيهِ وَجَدِهِ، لَا يَتَهَاوُنُ فِي مَعَاقِبَةِ مُخْطَىءٍ أَوْ رَدْعِ جَبَارٍ، عَيْنَاهُ مُسْلِطَانٌ عَلَى كُلِّ الدَّفَّاتِرِ وَالْأُورَاقِ دَاخِلَ الدِّيْوَانِ يَوْمِيًّا فَلَا تَفُوتُهُ فَاتِّهَةٌ.

لَكِنَّ حَالَهُ تَبَدَّلَ فَجَأَةً، أَصَابَهُ الْهَمُّ وَزَاغَتْ عَيْنَاهُ وَتَوقَّفَ عَنْ عَقَابِ الْمُخْطَىءِ مَكْتِفِيًّا بِلْفَتِ نَظَرِهِ، بِالْخَتْصَارِ تَبَدَّلَ تَامًا، يَقُولُ الْبَعْضُ إِنَّهُ تَأْثِيرٌ بِهَا حَدَثَ لَابْنِ عِرَامَ، الْقَصَّةُ أَنَّ (بَنَى عِرَامَ) أَعْلَنَ عَنْ مَوْتِ الْأَمِيرِ (بِرْكَةُ الْيَلِبِغَاوِي) فِي مَحْسِنَةِ مِيتَةِ طَبِيعِيَّةٍ ثُمَّ أَمْرَ بِدُفْنِهِ، بَعْدَهَا بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ حَضَرَ لِلإِسْكَنْدَرِيَّةِ الْأَمِيرُ (يُوسُفُ النُّورُوزِيُّ الدَّوَادَارِ) بِنَاءً عَلَى طَلْبِ السُّلْطَانِ، وَفَتَحَ قَبْرَ (بِرْكَة) الْمَدْفُونِ بِجَانِبِ السُّجُنِ فِي مَدَافِنِ الْمَهْمَشِينَ مِنَ الْمَسَاجِينَ.

لم يكن صعباً الوصول لجشه والتي لاحظ فيها الأمير (يوسف) ضربات عدة بالفخذ والكلى وضربات قاتلة بالرأس، قبض على (بن عرام) وأخذه (يوسف) معه للسلطان (برقوق)، وآخر ما وصل إلى (الإسكندرية) من أخبار أن (بن عرام) وضع في خزانة الشمائل بالقلعة، وهو الموضع الذي يرتعب من ذكره المماليك، سجن مرعب مخصص للأمراء صنع خصيصاً لكسر إرادة المماليك، الأهوال التي تحكم عنده أصعب من أن تصدق.

فانتشرت بعض الأحاديث الجانبيّة لدى العاملين بالديوان بأن (ماجد) كان على صلة طيبة بابن عرام وأنه حزين لما حدث له، هذا هو التفسير الوحيد، فموت (بركة) مرّ على عوام (الإسكندرية) مرور الكرام كما مرّ عليهم القبض على (خليل بن عرام)، وكما يقول الناس ببر مصر أن مصارع المماليك تخصلهم يقول المماليك أيضاً بأن شؤون العوام للعوام، وكأن عالم المماليك والعوام لن يختلط أبداً كي لا تنهار مصر والشام، أو هذا ما اعتقده الجميع.

أصوات خارج غرفة (ماجد) تأتي عالية لتخرجه من شروده فيهض من خلف مكتبه الصغير ليفاجأ بأحد الرجال يأتى وفي يده خادمه (حسن) الذي قال لاهثاً:

- الأمير (محمود) في دارك يا سيدتي.

- (محمود)!!!!!!

نظر له (حسن) نظرة ذات معنى وهو يقول:

- الأمير (محمود بن الأصفهاني).

- أتركت الدار بلا رجال؟

- أمرني الأمير بذلك ولم يقبل حتى بأن أرسل لك رسول، وهو الآن يجلس في السلاملك بقاعة المسافرين مع (إبراهيم).

لم يرتد (ماجد) عمامته وهو يهرب و(حسن) يحاول اللحاق به.. لحظاتٌ وكان (ماجد) يمتنع جواده من إسطبل الديوان ويلكره بعنفٍ محاولاً الإسراع، ولأنه ليس خيالاً ولم يتعود الجري بفرسه فقد كاد يسقط أكثر من مرة من عليه ناهيك عن البلبلة التي أثارها وسط الشوارع إلى منزله والناس تهرب من حوافر الخصان العجوز.

دقائق وقد وصلَ إلى مدخل قاعة المسافرين بداره، وجد في الشارع ماليك لا عدد لهم، بملابس القتال وبالشادات العسكرية والخوذات في مشهد لم يره من قبل إلا وحمل وراءه مصيبة، هؤلاء الجنود جاهزين للقتال حقاً لا كذب، والدليل أن اثنين منها أشهرا في وجهه الرماح وهم ينظران لعينيه بتحدة كأنهما يدعوانه للاقتراب كي يقتلاه.

قبل أن يتكلم سمع صوتاً من داخل القاعة يتكلم بلهجة قبائل الترك فأبعدا السلاح عن وجهه (ماجد) وأحد هم يقول بلهجة مصرية مخطوطة:

- أنت (ماجد بن غراب)؟

هزّ (ماجد) رأسه برعّب فأشار له ملوك آخر بالدخول من باب القاعة، ترك حصانه في الشارع بدون حتى أن يربطه، ودخل ليجد الأمير (محمد) بكامل ملابس التشريفة يجلس على أحد المقاعد يداعب (إبراهيم) وهو يعلم نطق بعض الكلمات بلغة قبائل (القبجاق) والطفل سعيد وهو يكرر نفس الكلمات بدقة، وكان (محمد) لم يلحظ (ماجد) إلا في تلك اللحظة وهو يمثل الدهشة حين دخوله ثم ينهض فاتحًا ذراعيه على اتساعها قائلاً:

- الحبيب ابن الحبيب ابن أعز حبيب.

لم يقترب (ماجد) كثيراً لأنه لم يفهم سبب تلك الطريقة، الملايك لا يسلّمون على العامة بتلك الطريقة، لكن (محمد) لم يمهله وقت للتفكير وهو يختضنه ويربّت على ظهره قائلاً:

- أنا المخطىء في عدم سؤالي عنك، لكنك تعلم انشغالي في المروسة منذ تركت (الإسكندرية).

لم يتكلم (ماجد) مذهبًا وحاسته السادسة تخبره بأن يقلق من شيء ما، عاد (محمد) للجلوس وأجلس (إبراهيم) على قدمه يداعب شعره ويقول:

- اجلس يابني فعندي الكثير من الذكريات لأفتحها معك.

جلس (ماجد) يحاول لم شتاته و(محمد) ينظر للقاعة بحنين قائلاً:

- يا إلهي، أفننت عمرى في هذه القاعة أيام جدك (غраб القبطي) رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.. كان يجتمع بنا هنا ولم تكن أنت قد ولدت بعد، ولن تصدق أنه عاملنى كولده (عبد الرزاق) رحمه الله.

قال عبارته وهو يهز رأسه بورع، ثم نظر لماجد يقول:

- اعتذاري لك يا بني لأنني لم أعزّك في وفاة أبيك (عبد الرزاق).. عظم الله أجرك.

- غفر الله ذنبك يا أمير.

كانت تلك أول عبارة ينطقها (ماجد)، وبرغم أنه لم يقصد إلا أنها خرجت منه بنبرة اتهام، فابتسم (محمد) بخث وقال:

- أعلم أنك غاضب مني لأنني نزلت بالإسكندرية في السنوات السابقة ولم أزر دارك، لكنك تعلم أنني من أرباب السيف، ولا أتحرك إلا في مهام أكلّف بها من أستاذى أو السلطان.

هنا استطاع (ماجد) استعادة هدوئه الظاهري وهو يتأمل وجة (محمد) الذي اقترب من الخمسين في العمر وهو يقارنه بوجهه الذي رأه يوم إعدام جده (غраб)، وكلمات (عبد الرزاق) والده يحذره منه أشد التحذير حتى إنه قال إنه يأمن للأفعى في حضنه ولا يأمن لمحمود في سجنه.

- حاش الله أن أغضب منك يا أمير، فأنت بمثابة الأب

والستد والعزوة، بل سامحني أنت على عدم ترحبي فلم
يجهل بخيالي أن تشرف داري المتواضعة، ووالله لو علمت
بقدومك لاستقبلتك بنفسي راجلاً على باب (الإسكندرية).
عاد (ماجد) للملعب ثانية وهو يرد الجُمل والكلمات
بأحسن منها أو لنكون صادقين عادت له القدرة على نفاق
أعدائه كما علمه أبوه، دخل من باب القاعة (حسن) بعدما
سمح له الجندي فقال (محمود) بسرعة:

- خادِمُك المطير أخبرته بأن يذهب لا حضارك لكنه
مانع، فأأخبرته بأن دار (غраб) هي داري، وحرمتها حرمتني
ولكنه نسيني على ما يedo.

أجاب (حسن) متأنباً:

- ما عاذ الله أن تغيب طلعتك البهية عن عقلي يا مولاي،
إن ضايفتك فهو حكم السن.

ضحك (محمود) ونظر لإبراهيم وهو يقول:

- من يقيم في داركم يتعلم الكلام المسؤول.

ابتسم له الطفل بغير تعليق فوجده (محمود) كلامه إلى
(حسن):

- بعد إذن صاحب الداري اشتياق لمشروب لم أذق في مثل
حلوته منذ انقطعت صلتي بداركم، مارأيك يا (حسن) أن
تعدل لي شراب العتاب بالسكر المذاب؟

ابتسم (ماجد) وقال:

- تذكر يا أمير أن (حسن) ينفعه في الماء كل يوم ليقدمه
لجندي وأبي.

- ومن ينسى، هل ستتحفني به؟

أشار (ماجد) برأسه لحسن الذي غادر القاعدة ليدخل
الدار و(محمود) يقول:

- لم أحضر ولادة (إبراهيم)، أهو شقيقك من الأم؟

- تزوج والدي بعد وفاة أمي وجاء منها بإبراهيم فأصبح
كابين لي.

نظر (محمود) إلى (إبراهيم) يتأمله وهو يقول:

- لكم يذكُّري بجدك الذي هو لي بمثابة الأستاذ.

- أعرف أنك أحببته.

- بالمناسبة (إبراهيم) يتعلم اللغات سرِيعاً، لقد أخبرني
بعض العبارات بالقبطية، أتعلمها له؟

- مجرد تسلية للطفل.

- وعلمت أنه يتعلم السريانية، لم أعلم سبب تكلُّم والدك
وجدك بها.

لم يجد (ماجد) اتهاماً من حديث (محمود) لكنه كان حذراً
وهو يجيب:

- تعلُّم اللغات عادة في عائلتنا.

- أتعرف ما ينقص شقيقك في اللغات؟ أن يتعلم لغات قبائل الترك والقبجاق والجراسة.

ضحك (ماجد) وقال بتهذيب:

- لن يحصل على أي فائدة من تلك اللغات.

- من قال؟ من تعلم لغة قوم أمن مكرهم، والماليك سادة المكائد.

قال عبارته ومثلّ أنه تذكر شيئاً فقال:

- كدت أن أنسى، الأمير (خليل بن عرام) يرسل لك السلام من خزانة الشهائل.

فالماء ولم يلُدْ على وجهه أيُّ انفعال سوى الابتسامة التي أصبحت باردةً، حافظ (ماجد) على انفعالاته وقال بأسى:

- تأسفت لما أصاب الأمير (بركة) ولم ولن أصدق أن الأمير (خليل بن عرام) غدر به.

- هو أخبرني في محبسه بأنك حذرته من كل ما حدث.

بدأت شكوك (ماجد) تتحقق، (محمود) أتى لصيحة وها هو يبدأ في الإعلان عنها تدريجياً، ابتلع (ماجد) ريقه وقال:

- في رأيي المتواضع هناك من دبر تلك المكيدة.

- على كل مسوٍّ (بركة) أراح السلطان (برقوق) لأنّه لن يقدر على قتل خشداشه، وما دام السلطان ارتاح فكل شيء يمكن تدبّره.

حتى الآن يشعر أن كلامه يحمل شيئاً لكنه لم يقع عليه بعد، نظر (محمود) لإبراهيم وقال بودّ:

- أتعرف ما هي مهنتي يا (إبراهيم)؟

- أنت أمير.

قامتا الطفل فضحك (محمود) وقال:

- أنا أمير، وأخدم أمير اسمه (سودون) و(سودون) يخدم السلطان، لكن مهنتي هي شاد الدواوين، أراقبها وأراجع حساباتها، أتعلم أن (ماجد) يدير ديوان (الإسكندرية) العمومي؟

هزّ (إبراهيم) رأسه بالموافقة فقال (محمود):

- أنا مهنتي أن أراقب (ماجد) وأراجع كل أعماله كي لا يخطئ.

قاما ونظر لماجد الذي التقط تلميحات التهديد في كلامه، دخل (حسن) في نفس الوقت حاملاً الأكواب والإبريق على صينية وضعها أمام (ماجد) الذي صبَّ الكوب الذي كان سيشرب فيه ليظهر لـ (محمود) أن المشروب آمن، لكن هذا الأخير التقطرَ الكوب الممتلئ من يده قبل أن يشربه وأنحذه وهو يقول:

- أنا آمن في هذه الدار أكثر من داري.

أنهى عبارته وجرع جرعة كبيرة من الشراب وهو يتلمظ

بضمه مستحسنًا طعمه، بينما (ماجد) يصب لنفسه كوبًا سمع
(محمود) يقول:

- لا تنس أن تدعوا بالرحمة لابن عرام.

تجهم وجه (ماجد) فجأة فأكمل (محمود):

- أخرجه السلطان من خزانة الشهائل بعد ما صلبه
بالمسامير على هودج جمل، ثم أرسل بالجمل يلف المحروسة
حتى وصل إلى أتباع وماليك الأمير (بركة)، أتعرف ما
فعلوه به؟

قاموا وتجزع جرعة كبيرة من الشراب مستمتعًا وقال:

- ماليك (بركة) أوسعوه ضربًا بالدبابيس والسيوف حتى
قطعوا جسده وهو حي يصرخ، سمعت أن بعضهم قضم
أجزاءً من جسده غلاً.

- رحمة الله عليه.

هز (محمود) رأسه بلا معنى وهو يقول:

- السلطان كلفني بشكل شخصي بمهمة البحث وراء ما
حدث، وأنا وعدته، ما رأيك يا (ماجد)؟

أنهى عبارته وهو يضع الكوب على الطاولة أمامه ويكمel
مداعبته لإبراهيم و(ماجد) يتوجهm وهو يقول بثقة:

- وأين هي المشكلة، أليست كل الأطراف سعيدة الآن؟

ضحك (محمود) بصدقٍ وجسده يترجّح على مقعده
ونظرَ إلى (ماجد) يقول بإعجابٍ:

- يعجبني وضوحك وتهربني ثقتك.. الأطراف سعيدة
لكن السلطان لا يعلم هل هناك خطير يتربص به من
الإسكندرية أم أن كل شيء على ما يرام؟

- أعداء السلطان من المماليك.

- نعم نعم.. ونحن أدرى الناس بآلاعيبنا، لكن لاعب
جديد يدخل ساحة المسابقة بين المماليك سيخيفنا.. عيوني
داخل سجن (الإسكندرية) أخبرتني بموت (بركة) الغريب،
والسلطان هو الآخر علم بما علمت أنا به، ولا أكذب
عليك إن قلت إني خائف، والسلطان أيضاً، لا أعلم بالتحديد
ما حدث لكن أشك ولو وصل شكي للسلطان لخدمت دار
(غраб) بمن فيها.

- وما سر عدم هدمها إلى الآن؟

ثبت (محمد) عينيه على (إبراهيم) وهو يقول بتأثر
حقيقياً:

- جدك (غраб)، أحبته وعوضني عن أبي الذي أتذكره
بصعوبة.

- ما الداعي لشكك يا أمير؟

- في واقعة الإسكندرية عندما أتى جيش القبارصة هربنا
جميعاً.

صلم (ماجد) لصراحة (محمد) الذي أكمل بجدية
وعيناه ما زالت تاعلى (إبراهيم):

- لم يرضَ جدك بالهروب ويقى، يقول بعض العوام أن جيش القبارصة هرب بعد مذبحة شاهدوها بأم أعينهم، شيءٌ ما يقطعهم بلا رحمة ولا تمييز، شيءٌ مالم يفرق بين أهل (إسكندرية) وبين المعتدين.

- إنه خيال العامة يا أمير.

نظر له (محمود) بجدية وقال:

- في المحروسة وصلت أخبار بأن (غраб) على صلة بها حدث.

- من قاها؟

سكت (محمود) وفي عقله تشكل بعض الذكريات سرعان ما أبعدها وهو يسحب شهيقاً ويتسنم بعده ويقول مبتسمًا:

- نعم هو خيال العامة كما قلت، والآن عندي اقتراح سيترى الخوفَ منْ قلوبنا جميعاً ويظلُّ الجميع سعداء. هدا حال (ماجد) قليلاً واستطاع الابتسام.

- أنا مصري لكل ما تطلب.

- سأتكفل بكل أمور (إبراهيم) حتى يشب ويصبح رجلاً تفتخربه وسط أقرانه.

- نحن في حماك يا أمير وكل ما...

قاطعه (محمود) بجدية وهو يقول:

- لا يا (ماجد)، كلما قي لم تصل لعقلك بعد، أنا سأخذ

(إبراهيم) للقاهرة المحروسة، يقيم معي كأحد أبنائي، أفضل الأساتذة سيعلمونه ويدربونه على كل نواحي الحياة.

هربت الكلمات من (ماجد) ولم يتمكن من معالجة ما قاله (محمود) الذي أكمل بحماسة:

- دعنا من الأخذ والرد في الكلام، أنت تعرف أن قراري لا رجعة فيه، وذكاوك لا يقل عن أبيك أو جدك، أقبل وثق فيّ، وأعلم أنه لولا وجودي لما بقي رجل أو امرأة يحملون اسم (غراب) على قيد الحياة.

هزّ (ماجد) رأسه بعدم فهمٍ وقال بخوف حقيقىٌ:

- ستأخذ (إبراهيم) مني ومن حضن أمه لتضمن لي الحياة.

على وجهه (إبراهيم) الطفل ظهر القلق كمرأة لوجه أخيه لكنَّ (محمود) الذي شعر برعشته ربت على ظهره وهو يقول:

- (ماجد) أقبل بأفضل الأسوأ وكن عاقلاً.

بمحاولة فاشلة قال (ماجد) متظاهراً بالثبات:

- عندي لك مقترنُ أفضل، خذني أنا وستجدني طوع يديك حتى لو كان مصيري خزانة الشمائل، وسيسعد السلطان.

تنهد (محمود) وقال بشيء من اللين:

- إِمَامًا قاتلَهُ لَكَ وَإِمَامًا لَا شَيْءٌ يَبْقَى عَلَى حَالِهِ، الْأَمْرُ فِي
يَدِكَ.

- اذْهَبْ لِأَمْكَنْيَا (إِبْرَاهِيمَ) وَأَخْبِرْهَا أَنْتِي سَأَتِي لِزِيَارَتِهَا
بَعْدَ بَرْهَةً.

فَقَرَّ (إِبْرَاهِيمَ) مِنْ عَلَى قَدْمِ (مُحَمَّد) وَجَرَى مُغَادِرًا
الْقَاعِدَةَ وَعَيْنَ (مَاجِدَ) تَرْقَرَقَ بِالدَّمْوعِ وَيَدَاهُ تَرْتَعِشَانَ لَا
إِرَادَيَا وَهُوَ يَقُولُ بِدُونِ أَنْ يَنْظُرْ لِمُحَمَّدِ: :

- أَتَسْمَعْ يَا أَمِيرَ عَنْ قَهْرِ الرِّجَالِ؟

لَمْ يَرِدْ (مُحَمَّد) وَلَمْ يَكُمِلْ (مَاجِدَ)، وَسَادَ الصَّمْتُ فَتَرَةً
لَا يَقْطُعُهَا إِلَّا صَوْتُ بِائِعَيْنِ يَأْتِي مِنَ الشَّوَارِعِ فِي الْخَارِجِ،
سَقَطَتْ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِ (مَاجِدَ) فَقَالَ (مُحَمَّدَ):

- (إِبْرَاهِيمَ) أَمَانَتِي، وَيَعْلَمُ اللَّهُ أَنْتِي بِهَذَا أَنْقَذْكَ مِنْ تَدْبِيرِ
السُّلْطَانِ لِقْتَلَكَ.

اسْتَجَمَعَ (مَاجِدَ) قُوَّتَهُ لِيَقُولَ بِحَسْرَةِ الْمُغْلُوبِ عَلَى أَمْرِهِ:

- لَنْ يَمْسِ (إِبْرَاهِيمَ) بِأَيِّ سُوءٍ وَهُوَ بِعِيدٌ عَنِي، أَنَا لَا
أَتُوعَدُكَ بِلَأْقَرُّ لَكَ بِأَمْرِ وَاقِعٍ لَا حَالَةَ، حِيَاةً (إِبْرَاهِيمَ)
تَسَاوِي حِيَاةَ الْجَمِيعِ.

رَدَّ (مُحَمَّد) بِسُرْعَةِ:

- رَسَالَتِكَ وَصَلَتْ، وَرِسَالَتِي لَكَ أَلَا تَخْفَ وَاهْدِأْ بِالْأَلَّ.

رَفَعَ (مَاجِدَ) عَيْنِيهِ لِيَنْظُرْ بِهَا بِحَقْدِ لِمُحَمَّدِ الَّذِي ظَهَرَتْ
الشَّفَقَةُ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

- سأتركك الآن لتعذر (إبراهيم) وأذهب أنا لمقابلة رجلٍ
جليل سيرافقنا غداً في مسيرتنا للقاهرة ليقابل السلطان.
لم يردد (ماجد) فنهض (محمد) وهو يسير ناحية باب
القاعة وهو يقول:

- أنت تعرف هذا الرجل وقابلته، الشيخ المبارك (ابن
خلدون).. اعتبر هذا فألّا حسن يا (ماجد)
غادر (محمد) وترك (ماجد) لحسرته.

القاهرة المحروسة، من يحرسها وكيف؟ هكذا فگرَّ
(إبراهيم) الطفل الذي ركب وراء أحد الجنود على الحصان
الأسود المرتفع، تجربة لم يمر بها من قبل منذ أن خرج من
(الإسكندرية) بالأمس يركب خلف جندي علوكي أو صاه
(محمد) بأن يكون في عهده.

التجربة الأولى أن ركوب الحصان مؤلم بشدة، أوجاع في
فخذيه انتابته بعد بضع ساعات، وكل مرة يتوقف الموكب
الذي يتكون من عشرات الأحصنة يلتقط أنفاسه لكنَّ ألم
قدميه يزداد، الأمير (محمد) على حصانه يسير بجانبه ويحدثه
من وقت لآخر يشرح له أسماء بعض القرى والبلدان التي
يمر بها الموكب.

ومن وقت لآخر يجد بعض الفلاحين يظهرون على
قارعة الطريق يشاهدون الموكب صامتين أو يلوحون له وهم

يدعون المَالِك لتناول الغداء أو شرب الشاي و(محمد) يهز
يده هم ويتسنم رافضاً بأدب.

كان شخصية غريبة في عين الطفل، فهو يجمع كل
التناقضات في وقت واحد فلا تعرف هل يضحك الآن أم
يتوعد أم يحزن لأن تعبيرات وجهه تتغير بلمح البصر.
وعلى نقىض تلك الشخصية كان هناك مسافر معهم على
حصان يسير في وسط الموكب، ومن وقت لاخر يتقدّم بحصانه
حتى يصل إلى (إبراهيم) ينظر له بدهشة وابتسامة حانية،
ويتجاذب معه أطراف الحديث، مسافر مختلف في الهيئة والخلق
عن المَالِك، يرتدي جلباباً أزرق وعباءة سوداء وعمامة كبيرة
ولحيته مهذبة وابتسامته صادقة.. تعرّف عليه في الطريق، الشيخ
(عبد الرحمن بن خلدون).

في بداية الرحلة لاحظَ (إبراهيم) أن لهجته تختلف عن لهجة
أهل مصر، لكن الغريب أنهما تبادلا النكات والأحاديث
المُرحة وشعرَ بنوع من الثقة على الرغم من أنَّ أخاه حذره
من الجميع قبل السفر، إلا أن (ابن خلدون) هذا مختلف عن
الكل، بالطبع سأله الطفل من وقت لاخر عنه وعن حياته
بنوع من الفضول، لكنه لم يُطِلْ في تلك الأسئلة لأن نظرات
(محمد) الجانية له جعلته يفهم أنه يخطى حدود المسموح.
- أتعلم يا (إبراهيم) أني أزور المحروسة مثلك لأول مرة.

قالها (ابن خلدون) بابتسامته المربيحة، فقال (إبراهيم) وهو يتشبث بملابس الجندي الذي يركب وراءه:
- أنت جئت معنا من (الإسكندرية).. لكنك من مكانٍ
بعيدٍ.

- من مكانٍ بعيدٍ لكن قريب.
- لماذا أتيت؟

ضحك (ابن خلدون) وقال:
- لا أعلم.

- ولم تسير معنا إلى المحرودة؟
- لا أعلم، وطالما أنت أيضاً لا تعلم، فمصائر رحلتنا
واحدة، لنستمتع بها مهما كانت نهايتها.

عندما وصل الركب للقاهرة لم تختلف نظرات (إبراهيم)
عن نظرات (ابن خلدون)، فكلاهما يفحصان كل شيء بانبهارٍ
عدا أن (إبراهيم) برغم ساعده عن المحرودة إلا أنه لم يتوقع
أن تكون نمطيةً بهذا الشكل، رائحة الغبار تماماً الأجراء
وسط الشوارع، أصوات الناس تداخلت مع بعضها لتصنع
سيمفونية من الضوضاء أزعجه في البداية لكنه تعودَ عليها
بعد قليل واستحسنها.

ويأذنه التقط لهجة أهل (المحرودة) في الحديث، يتحدثون
المصرية بسرعة غريبة ويكسرون الكلمات مع علو الصوت
الذي يبرره حجم الضوضاء في شوارعها.

الغريب أن الناس هنا لا يحملون ذرّةً من الفضول تجاه الموكب عكس أهل (الإسكندرية) الذين سيصدموه من هؤلاء المسلمين الراكون على الأحصنة.

لم يمر الكثير حتى خرج الموكب من أحد الأبواب وظهرت الصحراء على الأطراف حتى شاهد (إبراهيم) أسوار قلعة (صلاح الدين الأيوبي) تظهر منعزلة ضخمة قوية مقبضة، تأخر (محمود) بحصاته ليسير بجانب (إبراهيم) ويقول مشيرًا للقلعة:

- هنا يقيم سلطان البرين والبحرين، هنا العرش والقبر.

- قبر من؟

نظر (محمود) حوله ثم مال برأسه ليقترب من أذنه قائلاً:

- قبر أعداء العرش.. وأنصاره.

اقترب الموكب من أحد أبواب القلعة فتوقف و(محمود) يتقدمهم حتى وصل إلى حراس الباب الذين حيواه بوقفة عسكرية وقرعت الطبول من مكان ما، وأحد الحراس يقول بصوت مجلجل:

- حضر الأمير (جمال الدين محمود السوداني) لمقابلة السلطان.

انفتح الباب وعين (إبراهيم) معلقة بكلمات نحتت بشكل بارز فوق الباب.

((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَمْرٌ بِإِنشَاءِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ الْبَاهِرَةِ
الْمُجاوِرَةِ لِحَرْوَسَةِ الْقَاهِرَةِ الَّتِي جَمِعَتْ نَفْعًا وَتَحْسِينًا وَسَعَةً
عَلَى مِنْ تَجَأْعَلَ عَلَى ظِلِّ مَلْكِهِ وَتَحْصِينَاهُ، مَوْلَانَا الْمَلِكُ صَلَاحُ
الدِّينِ وَالدِّينِ أَبُو الظَّفَرِ يُوسُفُ بْنُ أَيُوبِ حَمِيَّ الدُّولَةِ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى يَدِ أَمِيرِ مُلْكَتِهِ وَمُؤْمِنِ دُولَتِهِ قَرَاقُوشُ بْنُ عَبْدِ
اللهِ الْمَالِكِيِّ النَّاصِريِّ فِي سَنَةِ تِسْعَةِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَائِةٍ)).

اقرب (ابن خلدون) بحصاته جوار (إبراهيم) وقال:
- ندخل للقلعة معًا، ألم أقل لك إن مصائرنا واحدة.

(7)

2002

نهض (سليم) من نومه مفروعاً، صوت جرس باب الشقة مزعج لدرجة قاتلة، عن أي شقة تتحدث؟ شقة عائلته التي احترقوا داخلها، كم مرّ على تلك الحادثة؟!! أربعة أشهر تزيد أو تنقض بضعة أيام، يقيم (سليم) من وقتها في نفس الشقة بعد أن اشتراها (مؤيد) باسمه، كما أنه وينفوذه منع نشر اسم (سليم) في أي جريدة واكتفت الجرائد بذكر خبر الوفاة للعائلة بالكامل عن طريق ماس كهربى كما رجحت سلطات التحقيق الأمنية.

ستتبهر عما يمكن لمؤيد أن يفعله داخل (مصر)، لقد التحق (سليم) بالتعليم الثانوى المصرى في سابقة ربما لم تحدث بتلك الطريقة السحرية من قبل، انتقل ملفه من سلطنة (عمان) إلى (مصر) بلمح البصر، نظام التعليم المصرى الصارم البيروقراطى قبل استثناء لسليم وهى معجزة كونية لا تتحقق إلا كل مائة عام، ويبدو أن صلات (مؤيد) داخل السلطنة وداخل (مصر) ليس لها حدود.

صحيح أنه يدرس بنظام الثانوي المنزلي في مدرسة خاصة بمنطقة (المعادي) في عصر كانت المدارس الخاصة تعني أن طلابها غير متوفقين بالتعليم العام، لكن كل شيء على ما يرام.

صحيح أن اسم والده (صابر الحريري) تغير في الأوراق المصرية، وأصبح اسم (سليم) بالكامل هو (سليم عبد الغفار جاد الرب) وهو اسم مفعول كما ترى لكن كل شيء على ما يرام، بالنسبة لأحمد، الساكن في الشقة المقابلة كان التفسير أن اسم (صابر الحريري) هو اسم شهرة لا أكثر وهو تفسير لم يتلعنه (أحمد) لكنه قبله بعد فترة على اعتبار أن لكل بلد عاداتها، وتقريراً لم يندهش أحد من هذا التغيير لأن (صابر) المتوفي لم تكن له صلات بأحد في مصر، ناهيك عن أن الجميع يتتسون ببساطة عندما يتعودون عليك فحتى (سليم) استطاع الذوبان وسط الجميع بسهولة بالغة وخاصة بعدما اكتملت لهجته المصرية في تلك الأشهر، وصارت أقوى نطقاً حتى إنك لن تفرقها عن لهجة أي مصري آخر إلا بصعوبة بالغة.

ماذا حدث للجثث، نقلت للسلطنة لتم مراسم الدفن بدون حضور (سليم) الذي ظلّ بمصر يعد العدة ويجهز حياته لما هو قادم، تلاحقه الأسئلة عن إذا كان يسير في الطريق الصحيح أم هو يلهو بلا هدف؟

جرس الباب المزعج يعيده إليه وعيه غصباً فينهض من على الأريكة التي وضعها بجانب الباب في صالة الاستقبال، تسأل نفسك لم ينام بهذا الموضع العجيب؟ أخبرك بأنه لم يستطع حتى الآن النوم في أي حجرة بداخل شقته، أو حتى بجانب موضع موت والده في صالة الاستقبال لذا فقد أزاح الأريكة بعيداً.

ليس خوفاً ولا اشمئزازاً، فقد أعيد طلاء حوائط الشقة وتم تغيير الأثاث والأرضيات، لكن نفسية (سليم) عجزت عن تقبُّل موتهم مع استمرار حياته، ستندهش من أنه استطاع الابتسام ثانيةً وعاد للاشتياق لبعض الأطعمة والمشروبات، حتى هو يصاب من وقتٍ لآخر بالصدمة من نفسه عندما يكتشف أنه يشاهد مسرحية على التلفزيون ويضحك على الممثل (سعيد صالح) في (مدرسة المشاغبين) أو على (عادل إمام) في مسرحية (شاهد ما شافش حاجة).

ولكنه لم يبكِ أو يحزن من الأصل حتى تعود قدرته على الابتسام، فما حدث مرّ وكأنه لم يكن.

صوت الجرس المزعج يلح عليه بصرارٍ فيفتح باب الشقة ليجد (أحمد) واقفاً بملابس النوم مبتسمًا بسماحة:-
ـ ما كل هذا النوم يا (سليم)؟

سؤال ليس له إجابة، هرّ هو رأسه بلا معنى فأكمل (أحمد):

- هيا لنفتر سوياً، (بودي) ينتظرك في الداخل.

دخل (سليم) لشقة (أحمد) ليجد (بودي) يجلس مبتسمًا على طاولة السفرة التي رصت عليها أطباق عامرة بالفول والجبن والبيض والخبز، (أحمد) هو الذي أعد الإفطار كعادته، وهي عادة لم يتوقف عنها منذ الحادثة، كما لم يتوقف عن إجبار (سليم) على تناول وجبة الإفطار والغداء معه هو و(بودي)، طبعًا حاول إقناعه بأن بيته لكن (سليم) أصر على موقفه وإن كان فهمَ ضمنيًّا أن (أحمد) يعتبر نفسه والده بشكلٍ أو باخر.

أما (بودي) فتحول هو الآخر لشقيقه الأصغر بعفوية شديدة، استبدال عائلته القديمة بأخرى جديدة مستحيل لكن (سليم) يساير الجميع وإن كان يستمتع بأنه يتمي لهم حتى ولو دارى شعوره عن نفسه.

- عمتو (هالة) ستأتي اليوم.

قاطها (بودي) فجأة الجميع يتناول الطعام كأنه يعلن عن نشرة أخبار السابعة صباحًا، فقال (أحمد) وفمه ممتلئ بلقيمات الفول:

- كدت أنسى، ماذا تريدين على الغداء اليوم يا (سليم)، أراهن بأنك سعيد لأنشي لن أطبخ اليوم، (هالة) تتكلف بكل شيء.

- آئی شیء۔

- ما رأيك في ورقة اللحم بالخضار؟

هَرَّ (سليم) رأسه بتفهم فأكمَلَ (أحمد) وهو يُقْسِرُ بِيَضْهَةٍ
ويعطِيهَا لِبُودِي:

- (هالة) ستنظر الشقة وأنا في العمل، أما زلت تصر على عدم تنظيف شقتك؟
- أنا أنظفها بنفسي.

كان (مسلم) يرفض دخول أي شخص تكريباً لشقته
و(أحمد) يعلم بذلك جيداً لكن كل مرة يعرض عليه نفس
العرض كنوع من المجاملة.

- ما أخبار أستاذ (فوزي) معك؟

فاما (أحمد) فردد (سليم) بعين نصف مفتوحة:

- (فوزی) !!!

- مدرس اللغة الفرنسية، لا تحضر الدروس الخاصة معه؟

- آہ.. جید جید.

- أتمنى يَا بُنِي أَنْ تهتمْ بِالدُّرُوسِ وَالْمَجْمُوعَاتِ الْخَاصَّةِ
الَّتِي تَخْضُرُهَا؛ فَهِيَ الْبَدِيلُ لِلْمَدْرَسَةِ كَمَا تَعْلَمُ

آہ جید جید

قبل أن يكمل (أحمد) دار مفتاح في زيارة باب الشقة
وافتتح لظهور (هالة) شقيقة (أحمد) والتي تمثل طنط في

كل عصر وكل زمان بملابسها الملونة ووجهها المريح الذي لا يحمل أي ملامح عيزة يمكن وصفها وحجاتها التقليدي وصوتها الهادئ النائم الحاد في نفس الوقت.

- كيف حالكم يا أولاد؟

قالتـها وهي تغلق خلفها بـباب الشقة، و(بودي) ينزل من على المقعد ويجري عليها يحضنـها وهي تقبلـه على خده.. طبعـا لها نسخـة من مفتاح الشقة تستخدـمها وقتـا أرادـت وهذا ما لم يتـقبلـه (سلـيم) برغمـ أن الموضوعـ لا يـخصـه؛ فـهي ليستـ شـفـقةـ، لكنـه يـرى بأنـ هذا المـفتـاح اـتـهـاكـ صـارـخـ للـخـصـوصـيـةـ، أو لـنـقلـ أنهـ بدـأـ منـذـ الـحـادـثـةـ في ضـربـ سورـ حولـ نـفـسـهـ ليـمـنـعـ أيـ أحـدـ منـ الـاقـرـابـ منـ حـيـاتـهـ لـذـلـكـ يـرىـ الجـمـيعـ مـتسـاهـلـينـ بـخـصـوصـ حـيـاتـهـمـ.

اقـرـيتـ (هـالـةـ) منـ (سلـيمـ) تـربـتـ عـلـىـ كـفـهـ وـهـيـ تـقـولـ

بحـنـانـ:

- وما أـخـبـارـ عـرـيـسـنـاـ الـهـيـامـ؟

مزـاحـها سـمـجـ ولا ردـ عـلـيهـ لكنـهـ اـبـتـسـمـ وـهـوـ يـقـولـ كـلـامـاـ غيرـ مـفـهـومـ كـرـدـ.

- أـلمـ تـرـتـ مـلـابـسـ الـخـضـانـةـ ياـ (بـودـيـ)، هـيـاـ اـسـبـقـتـيـ عـلـىـ غـرـفـتكـ وـأـنـاـ سـأـلـحـقـ بـكـ.

جرـيـ (بـودـيـ) فـجلـستـ هـيـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ تـقـولـ بـصـوتـ

خـافـتـ:

- أخبرني بسرعة يا (أحمد)، هل حدثَ الأمر ثانية؟
توقف (أحمد) عن تناول الطعام وهزَّ رأسه متأسِيًا وهو يقول:

- تكرر نفس ما حدثَ وبشكلٍ أوضح.
حاول (سليم) ألا يرفع نظره عن أطباق الطعام كي لا يحشر نفسه فيما لا يخصه، لكن (هالة) قالت بسرعة:
- ألم تخبر (سليم) بما حدث؟
- أخبريه أنتِ.

نظرت (هالة) لسليم وقالت بحِراسة:
- (بودي) في منزلة أخيك الآن، وأنت فردٌ من العائلة
ورأيك يهمنا.

مثل (سليم) الاهتمام وهو يرفع رأسه بثاقل ناظرًا إليها وهي تقول:

- منذ عشرة أيام تهاجم الكوايس (بودي) كل ليلة، وفي
الصباح ينكر أنه حلم بأي شيء، (أحمد) لا يقبل برأيي.
- لن أعرض الطفل لهذه الأمور.

قالها (أحمد) بحزم فسأل (سليم) بقليل من الفضول:

- ما الذي أكَدَ لك أنه يمر بتلك الكوايس؟

ردَّ (أحمد) ببساطة:

- كنت أمرُ عليه كل ليلة لأطمئن عليه، حتى وجدته
ياحدى الليالي يتحدى وهو نائمٌ ويُسكي، أية ظنه فأنا كر

بخوف أنه كان يحلم، صرّتُ أمرًا عليه في الليلة الواحدة أكثر من مرة، حتى لاحظت تكرر الأمر يوميًّا.

قالت (هالة) بسرعة:

- الولد محسود يا (أحمد)، أو الأدھى أن يكون ممسوًّا، يجب أن نحضر الشيخ (حمادة) ليخرج منه الجنـي.
- لا أؤمن بتلك الأشياء.

- الجن مذكور في القرآن فلا تكفر يا (أحمد).

قالتها (هالة) بعصبية بينها (سليم) يسأل (أحمد):

- هل استطعت تمييز ما يقوله أثناء الكوابيس؟

- كلمات ليس لها معنى، ((قرن)) ((صالن)) أو ((صالم)) لا أعرف، بعض الأحيان ينادي على أمّه لتنقذه.
لم يقدر (سليم) على مداراة ذهوله الذي تجلّى على ملامع وجهه و(هالة) تقول وهي تشير له:

- أرأيت.. حتى (سليم) يشعر بحجم المصيبة، سأحضر الشيخ (حمادة) غدًا ليرقى الصبي، أنت لا تعرف من هو الشيخ (حمادة البشّاني) إنه ثقيل جدًا في أمور العفاريت.
لم يردد (أحمد) الذي غالب على أمره وكان (هالة) هي أمّه لا شقيقته، وأمرها سيكون نافذًا بلا مناقشة، أما (سليم) فقد ارتعد مجرد تفكيره فيما سيحدث.

- نسيت أن أسألك يا (سليم)، ماذا تحب على الغداء؟

مقهى في شارع (المنيل) بالقاهرة أو لنكون أكثر دقة فنصفه كما يلقّبه السواد الأعظم (قهوة بلدي)، بضعة مقاعد خشبية رُصّت بلا ترتيب على رصيف بايس، يخيم الصمت على مرتديه في هذه الساعة من اليوم، الثانية عشرة ظهراً، وقت ينخفض فيه الزحام وتتغير فيه نوعية الزبائن ليصبحوا شباباً وطلاباً هاربين من مدارسهم القرية أو رجالاً يتظرون ميعاداً بتململ يشرب كوب شاي لا يكمله لتصفه حتى.

وسط الحالسين ترى (سليم) بقميصه الأزرق وسرواله الجينز ونحوه جسده يطلع على مذكرة دراسية لمدة اللغة الإنجليزية، ويجانبه كوب عصير مانجو قارب على الانتهاء.

قلب في صفحات المذكرة، يمثل الاهتمام، حتى وصل إلى ثلات وريقات قطعواها من جريدة حديثة، يتحدثون عن حوادث قتل لرجلين أحدهما كتب عنه أنه يعمل في مهنة علاج روحي والثاني مهنة عادية.

أكمل تقلّب حتى وصل لورقة من مجلة حملت إعلان صغيراً عن الروحاني (توفيق الفلكي)، كلهم يسمون نفسمهم هذه الأيام بالفلكي، الإعلان عن «جلب الحبيب» و«عودة الأزواج» و«ائزوج العانس»، مع وسيلة اتصال تليفونية، فكر بأنه بحث بصعوبة حتى وصل لعنوان هذا الرجل، في العماره المقابلة للمقهى الحالس عليه الآن.

تسعة أيام يراقب تلك العماره حتى كون بعض المعلومات

غير الهامة في مجملها لكنها أتاحت له رؤية (توفيق) نفسه مرتين الذي له مكتب في الطابق الخامس لاستقبال الزبائن، مراقبة نوعية الزبائن، معرفة أنه ينهي عمله في التاسعة مساءً ويتأخر في مكتبه لوقتٍ غير معلوم، حتى إنه لا حظ شاباً يتزدد عليه بعد خروج آخر الزبائن، هذا الشاب أتى ثلاط مرات ومكث في الأعلى لساعتين وخرج بشكلٍ طبيعيٍّ، سأله (سليم) خادمه من الجن (صالم) إن كان رأى عليه شيئاً غير طبيعي فعلم أن لا جن يرافقه.

السؤال الأهم؛ لم اهتم (سليم) بتوفيق هذا بالذات؟ الحقيقة أنه وجد ورقة واحدة من أوراق شقيقه احتفظ بها وسط دفتر قديم ومعها الأخبار المقصوصة من الجرائد، هذا الدفتر نجا من الحريق، ورقة خط عليها بعدم اهتمام اسم (عبد الفتاح الطوبجي) وتحتها بخط أصغر عشرة أسماء (توفيق) هذا منهم.

أرسل (سليم) خادمه ليدخل مكتب (توفيق) ليتصنت عليه، لكنه فشل، (صالم) الجني لا يرى الشقة في الطابق الخامس، يرى موضعها فراغ لا يقدر على خرقه.

إذا فحوائط شقة (توفيق) كتب عليها نصوص مخطوط (التابوت الأسود)، سمع تلك القصة من والده عندما كان يعلمه في طفولته التعامل مع السحرة، أخبره بأن بعض سحراء أهل مصر توارثوا سرّ كتبه (أبيطوب) الملقب بأبي

الجن والذي عاش قبل الميلاد بـ 400 عام في (سيناء)، كتب (أبيطوب) هذه الطلاسم في خطوطه، والتي إن وُضعت على أي شيء منع الجن من رؤيته إلا بإذنه، والده لم ير مثل هذه الطلاسم من قبل لكنه علمه طريقة لتفادي هذه الأزمة.

واليوم موعد تطبيقها، حاسب القهوجي وغادر المقهى عبر الطريق حتى دخل العمارة، صعد للطابق الخامس فوجد الشقة المفتوحة وبجانبها لافتة أنيقة تحذّث عن مكتب العالم الروحاني إلخ الخ وهذا الهراء، دخل بشقة فوجدها من الداخل أقرب لعيادة الطيب منها لمكتب، الزبائن يجلسون على المقاعد ويقفون بجانب الحوائط بصمت حزين يشاهدون تلفزيوناً صغيراً معلقاً في ركن صالة الاستقبال يعرض فيلمًا من قناة محلية بلا صوت تقريباً.

جرى بيصره بين الجميع حتى وقع على سكرتيرة ممتلة تقع خلف مكتب عتيق.

- هل يمكن أن أحجز ميعاداً مقابلة الشيخ (توفيق)؟

بتلقائية ناولته ورقة مطبوعة ليملأها ببياناته وهي تقول:

- كشف مستعجل 800 جنيه، كشف عادي 450 جنيه، املاً الاستئارة بيانات المريض، والدفع قبل الدخول.

كل هذه النقود!! كذا فكّر وهو يخرج إلى 450 جنيه من جنيه، برغم أنه تحسّب لتلك الأرقام إلا أنه ما زال مندهشاً لهذا النصب البين.. ناولها المبلغ فقالت من غير أن تنظر له:

- املاً الاستئارة واتركها، رقم كشفك هو 49.

انحنى ليكتب بيانات خيالية داخل الورقة ثم سلمها للسيكريتيرة وهسو يقول:

- أيمكنني دخول الحمام؟

أشارت لرواق جانبي وهي تقول:

- آخر هذا الممر على يسارك.

خطا داخل الممر ببطء مفتعل ليزيل الشُّبهة عن تعجله، لسبب لا يعلم أحمس بأن الجميع ينظر إليه بشك، ربما أبلغت تلك السيكريتيرة (توفيق) بأن يحذر منه، توقف عند باب الحمام وقلقه يتضاعد وهو يحاول فتحه فيأتيه صوت من الداخل لرجل يقول:

- الحمام مشغول.

نظر في الأرض خجلاً وهو يضع أوراق المذكورة التي يحملها تحت إبطه والدم يتضاعد لرأسه لا يعرف إن كان خوفاً أم قلقاً أم خجلاً، مرت دقائق فكر فيها أنه أصبح مصدر شك الآن وتوقع أن يفتضح أمره، والمشكلة أن (صالم) ليس بجانبه فقد توقف عند باب الشقة لأنه لا يستطيع الدخول، أي أنه الآن في كمين وربما تحول من الصياد إلى الفريسة.

خرج من كان بالحمام فدخل هو مغلقاً الباب خلفه، لم يقدر على التنفس بقوة ليهداً، لحظة الحقيقة جاءت وحان وقت العمل، أخرج من جيبه قنينة صغيرة شفافة في حجم

زجاجة الدواء بداخلها سائل شفاف يشبه الماء لكنه في كثافة
الحبر، أخرج من الجيب الآخر فرشاة رسمٍ رفيعة وفتح
الغطاء وهو يليل الفرشاة بالسائل الشفاف ثم يرسم على
حائط الحمام المطل على منور العماره الداخلي، رسم طلاسم
بحذر لأنّه لا يراها فهو يستخدم مادة شفافة.

ع٥ كره حد حمّع ٧ دور م٩٩٩٥ ع٤٤٤٤ خمّح لـ ط٦ ذ١ اذن السلاصـ

دان بغير رسيم، ينصب على ان حائط السمه امناً
بالطلاسم، ثم وضع دهان الخوايط فيما بعد فوقها، لذلك
فإن هذا الطلسم الشفاف سيفتح منفذ الدخول (صالم)
ليتصنت على (توفيق) باعتباره ساحراً ولا يمتلك خدمة من
الجان تمكنه من رؤية (صالم).

أغلق الزجاجة ووضعها في جيده، ثم رائحة عطر غريب،

تبعها مجموعة من الروائح حتى أصبحت خانقة، عندها سمع صوت (صالم) في أذنه يقول صارخًا:
- اهرب الآن، المكان تحت الهجوم.

من خارج الحمام سمع جلبة فتح الباب وغادره ليり الزبائن يسمون وينطقون الشهادة وهم ينظرون حولهم بفزع، جرى حتى وصل لمكتب السكرتيرة التي سندت ظهرها لأحد الحوائط وعيناها مثبتان على باب غرفة مكتب (توفيق) على ما يبدو، نظر هو أيضًا فلم يفهم، الباب مغلق، لكن في الثانية التالية أتت دقات من داخل الغرفة، يتبعها صرخة نسائية من الداخل، افتح الباب لخروج امرأة فهم أنها زبونة كانت مع الشيخ بالداخل، خرجت تجري وهي تصرخ فجرى الناس ليدخلوا الغرفة، لكن الباب أغلق في وجوههم بعنف.. لكن قبل إغلاقه شاهد رجلًا بالداخل يقف وسط الغرفة فمه مفتوح كأنه يشأب وعيناه مفتوحتان على اتساعهما.

وسط صرخات الناس وكلامهم غير المتناسق سمع صوت (صالم) يصرخ حرفياً في أذنه:
- المكان يمتليء بالجن.. اهرب.

لم يفكر وهو يهرب من باب الشقة المفتوح لكن الأوراق التي كان يحملها تحت إبطه وقعت فجأة على ركبتيه يلمها على عجل وصوت صرخ (توفيق) يأتي معدباً من الداخل. نهض وغادر الشقة هارباً حتى تعثر على السلالم لكنه أعاد توازنه، وأكمل المروب المضحك.

(8)

١٣٨٢ م - القاهرة - مصر

تركوفي وحيداً، الأمير (محمد) أخذ الشيخ (ابن خلدون) معه لمقابلة السلطان ونسيني الجميع في هذا المكان العجيب، هكذا فكر (إبراهيم) ذو السبع سنوات وهو يجلس داخل القلعة بجانب بوابة خشبية ضخمة يسمع من خلفها أصوات الضجيج لصيحات، وأناس يتكلمون بلغات لم يميزها وإن ميز اللهجة المصرية بطريقة غريبة، وبجانب (إبراهيم) يقف حارس صامت متوجه الوجه تأكيد (إبراهيم) أنه سيمنعه من التحرك إن فكر بذلك.

كل ما حدث منذ دخولهم القلعة في موكب الأمير (محمد) أن هذا الأخير أوصى الفارس الذي يقود الحصان الجالس فوقه (إبراهيم) بالتوجه إلى مكان يدعى (طبة الصندلية) وانتظاره أمام بوابتها، انفصل الفارس بالحصان عن الموكب و(إبراهيم) يلتهم المكان بعينيه منهراً حتى وصل الفارس إلى مكان يشبه فندق (البنادقة) الذي يقيم به تجار مدينة (البندقية) عند حضورهم للإسكندرية، سور طويل يحيط

بمساحة مستطيلة امتداد بالمبني المزخرفة الممتلئة بالغرف،
وذلك الباب الخشبي الطويل الذي وقف عنده الفارس بلا
كلام وأنزل (إبراهيم) ثم وقف بجنبه كالتمثال ويده اليمنى
تمسك بمقبض سيفه وهو ما زال في غمده.

ساعة أم ثلاث قد مرت!! لم يعلم ولن يعلم، لذلك فقد
جلس الطفل على الأرض ليريح ساقيه المتآلمة وهو يتلع ريقه
الجاف عليه يشعر بارتواء لأنّه لن يطلب الماء من الجندي
على كل حال.

فجأة ظهر ثلاثة فرسان في الأفق على خيولهم المدرعة
يقتربون من الباب ويتوقفون عنده ينظرون للطفل بفضول،
وأحدّهم يصبح كأنه يخاطب البوابة الخشبية بلهجة مصرية
متكسرة:

- افتح الباب، أنا (قراشا) أمير سلحدارية السلطان.

انفتح الباب بسرعة غريبة ليكمل الفارس كلامه كأنه
يخاطب شخصاً يراه على الجانب الآخر من البوابة المفتوحة:
- السلطان المعظم سيأتي لزيارة الطبقة الآن.

بعد أن أنهى الفارس عبارته نظر للجندي الواقف بجانب
(إبراهيم) وسألته:

- أهذا (إبراهيم) القادم من (الإسكندرية)؟

هزَ الجندي رأسه موافقة فغادر الفارس ومن معه
مبتعدين و(إبراهيم) يقف مدارياً رهباً مما حدث كأنه

متهם وسيعاقب على ما لا يعرفه، لم تمر فترة زمنية طويلة حتى وجد موكباً من عشرات الفرسان بعضهم بزي أحمر والأخر بالزي الأزرق، ووسطهم رجل بعباءة مزركشة وعامة عريضة طويلة ملونة زينت بالمجوهرات يركب حصاناً بسرج ملون ويجانب هذا الرجل الذي تيقن من أنه السلطان رأى (محمود) على حصانه يسير بجانبه.

وصل الموكب إلى البوابة فخرج منها رجل في الأربعين مليحُ الخلقة بعيتين زرقاويتين وجسد محتلٍ قليلاً يرتدي سروالاً من القماش وقميصاً من الجلد الأسود، وعلى رأسه عامة عربية يسقط طرفها بجانب وجهه، خرج الرجل مبتسمًا وهو يحيي رأسه للموكب والسلطان (برقوق) ينزل من حصانه فينزل البقية، تقدم السلطان حتى وصل للرجل وقال بلهجـة مصرية:

- كيف حال أولادي يا (منجكـي)؟

- بنعيمك يتمنـغون ويحرـاك يلوذون يا سلطـان المسلمين.
نظرـالسلطـان لإـبراهـيم يتأملـه في وقت طـال حتى شـعرـ
هـذاـالأـخـيرـ بالـرـعـبـ.

- أنت (إـبراهـيمـ بنـ غـرابـ القـبطـيـ)؟

- نـعـمـ ياـ مـوـلـايـ.

قال عبارـتهـ وهوـ يـرـتعـشـ حـرـفيـاـ، خـاصـةـ أنـ السـلـطـانـ اقتـربـ
منـهـ حتـىـ أـصـبـحـ لـاـ يـفـصـلـهـ عنـهـ سـوـىـ بـضـعـةـ سـتـيـمـترـاتـ.

- جدك كان رجلاً ذا حكمة ورأي، قابلته كثيراً وأحبته.
لم يجد (إبراهيم) ردًا يصلح فنظر للأرض ورائحة عطر
السلطان المبهرة تفتخسم أنفه.
- الأمير (محمود) قال عنك العجب العجاب، هل
يمكنك تنفيذ أوامرني إن أقيتها على مسامعك؟
نظر الطفل له وقال:
- أنا طوع أمر سلطان المسلمين.
ابتسم السلطان ونظر لمحمود قائلاً:
- يتعلم في لمح البصر كما قلت يا (محمود).
أعاد النظر لإبراهيم وهو يشير للرجل الذي خرج من
البوابة منذ قليلٍ:
- هذا هو أستاذك الطواشى (صندل المنجكى) أمير طبقة
(الصندلية)، سيسكنك وسط الماليك وتعيش معهم حتى
يقضي الله أمراً كان مفعولاً.
ثم نظر لصندل وقال:
- خذه أنت وأسكنه بنفسك ولি�عامل كمعاملة الماليك
السلطانية.
- أمر مولاي، هل هو من أولاد الناس؟
- لا.. من أولاد البلد.
- اتسعت عين (صندل) وتراجع خطوة إلى الوراء مصعوقاً
فقال السلطان بحزنٍ:

- افعل ما تؤمر وستفهم لاحقا.. والآن خُذه للداخل
وأناساً مأْمُرُ على أولادي بنفسي.

قالها ودخل من البوابة بسرعة والموكب خلفه وهم
يزبحون (صندل) جانباً حتى تقدّم هذا الأخير إلى (إبراهيم)
وجثاً على ركبتيه يسأله:

- قال السلطان أنت ابن (غраб).

- لا بل هو جدي.

- أكنت تقيم بالإسكندرية؟

- نعم.

تذكرة (صندل) الاسم وهو يقول:

- جدك كان متولى الإسكندرية؟

- نعم.. وأبي (عبد الرزاق) وبعده أخي (ماجد).

زادت دهشة (صندل) لكنه غير ملامحه ليصير مبتسمًا وهو
يقول :

- لا تخف يابني.

- لست خائفاً.

قالها (إبراهيم) مبتسمًا فسألة (صندل):

- ما يطمحنك هكذا؟

- أخي قال لي إن كل شيء سيكون على ما يرام.

الفصل الثاني

صلاة الممسوس

(1)

2002

صعد (سليم) سلم عمارته جريأا، وأستاذ (فتحي) ينزل
بيطء وروية، حتى إنه اصطدم بسلام الذي لم يشاً أن يبدأ
عراًكا مع الرجل الذي لا يطيقه منذ موت عائلته، فأكمل
صعوده إلى أن وصل لباب شقته، فتحه ودخل يلتقط أنفاسه
المتسارعة والعرق يليل ملابسه، سمع صوت (صالم) يقول
بأذنه:

- لا أحد يستمعنا فاهمدأ.

القى بنفسه على الأريكة وهو يخاطب الهواء بأنفاس
lahetha:

- اشرح لي ما حدث.

تردد صوت (صالم) في الشقة بشكل طبيعي وهو يقول:
- عندما فتحت لي منفذًارأيتك ودخلت منه، لكن دخل
ورأسي المثاث من الجان من قبيلة (سرخ) يحملون سيفاً، لم
يمسني أحدهم لكنني علمت أنهم سيؤذون أحدهم.

- (سرخ)!!! لم يمر هذا الاسم بذهني من قبل.

- ولن يمر، هي قبيلة تخدم رجال التصوف وغير مؤذية في طبعها، كان لهم مراقبون يقفون حول الشقة لم أشك فيهم واعتقدت أنك يتبعون رجلاً صوفياً قريباً، عند فتح المنفذ اختفوا وحضر مكانهم المهاجمين.

بكسف يده مسح (سليم) العرق من على جبينه وعينيه تزوغ في اللامكان، حتى عاد صوت (صالم) يقول:

- استنتاجك خاطئ.

- اسمعه الأول وأحكِم، من جاء ببحث عنه والدي وشقيقه هو شخص يقتل السحرة بطول محافظات مصر، و(بودي) وصف قاتل عائلتي بأنّه في نهاية المراهقة وبداية الشباب، وأنت رأيت معى هذا الشاب الذي داوم لي زيارة (توفيق) ومكتبه، هؤلاء الجان يخدمون هذا الشاب وهو القاتل.

- لا.. مراقبين (سرخ) كانوا بالقرب من الشقة وقت دخول الشاب وخروجه ولم يتفاعلو معه، وأنا استجوبت قرينه وعلمت أنه لا يتعامل مع الجن، هذا الشاب نظيف تماماً.

- ماذا كان اسمه؟

- (مالك سعيد غراب) طالب يدرس في كلية.

- وما أدرك أنه لا يزيف حياته مثلها فعلت أنا مع قريني؟

- خيم الصمت على الشقة حتى قال (سليم):
- أتحمل بصمته ليتمكنني البحث وراءه؟
 - أحملها لكن لن تفديك فليس هو قاتلنا اليوم.
 - أمات (توفيق)؟
 - بطريقة مختلفة عن البقية قليلاً.
- أغمض (سليم) عينيه وهو يقول:
- من انتظرك لیتم فتح منفذ للدخول لتوفيق، ومن قتل (توفيق) اليوم !!
 - يمكن لك التواصل مع صاحب الغرفة النحاسية.
 - فتح (سليم) عينه بسرعة وهو يصرخ:
 - لا.
 - لا تنسَ أنه منا حتى وإن أنكر ذلك.
 - أي حذرني من (عبد) سيد الغرفة النحاسية.
 - لكن (عبد) هذا من الممكن أن يكون قد رصدَ كُلَّ شيء متذ مقتل السحرة.
 - سيمنعني من إكمال مهم...
- قطع حديثه وهو يسمع دقات على باب الشقة، يعرف صاحبها جيداً من درجة صوت الدقة، نهض ليفتح الباب، وجدَ (بودي) واقفاً بملابس الحضانة ينظر لشقته ثم ينظر له وهو يقول:

- أريدك في موضوع هام.

- سأحق بك بعد قليل.

- عمتوا (هالة) في الشقة الآن، ولا أريد أن تسمعوا.

أشار له (سليم) ليدخل وأغلق الباب، اختار (بودي) مقعداً يبعد عن الأريكة قليلاً وجلس عليه بعد أن خلع حقيبة ظهره الصغيرة ووضعها أرضاً، جلس (سليم) على الأريكة ينظر له بشك و(بودي) يقول:

- (سليم) أتفذني.

- وضح كلامك !!

- سمعتكم أمس وأنا أبذل ثيابي بغرفتي، كتم تحادثون عن كوابيسى، وعمتو (هالة) قالت إنها استحضر رجلاً ليراني اليوم.

أراح (سليم) ظهره وهو يقول بحذر:

- ما هي الكوابيس التي تراها وتخيفك بهذا الشكل؟

نظر (بودي) للأرض وقال بخجل:

- منذ وقت تذكرت ما كنت قد نسيته.

انتفض جسد (سليم) من الداخل لكنه حافظ على هدوئه من الخارج و(بودي) يكمل كلامه:

- أنت الوحيد الذي يفهمنى، أرجوك امنع عمتوا (هالة) مما ستفعله.

- ما الذي تذكره؟

- كل شيء.

انفلتت أعصاب (سليم) وهو يصرخ فيه:

- أجب يا (عبد الرحمن) بس الله عليك، ما الذي تذكره؟!!!!!!؟؟؟؟

منع الصبي نفسه من البكاء وهو يقول:

- عموماً (صالم) صديقك... و... وشخص يشبهني بلا وجه كنت تخاطبه بأنه قريني في تلك الليلة.

شهق (سليم) دهشة و(بودي) يقول بسرعة بأنه شعر بالخطأ مما قاله:

- والله العظيم لن أخبر أحداً بما رأيت لأنهم لن يصدقوني، لكن أنا خائف من الرجل الذي سيأتي الليلة أن يريني ما حدث ثانية.

دفن (سليم) رأسه في كفه ندمًا وهو يخاطب نفسه:

- ما الذي فعلته في هذا البائس؟

- هل ستساعدني؟

نظر له (سليم) وقال بلطف:

- هل تخبي على شيئاً آخر.

- لا.

نطقها (بودي) لكنه عاد يقول بسرعة:

- نعم أخبي.

تبع كلماته بأن رفع يده للسقف مشيرًا بأصبعه فلم يفهمه (سليم) وهو يكمل إشارته بأصبعه في اتجاهات مختلفة في الشقة حتى سمع (سليم) صوت (صالم) يردد في أذنه:

- الصبي يشير لواضع عمار المكان من الجان.

في نفس الوقت تقريرًا وأشار بأصبعه ناحية (صالم).

- أتسمع أصواتًا؟

- بعض الأحيان أسمعهم يتحدثون ولا أفهمهم في الغالب.

تنفس (سليم) ليهداً وهو يقول:

- أين تراهم في غير هذه الموضع؟

- أحياناً في الشارع وأحياناً في المدرسة، وفي أحياناً أخرى لا أرى شيئاً.

وقف (سليم) غاضبًا من نفسه يتحرك في الشقة ذهاباً وإياباً كالقط المتحفز.

- آسف لو كنت أخطأت.

نطق (بودي) بتلك العبارة بحرج فنظر له (سليم) وقال حزيناً:

- أنت لم تخطئ، أنا الغبي الذي لا أتقن شيئاً.

قال (صالم) في أذنه:

-أغلق الرؤبة للصبي.

- لا لا لا.. لا تفعل شيئاً ثانية، أنا لن أتكلم.

صرخ (بسودي) بعبارته رافعاً يده أمامه متوكلاً فرداً
(سليم) بسرعة وهو يقترب منه:

- لا تخف لن أجبرك على شيئاً ما ثانية.

عاد (سليم) ليجلس وهو يقول بتأثر:

- لكنك ترى مالن تفهمه، دعني أريحك من هذا العذاب.

- أرجوك لا.

- لتعقد اتفاقاً، سأتصرف مع الرجل الذي سيأتي اليوم ولن يقترب منك، وأنت بالمقابل تعطيني فرصةأخيرة لأمنع عنك ماتراه.

فكرا الصبي للحظات قبل أن يقول:

- هل يمكن أن أزيد طلبًا على الاتفاق؟

- قل.

- والله والله لن أفشـي أي شيء تقوله لي.

- لم أفهمك!!!!!!

- أريدك أن تجاوبني على أي سؤال أسأله.

ابتسم (سليم) بطرف شفتيه وهو يقول:

- أتريد سؤالي عما ترى؟ عن الجن؟

- نعم.. وأسئلة أخرى فيها بعد.

اكتملت ابتسامة (سليم) وهو يقف ثانيةً ويمد يده أمامه
 قائلاً :

- اتفقنا، لكن إن أخبرت أي شخصٍ ستفقد الاتفاق،
وسأعلم.

قفز (بودي) من مقعده ورفع يده يصافح (سليم) وهو
يضحك ويقول:

- عموماً (صالم) سيخبرك.. أعلم.. اتفقنا.

- والآن عذر لك سيك ولا تخش شيئاً.

- ماذا ستفعل؟

- سأغلق رؤيتك للجان.

- سأقرأ بعض الأشياء لأمنع عقلك من ترجمة الإشارات
التي تأتي من عينيك وتتضمن أيّ جنبي، هل فهمت؟
- لا.

ضحك (سليم) وهو يضع يده على رأس (بودي) ويجلسه
على المقعد ثم يبدأ القراءة.

- تفضل يا شيخ (حمادة) نورت الدنيا.

قالتها (هالة) وهي تقف على باب الشقة تستقبل الشيخ
(حمادة) الذي كان رجلاً في العقد الخامس من العمر بشارب
منمق وشعر ناعم مصبوب بالأسود وجسد نحيل وعيون
بارزة في وجهه امتلأ بالتجاعيد، أشارت له والفرحة تطل

من عينيهَا ناحية غرفة الصالون فاتجه لها وهو ينظر حوله بتفحص بعينيه كل ركن في طريقه.

دخل الصالون فوجد (أحمد) واقفا يصافحه وبجانبه (بودي) و(سليم) الذي نظر بشك له وقد فهم نقطتين، الأولى أن (حمادة) هذا يمتلك هيبة تزرع التوجس في نفس من تقع عليه عيناه، والنقطة الثانية أن (صالم) أخبره بأنه استجوب قرينه والرجل مجرد نصاب لم ير جنبي في حياته.

يوجه صارم تفحص (حمادة) وجوه الحاضرين حتى التقى عيناه بعيني (سليم) فضيقها قليلاً وهو يجلس على أحد المقاعد بدون أن يدعوه أحد، دخلت (هالة) تحمل صينية كاسات زجاجية امتلأت بمشروب البيسي الذي جهزته من قبل ووضعت الصينية على الطاولة وسط الغرفة وهي تجلس بسعادة على مقعد قريب من الشيخ الذي قال بجدية يمثلها جيداً:

- كيف الأحوال يا سرت (هالة)؟

- الحمد لله.

- وحال (أم مروة)، هل تخلصت من مشاكلها؟

نظرت (هالة) لأحمد وقالت بفخر:

- (أم مروة) جاري قامت حماتها ساحها الله بعمل سحر سفي لها التوقع بينها وبين (أبو مروة)، والحمد لله الشيخ (حمادة) تخلص منه

نظر (حادة). فجأة لسليم ويرق عينيه بحركة غئيلية وهو يشير ناحيته ويقول:

- أنت.. يتلمسك مارد سفلي شديد لكن لا تظهر عليك أعراض، في وقت آخر سنعالجك.

فهم (سليم) مدلوّل ما قاله، هو يريد تحبيده لأنّه يشك به ولا يريد للشك أن يعدي الآخرين، وهذا ما كان يحضره (سليم) حتى ولو لم يتكلّم (حادة):

- شيخ (حادة) أعني من أعراضٍ لم أقصها على أحد منذ مقتل عائلتي، أرى أناساً يتحرّكون في شقتي ليلاً نهاراً، وأصوات تحدثني ليلاً نهاراً، هل يمكن أن تكشف عليّ في البداية.

قال (سليم) تلك العبارة لتوزع الدهشة على الجميع بما فيهم (حادة) نفسه الذي اشرحت أسراريه ولم يدار السعادة المرتسمة على وجهه وهو يقول بشقة:

- سأنتهي من حالة (عبد الرحمن) وأنفرغ لك.

قال (سليم) بخجل مصطنع:

- أتمنى أن تبدأ بي ولا يجالسنا أحد.. هناك أشياء أخجل من طرحها أمام الجميع.

بنوع من الارتباك قال (أحمد):

- لا مشكلة، نغادر نحن الصالون.

تبع قوله بوقوفه مسحًا بيد (بودي) و(هالة) تقول بعدم اقتناع:

- لم نسمع رأيَ الشِّيخَ بعد.

أخذ (حمادة) يحرك شفتيه متمتمًا بكلمات غير مسموعة وعيناه تتسعان قليلاً، توقف فجأة وقال باطمئنان:

- غادروا أنتم واتركوني مع الشاب.

نفذوا ما أمرهم به وأغلقت (هالة) باب الغرفة وراءها، تبادل الاثنان النظرات و(حمادة) يمثل التتممة مثيًّا عينيه الواسعتين في عيني (سليم) المرتحتين والذي قال بعد برهة من الوقت:

- بعد أن نهيَ ما سيحدث في الغرفة سترجع وتخبرهم بأني كنت ممسوًّا من الجن لأنني بكىت كثيراً وحيداً، وأنك حللت كل شيء، وستمثل ما تفعله مع (بودي) وتقول بأن الصبي لا يعاني شيئاً وأنه ربما يرى بعض الكوابيس بسبب اشتياقه لأمه.

اهتزت ثقة (حمادة) قليلاً، ولكنه أكمل التتممة بشفتيه فنهض (سليم) وهو يكمِّل حديثه:

- والآن ستري ما لم ترَه عيناك من قبل، فاللزم المدوء ولا تفرز كي لا تضيع هيبيتك التي صنعتها.

اقرب (سليم) منه حتى صار واقفاً أمام مقعده وقال بصوت هامس:

- أنت تمثل طبقة دونية من النصابين لذلك لكن أثق بذكائك وقدرة تحملك عندما ترى طيفاً من العالم الحقيقي الذي تدعى معرفتك به.

على أحد مقاعد الغرفة تشكل دخان يدور في حلقات دائرة كأنها الدوامة، حتى زادت كثافته وتشكل على هيئة رجلٍ نحيلٍ يجلس على المبعد، رجل عاري يغلب اللون الأحمر على لون جلده المتشقق، رجل بعينين مشقوتين كالقطط وفم الخنزير ويدين بأصابع طويلة.

ارتجمف (حمادة) في مقعده وكاد يصرخ رعباً لكن (سليم) كتم فمه بيده اليسرى وهو يشير بيده للجني الجالس على المبعد ويقول:

- رجل من الجن يعلم عنك وعن عائلتك، لاحتاج إلى مرح ما سيفعله بك إن عصيت أوامرِي، هل تفهم؟
الغريب أن (حمادة) أغمض عينيه وهز رأسه بسرعة بالموافقة وهو يئن.

- سأبعد يدي عن فمك فلا تصرخ.

تبعد كلماته بابعاد يده و(حمادة) ما زال مغمض العينين يقول بتسلل:

- أرجوك اجعله يرحل.

لأول مرة يشعر (سليم) بالقوة تسفل لقلبه وهو الذي

ما انفك يرى إخفاقاته طوال الفترة السابقة، شعور لذذ
وشهوة مشتعلة تملأ نفسه وجسده.

- سيرحل.. لكن لا تننس ما اتفقنا عليه، ووعدي لك
بأن لا أقربك طالما لم تفش ما حدث الآن لأي شخص.
هزّ (حمادة) رأسه بالموافقة وأنفاسه تتسرّع و(سليم) ينظر
لصالحه ويبتسم.

(2)

١٣٨٢ م - القاهرة - مصر

فيما بعد عرف (إبراهيم) أين يقيم وماذا يحدث، مصدر معلوماته هو الطواشي (صندل)، علم أن للسلطان ماليك يشترىهم من تجار العبيد الذين يأتون بهم من قبائل متفرقة من بلاد (القبيحاق) والتي بطبيعة الحال لم يفهم موقعها، قبائل بجانب بحر قزوين أو أحواض الأنهار المختلفة تختلف لغاتها لكن الماليك يقسمونهم إلى (الأتراك) و(الشراكسة) كعنصرين أساسين.

يأتون بهم أطفالاً بين السابعة والعشرة ليقيموا في طباق القلعة، وهي منشآت بجانب بعضها تسمى الواحدة منها باسم عيز، كالمكان الذي يقيم فيه (إبراهيم) الآن وهي (طبقة الصندلية) وقد سميت باسم الطواشي الذي يديرها، طبعاً لا تلتزم كل طبقة باسم طواشيه، فبجانبهم طبقة (المقدم) وطبقة (المستجدة) وطبقة (الأربعين) إلخ إلخ.. فأسراها تأتي على هوى السلطان الحاكم في وقته ولا تخضع لنظام تسمية محدد.

- من أين أتيت يا أستاذ؟!!

ألقى (إبراهيم) بسؤاله على (صندل) في إحدى الليالي
فابتسم له هذا الأخير بجيئا:

- أعرف بما يعتمل بذهنك، أنا سرت مملوكيًا كمثل
البقية، فأنا من بلاد الروم ومهنتي هي الخدمة، أتوابي طفلاً
و فعلوا بي مالن تفهمه لأكون خادماً مخلصاً، و تدرجت من
طواشى يمسح غرف الطبقات إلى أن صرت مسؤولاً عنها.

شغلت بال (إبراهيم) معرفة ما فعل بصندل في طفولته
لكنه نسي الأمر بعد قليل وهو يتعرف أكثر بما حوله، في
البداية لاحظ أن الطبقات من الداخل تتكون من مبني إداري
به المطبخ، والحمامات، ومخازن الكسوة والغلال والسلاح،
وقاعات تدريس وتدريب، وغرف نوم عشرات من الطواشية
من خدام الطبقات، وبقية المباني ذات ثلاثة طوابق تمتلئ
بالغرف المتراسقة تسع كل غرفة لنوم أربعة مماليلك على
الأرض.. في إحدى المرات حاول عد الغرف لأنّه تعلم
حساب الأرقام من أخيه لكنه وصل إلى عدد 800 غرفة ثم
اكتفى عندما مل.

كل طبقة كما علم يسكن بها جنس واحد من الملائكة،
كطبقته التي يسكن بها الملائكة الآتين من قبائل الترك والذين
يسكن أصغرهم في الطابق الأخير من المباني بينما الأكبر سنًا
من تخطوا مراحل الدراسة يسكنون في الطوابق السفل.

كل يوم يصحو (إبراهيم) بعد الشروق عند سماع بوق منغم متقطع، ثم يفتح الطواشية الصغار المسؤولين عن طابقه الغرف وهم يصرخون ((نوبة صحيان))، صرائحهم أشدّ إزعاجاً من البوق المتقطع و(إبراهيم) ينهض ليقف مع رفاقه أمام الغرف والطواشية تأخذهم قطعاً للحِمَامات التي بنيت على شكل غرفٍ صغيرة منفصلة يدخل كل طفل في غرفة يخلع رداءه الكتاني ذا القطعتين ويلقيه في سلة، ثم يغسل ويرتدى واحداً آخر يتسلمه قبل دخوله الحِمَام، أرديتهم كلها مقاس واحد لكنها زودت بحبل صغيرة يربطها المملوك ليناسب الرداء حجمه.

بعدها يجتمع مئات الملايك من كل الطوابق في ساحة الطبة يؤدون صلاة الصبح خلف (صندل المنجكي) مع ما لاحظه (إبراهيم) من أنَّ من كانوا في مثل عمره لا يجيدون الصلاة ولا يفهمونها من الأساس بل يؤدي بعضهم الحركات مقلداً من حوله والبعض الآخر يتلَّكاً.

بعد الصلاة يستلمون جرایة الطعام في أطباق من المطبخ وهي إما طبق فول وقطعة خبز عليها قالب جبنة أو ما يشابهها، ثم يأتي الشيخ (عبد الغفار التوني) وهو رجل دين من الصعيد ما زال يتحدث بلهجته الصعيدية في بعض الأوقات لكن كل الأوقات يحافظ على لغة عربية فصحى، يدرس لهم الحروف العربية القراءة والكتابة وهم يجلسون

بساحة الطبقة الداخلية، ثم يأتي الشيخ (عزيز) ليحفظ لهم القرآن ويذربهم على الصلاة ويعرض أساسيات الدين، ثم الشيخ (فاروق) الذي يذربهم على الحساب والتعامل مع الأرقام ورسم الخطوط العربية.

كلهم معلمون مصريون وجميعهم لاحظوا (إبراهيم) وسألوه عن جنسيته، ومن علم منهم أنه مصري أخذ يستغفر الله ثم يسأل أحد طواشية الخدمة الذي يهمس له في أذنه بضم كلامات فيخرسون من بعدها لكنهم يعاملونه بنوع من الشفقة والحنان.

وطبعاً كان (إبراهيم) أكثر الجميع تفوقاً لأنه درس كل ما يعلمونه من قبل في الكتاب وعلى يد أخيه؛ لذلك كان من ضمن المجالسين في الصفوف الأولى في كل الدروس وتلك الصفوف للمتفوقين الذين سيتم فرزهم لاحقاً ليعملوا بال المناصب الإدارية في الدولة.

بعد كل تلك الدروس يأخذون راحةً مع جرایة الغداء المشتملة على الأرز أو الخبز وطبق خضار يلقى فيه قطعة لحم مرتين أسبوعياً، يتناولون كلَّ هذا في غرفتهم ويسلمون الصحون الفارغة في المطبخ مستعدين للصلوة ثم يأتي دورُ الأمير المملوكي (جاركس المصارع) ليحاضرهم أطول محاضرة بطريقة غريبة لكنها أمنت (إبراهيم)، يقول كل عبارة بلغتين من لغة قبائل الترك ثم يترجمها إلى العربية الفصحى ليفهم

الأطفال بلغاتهم ويتعلمون العربية، وما حدث مع (إبراهيم) كان العكس عندما التقى الكثير من اللغات الأخرى.

- انس أباك وأمك وإنحوك، أنت الآن في مصر أم الدنيا.

يرددها بمختلف اللغات فيظهر الحزن على بعض السامعين لكنه يكمل وهو يغير تعبيرات وجهه ليكسبهم الحماسة:

- أنت مملوك سيعار منك الجميع حين تنضج، ستتحكم بقاع الأرض وتتنعم بما لم تخلم به.

كلمات تلهب مشاعر البعض ولا تؤثر في الآخرين.

- فلينظر كل منكم إلى من يجاوره.

ينظر الأطفال بعضهم إلى بعض ويضحكون فيقول (جركس) بملابس العسكرية التي تكسبه الهيبة والوقار:

- أنت خشداش لزميلك، تجمع بينكم الخشداشية حتى الموت.

يوضح بعض الأطفال فيكمل (جركس):

- الخشداش ينجد خشداشه في المحن، يحمي ظهره، يحفظ سره، هو أقرب إليك من أخيك، خشداشك الذي تربى معك في طبقتك ولا علاقة أقوى من الخشداشية إلا الأستاذية.

تعلق به العيون الحاملة فيسير بينهم ملوحا بيديه ليزيد قوة شرحة:

- أنا أستاذ لـ ملائكي التي أملكها، وكل من ملك الملائك
منا يصير أستاداً، لكنني لستُ أستاذكم.. أستاذكم الأكبر هو
السلطان (برقوق)، وأنتم الملائكة السلطانية، السلطان القادر
سيخرج منكم، علاقتكم بأستاذكم أقوى من أي علاقة
إنسانية، أستاذك أحب إليك من خشداشك، أحب إليك
من زوجتك ولدك، تفديه بحياتك ومالك ودنياك.

تعالى الأصوات ثانية بلغات مختلفة يفهمها (جاركس)
ويعلم أن الأطفال يستهينون بالكلمات التي تمر بعضها على
رؤوسهم مرور الكرام، يشك يده خلف ظهره وهو يصرخ
فيهم:

- قفوأ متتبهين.

يطيع البعض وتتهايل البعض، يزيد صراخه حتى تهتز له
الطية كلها:

- قلت قفوأ متتبهين وأيديكم بجانبكم.

تشتد ظهور الأطفال وتنتصب طيع الأمر فيكمل المسير
بيتهم وهو يقول:

- أنتم الملائكة المصرية، من اليوم تتهايل حياتكم بين
الثواب والعقاب، بين الألم والراحة، بين المسوت والحياة،
كمملوك إما أن طيع معلميك فتحيا بشرفك وإما أن تعصي
فتموت بعارك.

- (إبراهيم بن غراب).

هتف طواشى الخدمة الواقف بعيداً بالاسم وسط درس الحساب للملك الصغار فوقف الصبي متبهما والشيخ فاروق) يسأل بعصبية:

- من يطلب المملوك؟

- الطواشى (صندل) بنفسه.

اخترق (إبراهيم) صفوف الأطفال الجالسين حتى وصل لطواشى الخدمة الذي خطأ بسرعة والصبي يتبعه بمشية آلية شبه عسكرية تعود عليها بعد قضاء أربعة أشهر داخل الطبقة، وصلوا إلى قاعات الإدارة والتي لم يدخلها من قبل ومنها إلى قاعة وقف (صندل) ببابها مبتسمًا، رأيت على رأس الصبي وقال:

- الجميع سعداء من تقدمك، حتى إن السلطان بنفسه سمح بما لم ولن يحدث داخل الطياق.

هذا الصبي قليلاً لكنه انتظر ليعلم إن كان خيراً أم شراً.

- اليوم يا (إبراهيم) ستقابل أهلك، فكن رجلاً ولا تبك.

هز (إبراهيم) رأسه بحركة آلية، فاصطحبه (صندل) لداخل القاعة التي وجد بها (ماجد) جالساً مهوماً ينظر للأرض بانكسار وبجانبه الأمير (محمود) وفي أقصى القاعة أمه في ملابس زرقاء تغطي وجهها، عرفها من ملابسها ثم من لفتها وهي تجري عليه كائفة وجهها التختضنه وتقبله في

كل جزء استطاعت الوصول له، نهض (محمود) وهو يقول:

- سنعود مرة أخرى.

غادر القاعة هو و(صندل) بينما (ماجد) يحصد حزيناً
بأنبيه المتصلب وأمه تمسح على وجهه وشعره بيده تسأله
عن أحواله وهو يجيب عليها بفتور، فـَكَرْ (ماجد) أن أخيه
الأصغر فقد شيئاً ما، ربما عاطفته، ربما آدميته، سحب
(إبراهيم) من حضن أمه برفق يتأمله ويقول:

- كيف هي أحوالك؟

- بخير.

- سعيد أم حزين؟

- أنا سعيد.

أخرجت الأم كيساً من القماش المخملي فضّله وأخرجت
منه حلوى الحمصية والعسلية التي تعود (إبراهيم) على
طلبه عندما كان في كنفها، لكنه نظر للحلوى صامتاً بعيون
زجاجية لا تحمل تعبراً.

- خُذْها يا حبيبي، لقد أحضرتها لك من (الإسكندرية)
من عم (تقى) الذي يبيعها لك.. ألا تذكره!!

قالتها الأم بحنان لكن الصبي حرك نظراته بينها وبين
(ماجد) الذي قال محاولاً الابتسام:

- لا تخف.

- لم أعد خائفاً.
- سأعمل على إخراجك من هنا.
- لا ترهق نفسك.
- هل تكرهني؟
- هزّ (إبراهيم) رأسه نفياً.
- أنا أكره نفسي، بسببي دخلت للطريق.
- فكّر (إبراهيم) للحظة ثم أجاب:
- لكنني سعيد هنا، سأصير ملوكاً.
- احمّر وجهه (ماجد) وهو يجذب على أسنانه ويقول:
- أنت لست ملوكاً لأحد، أنت حُرٌّ.
- صوت سعال مصطنع من (محمود) يتردد من خارج القاعة، أشار (ماجد) للصبي وأمه بالابتعاد قليلاً وهو يغادر القاعة ليقف بجانب (محمود):
- من بالداخل يا أمير (محمود) ليس شقيقتي.
- ابتسم (محمود) وقد فهم ما يرکن إليه وقال:
- هو شقيقك بلحمه ودمه.
- أين عقله؟
- عقله داخل طبقة (الصندلية) يعاد تهيئته، وأنت سمعته بنفسك يقول إنه سعيد.

- أخي ليس ملوكاً ولا عبداً.

ارتكن (محمود) لحائط قريب وقال:

- لن آخذ كلماتك على محمل الإهانة، أتعرف يا (ماجد)
ما كان اسمي قبل أن يخطفني (عثمان الخواجة) تاجر الرقيق.

- أنا لا أعلم ولا أهتم

- وأنا لا أذكر، لم أكن من المهايلك السلطانية، باعني
التاجر لأمير ملوكى ريانى فيما يشبه الطباق وفيما بعد
أصبحت من المهايلك السيفية، نسيت من أنا، فصلوني عن
حياتي السابقة، (إبراهيم) ما زال يتذكر من هو.. يستطيع أن
يراكم.. في داخله يعلم بأصله وفصله حتى وإن فقد هويته
وعقله، ما زال يحمل هويته، (إبراهيم) القديم سيعود عاجلاً
أو آجلاً.

ارت肯 (ماجد) على الحائط بجواره وقال:

- لم سمحت لي بزيارةه اليوم؟

- لأن رسالتك وصلتني.

كان (محمود) يقول عبارته وهو يبتسم ناظراً للفراغ
وأكمل:

- (ماجد) أنا لست غبياً وأعلم أنك كذلك، أعرف أنك
ذهبت إلى الشيخ (علم الدين اليمني) المقيم بالإسكندرية
عندك ل تستفتني وسط مجلسه وبين طلابه عن حكم الدين

في أن يكون المملوک مصریاً أو شامیاً، وأفتاك بأنه لا يجوز
أخذ المالیک من أي بلد يحكمها المسلمين أو يتحدث أهلها
العربیة.

حافظ (ماجد) على هدوئه وقال بسخرية:

- وما المضرة فيها فعلت!!!!!!

- كنت تعرف أن عيوني ستبلغني بالواقعة، وإنه لعمري
لقطانة أتوقعها، ترسل لي رسالة مبطنة مفادها أنك تستطيع
تحريك العامة ضدي ضد السلطان لكنك لن تفعل.. وها
أنا أتيت بك لتزوره وطمئن عليه بنفسك.

- وما القادم؟

اعتل (محمود) وحرك يده على عمامته يضبطها وهو
يقول ببساطة:

- أمیر الطبة (صندل) يقول بأن (إبراهيم) لا يحتاج لفترة
إعداد المالیک الكتابیة وأنه سينتقل قریباً للتدريب الحربي
خلال عام، سأدبر لك زيارات من وقت لآخر.

- لم تجرب على سؤالي بعد.

- طالما أنك بعيد عن السياسة وأمورها فأعدك برعاية
(إبراهيم) بنفسي، ربما أقنع السلطان يوماً ما عندما يطمئن
لك بأن يخرج الصبي من الطباق ليبيت بمنزلي ويعود في
الصباح للتدريب.

- تلك إجابة لا ترضيني.

التفت له (محمود) وحدق بعينيه قائلاً:

- اسمع يا (بن غراب)، ستأتي معي أنت وأم الصبي
لمنزلي كي تنال واجب الضيافة ثلاثة ليالٍ، بعدها تعود
للاسكندرية لعملك وأعود أنا العملي وتسير الحياة كنهر
النيل بلا فيضان ولا جفاف، لا تقاوم النهر فتغرق وتغرقني
معك فأنا الضياء الوحيد لنجاها أخيك.

ألقى عبارته وترجل مسرعاً و(ماجد) يرمقه قهراً.

هذا الرجل يسير ورائي منذ ساعة، كذا فَكَرْ (ماجد)
وهو يتحرك وسط الحشود في أسواق (بركة الجيش) بالقاهرة
يبحث عن باعة الكتب، كان قد نزل بدار (محمود) منذ
يوبين هو وزوجه أبيه التي أقامت في قاعات النساء بالدار،
وأقام هو في قاعة المسافرين ينام الليل وينخرج طوال اليوم
يسير هائماً في المحروسة.

هاجته تلك الفكرة بأن هناك من يتبعه، نظر حوله
أكثر من مرة حتى عصر على رجل متوسط الطول عريض
الأكتاف أبيض اللون، تبدو على ملابسه الوجهة وعلى عينيه
التيقظ، في الأربعين من عمره هو وإن كان وجهه الوسيم
يعطيه عمراً أقل من عمره الحقيقي.. الغريب في الأمر أنه لم
يدار تبعه لماجد، كأنه يقصد تنبئه بذلك.

ثم تذَكَّرُ (ماجد) رؤيَتِهُ هذَا الوجهَ مِنْ قَبْلٍ.. لِمَحِهِ بَيْنَ
النَّاسِ فِي أَحَدِ الْأَسْوَاقِ أَمْسَ، إِذَا فَهُوَ يَتَّبِعُهُ مِنْذَ مَدْةٍ، تَوَقَّفُ
(ماجد) عِنْدَ أَحَدِ بَاعِثِيَّةِ الْأَقْمَشَةِ يَمْثُلُ الْبَحْثَ فِي الْبَضَاعَةِ
وَيَحَاوِلُ أَنْ يَلْمَحَ الرَّجُلَ بِطَرْفِ عَيْنِيهِ، الْمَفَاجِأَةُ أَنَّ الرَّجُلَ
تَوَقَّفُ بِجَانِبِ وَهْمَسْ قَائِلاً:

- رَجَالُ الْأَمِيرِ (مُحَمَّد) يَتَّبِعُونَكَ كَظُلْكَ، اذْهَبْ إِلَى سُوقِ
(الصَّقَارِينَ) بَعْدِ صَلَاتِ الْمَغْرِبِ، سَتَرَانِي هُنَاكَ، اتَّبِعْنِي حَتَّى
أَبْعَدْكَ عَنْهُمْ.

- مَنْ أَنْتَ؟

- إِنْ أَرْدَتِ الْفَلَاحَ لِأَخِيكَ فَنَفْذِ مَا أَقُولُ بِلَا تَرْدُدٍ.

اخْتَفَى الرَّجُلُ وَسَطَ الزَّحَامِ، فَكَرَ (ماجد) فِي الْاِحْتِمَالَاتِ
بِسُرْعَةٍ، لَا خَسَائِرٌ مُحْتَمَلَةٌ وَإِذَا وَضَعْنَا فِي الْحَسَبَانِ أَنَّ هَذَا
الْأَخِيرُ صَغِيرُ السِّنِّ وَيَمْتَلِكُ فَضْلًا أَكْثَرَ مِنَ الْحَكْمَةِ
سَتَكُونُ التَّيْجَةُ هِيَ مَا يَفْعَلُهُ الْآنُ.

أَكْمَلَ سِيرَهُ وَهُوَ يَسْأَلُ بَعْضَ التَّجَارِ عَنْ سُوقِ
(الصَّقَارِينَ) فَدَلَّوْهُ عَلَى الْاتِّجَاهَاتِ، وَصَلَّى إِلَى هُنَاكَ قَبْيلَ
صَلَاتِ الْمَغْرِبِ، اتَّظَرَ مَوْعِدَ الصَّلَاتَةِ فِي أَحَدِ الزَّوَالِيَّاتِ حَتَّى
أَدَاهَا وَخَرَجَ يَتَرَجَّلُ هَائِئًا.

هَاهُوَ الرَّجُلُ يَقْفَى بِجَانِبِ أَحَدِ تَجَارِ الْفَلَالِ يَنْظَرُ لَهُ
بِطَرْفِ عَيْنِيهِ ثُمَّ يَمْشِي بِطَرِيقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ وَيَنْحَرِفُ إِلَى حَارَةٍ
جَانِبِيَّةٍ، تَبَعَهُ (ماجد) مُحَافِظًا عَلَى الْمَسَافَةِ حَتَّى أَكْمَلَ بَضْعَةِ

انحرافات في حارات مختلفة إلى أو وصل لساحة حشدت بالبشر وألعاب الأطفال وبائعي الحلوي والصوفية والعياق ومستعرضي السحر.. إنه احتفالية مولد أحد الأولياء التي تعج بهم القاهرة.

دخل الرجل وسط الزحام وتبعه (ماجد) فذاباً وسط الناس حتى دخل الرجل في منزل يطل على الساحة فتبعه (ماجد) ليجد نفسه يخرج من باب آخر لنفس المنزل، باب يطل على حارة شبه هادئة بها بعض ورش التجارة، تبع الرجل إلى داخل إحدى الورش الخالية فأغلق الرجل باب الورشة من الداخل وهو يقول:

- لأقصر عليك المسافة، أنا (ناصر بن دوام).

فيم (ماجد) المكان بعينيه بسرعة، ورشة نجارة عادية لا شبهة فيها.

- بالتأكيد تعرفني فلا أحتاج لتعريفك بنفسك.

- أعرفك وأعرف جدك (غراب).

- يبدو أن الجميع يعرفه أكثر مني.

سحب (ناصر) مقعدين قصرين مصنوعين من جريد النخل، مدّ أحدهما لماجد وجلس على الآخر وهو يقول:

- لم أقابله لكنني علمت الكثير عنه.

لم يتحدث (ماجد) وإنما رسم على وجهه الجدية وعيناه معلقتان بوجهه (ناصر) الذي قال:

- لنقل إني تابعت ما حدث لشقيقك (إبراهيم) وأعرض
عليك المساعدة في تهريبه.

صمت تام من قبل (ماجد) حتى قال (ناصر):

- ألا تريد المساعدة؟

- من أنت؟

- (ناصر).

- أنت تفهم سؤالي.

- اسمي (ناصر بن عبيد بن دوام)، لي تجارة متواضعة في
السكر، أبيعه في حانوت بحارة (المشهد) في المحرسية، جئت
لمصر مع أهلي منذ صبائي.

- إلى أين تعود أصولك؟

- إلى (صحار) أتعرف بها؟

ففكر (ماجد) قليلاً وكأنه يتذكر شيئاً ثم ردَّ:

- أنت من إماماة (عنان)؟

- نعم.

- إذاً ما صلتكم بأخي؟

سخب (ناصر) شهيقاً ليطرد التوتر وقال:

- لنقل إني أعلم مثلاً أنك تقوم بأفعال السحر والتواصل
مع الجن، وأنك قتلت الأمير (بركة) بمحبسه، وأنك ورثت
علم ذلك من أبيك وجده حتى نصل إلى أجدادك الفراعنة،

ولنقل مثلاً أن جدك (غраб) استعان بشيء من الماضي
السحيق ليوقف زحف ملك (القبارصة) على مصر.

انتصب (ماجد) فجأة و مد يده ليفتح باب الورشة لكن
قبضة (ناصر) أوقفته وهو يقول:
- أنا معك لا ضدك.

أبعد (ماجد) يده غاضباً وهو يقول:
- لن أنتظر لأسمع اتهامات تمسني و تمس عائلتي، اتهامات
من عقل مريض.

- أفهم أنك حذر، لكن على حذرك ألا يمنعك من قبول
المساعدة، أستطيع الوصول لإبراهيم و تهريبه ولسن يمنعني
أحد.

- اسمع يا هذا، قُل للأمير (محمود) أنني لست في البال
الرائق لمزيد من ألعاب المالك، أنا تقبلت قدرى وانتهت
القصة.

أنهى كلماته وفتح باب الورشة مغادراً إياها وصوت
(ناصر) يأتي من خلفه يقول:
- فكر في الأمر كما تريده، لكن الخطر يحيط بك كما يحيط
بأحريك.

(3)

2002

- (سليم).. استيقظ.

أتت العبارة من (صالم) صارخة في أذن (سليم) الذي رفع رأسه من على الأريكة وسط الظلام يجفف عرقه الغزير الذي لم يفهم سببه فالطقس بارد، صالة استقبال شقته ساخنة والعرق ينفجر من جسده ووجهه بغزاره، أزاح البطانية عنه وهو ينهض، لم يكن قد استفاق بعد من النوم، كاد أن يسأل عن سبب إيقاظه لكنه فهم.

هذا النور الأحمر بجانب إحدى المقاعد ينير وسط الظلام كمصابح صغير، يتضخم، من هذه البقعة تأتي الحرارة الملتهبة.

- (صالم) ماذا يحدث؟

- (الجساس) خادم الغرفة النحاسية سيحضر.

لم تنته عبارة (صالم) إلا وجسد كائن قصير لا يتعدي المتر يتشكل وسط بقعة الضوء الأحمر، بقرون طويلة وأذن

كالحسان وعيون بارزة أخذ الكائن يتأمل (سليم) الذي تراجع للوراء متحفزاً والكائن يقول بصوت كالصرير:

- افتح الباب.

نظر (سليم) للباب برعب ومذيده يفتحه بسرعة، خلف الباب وقف رجلٌ يرتدي بدلة سوداء في الثلاثينيات من العمر أو الأربعينيات لم يميز (سليم) من خوفه، قال الرجل مبتسمًا:

- أنا (عبداد) من يدير الغرفة النحاسية.

ثم أشار لطرف الغرفة عند الكائن قائلًا:

- وهذا (الجسas) خادم الغرفة كما أخبرك (صالم).. هل يمكنني الدخول؟

اختفى (الجسas) وانطفأ الضوء الأحمر، و(عبداد) يزبح (سليم) وهو يدخل ويضغط على زر الإضاءة قائلًا:

- أعتذر عن الجو الحار، ستعود درجة الحرارة لطبيعتها بعد قليل.

اختار لنفسه مقعداً وجلس عليه بلا استئذان و(سليم) يغلق الباب بعدما انتظمت أنفاسه قليلاً.

- أنا أعرفك يا سيد (عبداد).

- أعتقد أن والدك حكي لك الكثير.. جيد، هذا سيقصر بيننا المسافة.

جلس (سليم) على الأريكة وهو يقول ببرودة:
- ما الداعي لهذا الاستعراض قبل دخولك، أما كان من الأسهل أن تطرق الباب
ووضع (عبداد) قدمًا فوق الأخرى وقال:
- سمه استعراضًا للقوة، ليعلم كل شخص موقعه.
- أبي أخبرني أنك مغرور.
- بالمناسبة، تعازي الحارة لفقدانه، كان رجلاً ذا عقل راجح.

برهة من الصمت خيمت على المكان والاشتتان ينظران لبعضهما البعض بلا كلام حتى قال (عبداد):
- توقف عن مطاردة من يقتل السحرة.
- والسبب؟
- السبب أنك طفلاً.. غير مؤهل للدخول وسط الصراع الدائر، اترك هذه الأمور للكبار.
- اتفقنا.

فأها (سليم) ببساطة فتجمد (عبداد) لشوان مصدومًا ثم انفجر ضاحكًا و(سليم) يسأل:
- هل هناك سبب لتلك القهقهة!!!!!!
- أنت تستهزئ بي أليس كذلك؟
- أتوقع أن أرفض فتهددني ثم تركني لأفكري !!آسف لتفويت تلك المتعة عليك.

ظهر الاتفعال على وجه (عبد) لأقل من ثانية ثم عاد
واختفى وهو يقول ببرودة:

- أنا لست عدوك يا فتى.

- أعرف، فأنت وغرفتك النحاسية تتبع لنا.

- لست تابعاً لأحد.

قالها (عبد) صارخاً فرداً (سليم) ببرودة أكثر ليستفزه:

- اسأل (الجساس) من أنشأ الغرفة النحاسية بمصر منذ
زمن بعيد، ولا تنس أنت امتلك غرفة مثلها في سلطنة (عمان)
بنيت قبل غرفتك.

- هناك أكثر من غرفة بنيت بمصر وأسطورة أنكم من
علمتمونا بناءها تبعث على الضحك.

- لو لم نعلمكم بناءها فعلى الأقل علمنا أجدادك كيفية
تشغيلها، من الغباء أن تأتي لتخويفي وأنت تعلم من ورائي.

- أنت طفل وتهدد بما لا تملك، أنا المخطئ لمحاولة
مناقشتك، كان يجب أن أرسل رسالة مؤيد نفسه ليوقفك،
عندما علمت بأنك تحكمت بقرينه وكل يوم تزوده
بمعلومات عنك كي لا يستجوبه أحد لم أتكلم، لكن تقترب
من صراعات السحرة وتراقبهم بتهور فهذا..

قاطعه فجأة:

- لماذا تستر على قاتل عائلتي؟

نهض (عباد) من مقعده غاضبًا يقول:

- والذك حذرته بنفسي أن يتعد، ولكنه حلم بالوصول لما لم يقدر أجدادك على الوصول له.

كان يقول عبارته وهو يتجه لباب الشقة وقبل أن يفتحه نظر لسليم وقال:

- سأنزل لمستوى تفاهتك وأسائلك، من هؤلاء الأغياء الذين يطلقون على أنفسهم من آلاف السنين (رجال أرض النحاس)، من أين أخذتم الأسم؟، من مجلة (ميكي) التي كانت تصدر في العصر الحجري!!

- يمكنك قول نفس الشيء عن (الغرفة النحاسية).

خرج (عبد) وهو يغلق الباب من خلفه مصدراً لسبة بصوت خافت.. بينما (سليم) قد تخلى عن وجه الوائق وقد شعر بالذعر وهو يقول:

- (صالم) هل أنت هنا؟

- هل أغضبت سيد الغرفة النحاسية أم أنتي كنت أهذى؟

قامها الصوت في أذنه فرداً بسرعة:

- (عبد) هذا لا يستطيع التناست علينا طول الوقت أليس كذلك؟

- نعم، لكن الغرفة تظهر له أي شذوذ في عالم الجسن، وبالتأكيد مقتل (توفيق) عن طريق الجن أعلم به بوجودنا هناك.

- لكنه علم بموضوع قريني ولم يأبه لذلك، ما الذي حدث، ما الذي اقتربت منه ليقلق وياتيني بنفسه سكت (سليم) مفكرةً، مررت دقائق وعينيه تنظر في الفراغ حتى قال كأنه يحدّث نفسه:

- الشاب الذي رصده يذهب للساحر.

لم يمر أكثر من أسبوع على ما حديث مع (سليم) إلا وقد جلس (مؤيد) على طاولة مطعم يتظاهر واضعاً رأسه على كفيه، كان قد أرتدى جاكيت جلدي اشتراه من مصر عند وصوله أمس، ولكنه يشعره بحكة دائمة بسبب ضيقه، دخل (عبد) من باب المطعم وهو يصطحب فتى صغير السن خجول وجهه خالي من التعبيرات، نهض (مؤيد) يصافح (عبد) الذي رحب به وهو يقول:

- اعذرني فقد اضطررت لاصطحاب ابني (طه) من المدرسة، ما رأيك تناول طعام الغداء معّا؟

- بسم الله ما شاء الله، لم أعلم أن لك ابن، تناول الغداء وتناقش قليلاً.

جلس الجميع حول الطاولة عندما جاء النادل وطلب الجميع الطعام.

- وأنت يا (طه) أنتو ي أن تكون ضابطاً أم طبيباً أم مهندساً، اعذرني فكل من في سنك يختار تلك المهن.

- أريد دراسة الهندسة.

ابتسِم (مؤيد) مجاملة وهو يتحدث مع (عبداد) في مواقفٍ مُضيّعَةٍ عن الحياة والسياسة وغلاء الأسعار في الدول العربية، باختصار كان حديثاً مُعْلَماً يدور يومياً بالملاليين في أنحاء العالم بين الأصدقاء.

تناولوا الطعام وانتهوا منه فطلب (عبداد) من (طه) أن يستقل لطاولة أخرى لأنَّه يريد أن يتحدث في أمور لن تهمه.. نفذ (طه) الأمر بسلامة وابتعد كثيراً كأنَّه لا يريد سماع ما سيدور.

- أخيراً التقينا يا سيد (عبداد).

- كنت أتمنى ظروفاً أفضل من أن أطلبك بطريقة خاصة لتأتي لمصر لتقابل.

- لا مشكلة، وهذا قد أرسلت لي جساستك لأراه بعيني، كنت أعتقد أنه مختلف عن (جساس) غرفتنا في السلطنة.

- لا تعتبرها إهانة، أنت تعلم أنَّي لا أملك خدمة من الجان مثلكم.

- لا عليك، (سليم) أرسل لي تفاصيل مقابلتك معه، ماذا أردت منه بالتحديد؟

- ما أردتُه هو نفس ما طلبه من والده رحمه الله، أن يتبعه بما يحدث بمصر، ولا تحاول أن تدافع عنه فأنا أعلم أنه جاء لمصر من تلقاء نفسه لا بتکليف منكم.

- تتحدث عن المرحوم (صابر) وكأنه نكرة، الحقيقة أنك لا تعلم مكانته الحقيقية والتي تفوقني، وموته ليس حادثة هينة.

- الأعماز بيد الله.

- إن مات ميتة طبيعية فلا مشكلة، أما إن قتل فستقلب جماعتنا عاليها سافلها.

مسح (عباد) على شعره وهو ينظر لابنه الجالس وحيدياً على إحدى الطاولات يعبث بأكياس السكر الموضوعة أمامه وقال:

- (سليم) يتصرف بتھور ويحب عليك وقفه.

داعب (مؤيد) شاربه متضيئاً الهدوء قائلاً:

- الابن يبحث عن ثأر أبيه وأنا مثله، الفرق أنني أتحين اللحظة المناسبة.

- وما يضيرك في قتل سحرة بمصر؟

- جماعتي تكونت لتوقف السحرة

- في بلدك لا بلدي.

ضحك (مؤيد) قائلاً:

- ألا تؤمن بالوحدة العربية يا صديقي

- اكشف أوراقك يا سيد (مؤيد) وأعدك بكشف أورافي.

- حسناً.. (صابر) أتى لمصر ليصل للملك الجهن الثامن.

- لا شيء بهذا الاسم، هي أسطورة وأنت تعلم ذلك علم اليقين.

- ليس المهم اسمه، الأهم هو أن هذا الشيء يتحرك في مصر، الغرفة النحاسية بالسلطنة التققطت تلك الحركة، وبالتأكيد غرفتك أخبرتك بذلك، وتزامن هذا مع حوادث قتل السحرة، كانت نية جماعتنا في الماضي قتل هذا الكائن.. أما الآن فقتل المتحكم فيه من أولوياتنا، وأنت تعلم من هو وتستره عليه.. حان دورك في كشف الأوراق.

هرش (عبداد) في شعره وهو ينظر لابنه يطمئن عليه ثم قال:

- أنا أعلم عن هذا الكائن، وأعلم من يحركه، وبالمقابلة هو لم يقتل السحرة به، لكنني لن أسمح لكم بالاقتراب منه.
- تحميء إذا.

- أحبي ولدي

التمعت عين (مؤيد) وهو يقرب رأسه من (عبداد)
ويمس:

- هل تلقيت تهديداً؟

لم يجب (عبداد) وظل ينظر لطه فقال (مؤيد):

- أحبني وأقسم لك بأننا سنحمي ظهرك.

- (صابر) عند مجئه لمصر أخبرته بخوفي على ولدي لكنه أكمل طريقه.

- ألا يستحق أن نتعاون معًا لوقف سلسلة القتل الغريبة هذه!!

- الكائن لا يقتل السحرة.. الذي يتحكم فيه هو من يقتلهم، الموضوع أعقد مما يتصوره عقلك، هذا الشاب يتقم من السحرة عن طريق الإيقاع بينهم وبين جماعة منشقة من الصوفية تستخدم الجن.

- لكن الملك الثامن هو من قتل عائلة (صابر) أليس كذلك؟

ارتفع صوت (عبداد) فجأة بسبب انفلات أعصابه:

- فالنتركم ينهي ثأره وهو وعدني بأنه سيتعد.. كان بيدي أن أخبر المتحكم في الكائن أن عائلة (صابر) لم تمت كلها، وأن (سليم) يطارده لكنني خفت عليه، صدقني ولدكم يلعب بالنار التي ستحرق الجميع.

- أنت من تلعب بها معتقدًا أن الحياة ستصبح أفضل في المستقبل، دعنا..

قاطعه (عبداد):

- انتهى حديثنا، أخبرني بقرارك الآن لأنتحرك على أساسه.

نظر (مؤيد) لطه هو الآخر ثم التفت لعبداد وقال:

- سأحاول كبت (سليم) الفترة القادمة، لكن هل تتواصل مع هذا الذي يتحكم بالملك الثامن؟

- هو من يتواصل معي، لا يقبل بأن يزوره (الجسas)،
قوته أعلى منا جمِيعًا لكنه لا يطلب إلا، وأن يترك في حاله.
- ومقتل (صابر)؟

- كان خطأ منه يندم عليه، والكافر هو القاتل لامن
يتحكم به.

- إذاً يبقى الوضع على ما هو عليه، (سليم) سيبعد قليلاً
مع وعد منك بعدم أذيته.
- أعدك.

نظر (مؤيد) لطه الذي بدأ الملل يظهر جلياً عليه وقال:
- رجل واحد يخيف الجميع ويُجبرنا على الخضوع، ولا
نملك إلا أملاً في أن يتركنا الحالنا.

- أستاذ (فتحي) يحبك يا (سليم).
فأها (أحمد) راسماً ابتسامة صفراء على وجهه، كان يلعب
دور حمام السلام بين الجميع مع قليل من دور الأب والرجل
الصالح، هذا اليوم بعد عودته من عمله طلب من (سليم)
أن يأتي للشقة ليتناول الغداء، وطبعاً حضر كل شيء قبلها
ليفاجأه هذا الأخير عند دخوله بأستاذ (فتحي) جالساً
بالبيجامة والشبشب واضعاً قدمَاه على الأخرى وسيجارة
تتدلى من فمه، وبجانبه (بودي) يجلس راسماً كل تعبيرات

الملل الممكنته على وجهه و(فتحي) يسأله عن أحوال الدراسة والتعليم و(بودي) يجيب عليه بكلمات قليلة.

جلسة صلح مرتبة أو لنقل أنها جلسة لإجبار (سليم) على الصلح، فها هو يجلس على أريكة قريبة وبجانبه يجلس (أحمد) يقول بتحمس:

- أنا لا أعلم سبب الخلاف بينكم يا (سليم).

- قل له يا أستاذ (أحمد).

قاها (فتحي) مؤمناً على كلماته و(أحمد) يكمل:

- أستاذ (فتحي) في مقام والدك.

- قل له يا أستاذ (أحمد).

- وإن حدثت بينكما مشادة يوم وفاة العائلة..

- قل له يا أستاذ (أحمد).

نظر (أحمد) بطرف عينيه لفتحي الذي يشيع بنظره بعيداً يمثل الضيق والكرياء:

- أنا كنت سأكمل، أعطني فرصة يا أستاذ (فتحي).

- قل له يا أستاذ (أحمد).

كتم (بودي) ضحكته متطلعاً لسليم الجالس يفرك عينيه ملأاً و(أحمد) يقول:

- كانت لحظة دخل فيها الشيطان بينكما، أنتم جيران وأحباب ووفق الله الجميع.

كلمات (أحمد) ذكرت (سليم) بالأفلام المصرية التي أحب مشاهدتها، وكأن (أحمد) جمع بعض العبارات النمطية والصقها بجانب بعضها البعض لا تحمل أي خاكس منطقى.

- وما المطلوب؟

قالها (سليم) فعاجله (أحمد) بسرعة:

- أن تعذر للأستاذ (فتحي) وتقبل رأسه.

- اعتذر أنتي دفعته وسقط أرضا؟؟

زفر (فتحي) دخان السيجارة من فمه بحرقة و(أحمد)

يقول مهدئاً الأمور:

- لن نفتح التفاصيل، المهم أن تعذر له لتعود المياه لمجاريها.

نهض (سليم) مثاقلاً، وانحنى وهو يغمز بعينيه لبودي ويقبل رأس (فتحي).

- أنا آسف يا أستاذ (فتحي)، حرقك على رأسى.

هز (فتحي) رأسه بكرياء وقال كأنه يغفو عنه:

- سامحتك.. وإن كانت الأصول أن تعذر لي أمام كل سكان العماره، أنا لست صغيراً لفعل ذلك.

نهض (أحمد) هو الآخر ليقبل رأس (فتحي) قائلاً:

- وأنا اعتذر لك لترض عن (سليم).

- العفو العفو يا أستاذ (أحمد)، لكن على (سليم) أن

يستمع للنصححة ويعلم بأننا أهله ونحبه.
- حاضر.

فالماء (سليم) بنفاذ صبر فأكمـل (فتحي) بطريقـة أبوـية
مـفعـلة وـهـو يـسـحب نفسـا من السـيـجارـة:
- وـعـلـيكـ يا بـنـيـ أـنـ تـتـبـهـ لـدـرـوـسـكـ وـمـذـاكـرـتكـ وـأـنـاـ بـنـفـسيـ
سـأـتـابـلـكـ بـجـانـبـ الـأـسـتـاذـ (أـحمدـ).
- حـاضـرـ.

- تدخل (أحمد) لينهي الموضوع بطريقة بلياقة.
- أستاذ (فتحي).. بعد صفاء النفوس ما رأيك أن تتغدى معًا، سأعد الغداء الآن.
- لا لا لا.. بألف هناء وشفاء، زوجتي تنتظرني على الغداء والأيام القادمة كثيرة.

نهض وهو يطفئ السيجارة في مطفأة سجائر قرية وغادر الشقة و(أحمد) يحمله السلامات، بينما (سليم) يقول وهو يعاود الجلوس:

- هذا الرجل ثقيل على قلبي.
- لا تقل هذا يا (سليم)، أستاذ (فتحي) في عمر والدك، لا تغضب منه فهو طيب القلب وما في قلبه يخرج على لسانه.
- إن خرج ما في قلبي على لساني لأصبحت قليل الذوق.
ابتسم (أحمد) بطرف شفتيه وهو يتوجه للمطبخ قائلاً:

- لا فائدة من إقناعك.. على كل لم يبق إلا نصف ساعة
على طعام الغداء، انتظراني هنا وشاهدوا التلفزيون
قال (بودي) فجأة:

- العب معي بنك الحظ يا (سليم).
- بشرط أن أمسك البنك والنقود تكون في يدي أنا.
- موافق.
- وألا تتهمني بالنصب.
- موافق.

فأها (بودي) وهو يجري ليحضر لوح اللعب والكرات
ويضعها على طاولة الطعام التي جلس عليها (سليم)، مرت
دقيقة من اللعب قال (بودي) فجأة بعدها مثيراً إلى خانات
اللعبة التي كتب عليها أسماء عواصم البلاد العربية:

- أين هي بلدك وسط تلك البلاد؟؟
- هذه ليست أسماء بلاد بل محافظات يا (بودي).
- أريد الاعتراف بشيء.
- ٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩

نظر (بودي) حوله ببرية ثم قال همساً جملة لم يسمعها
(سليم) الذي اقترب منه وطالبه بإعادة ما قال.

- عدت أرى الأشياء المخيفة بالأمس.
- ضحك (سليم) بسخرية وهو يقول:

- لم أعد أتفاجأ فحتى ذلك الأمر لم أستطع منحك إياه.
- لكنني اليوم لم أر شيئاً.
- أعاد (سليم) ظهره لمسند المبعد وقال بضجر:
- أتحب أن أحاول إغلاق الرؤية ثانية؟
- لا، لم أعد خائفًا، ولن أخبر أحدًا، لكنك وعدتني بأن تجibني على أي سؤال أسأله.
- نعم.. لكن هنا مكان غير آمن، في شقتي سأجيبك على كل شيء.
- سؤال واحد أجبنني عليه هنا.
- تفضل لكن اخفض صوتك.
- كيف تعرفت على عموم (صالم)؟
- قالها (بودي) بصوته الخافت فابتسم (سليم) وهو يقول بهدوء:
- القصة طويلة، لكن على كل والدي وأخي عرفوني عليه.
- كيف تعرفت عليه؟ وكيف صادقته؟
- أنت قلت سؤالاً واحداً.
- عين (بودي) المتسائلة جعلت (سليم) يقول:
- حسناً.. كنت أكبر منك بقليل، جلس والدي معه جلسات كثيرة يخبرني فيها عن عالم الجان، أثار شوقي وخيالي

وتخفيت أن أراهم، وفي يوم أحضرني وحدي لأقف أمام المرأة في غرفة نومه، قال لي «هناك صديق يريـد أن يتعرـف عليك فلا تخـف منه فـمظـهره مـختلف عـنـا»، وأمام المرأة أمسـك بي والـدي ورأـيت صـورـتي في المرأة تـبـدلـ، كان وجهـي يـتحولـ وجهـهـ (صـالـمـ) بالـتـدـريـجـ.

صمتـ (سلـيمـ) مـبـتـسـماـ لـنـفـسـهـ وـهـوـ يـتـذـكـرـ:

ـ وماذا فعلـتـ؟.. أـكـمـلـ...

ـ لمـ أـفـعـلـ شـيـئـاـ سـوـىـ الـصـرـاخـ خـائـفـاـ وـمـحاـولـةـ الفـرارـ.

ـ ولكنـ أـبـيـ لمـ يـفـعـلـ معـيـ ذـلـكـ، فـلمـ رـأـيـتـ عـمـ (صـالـمـ)!!

ـ فـكـرـ (سلـيمـ) لـشـوـانـ وـقـالـ كـأـنـهـ يـخـاطـبـ نـفـسـهـ:

ـ لاـ أـعـلـمـ.. فـتـحـ رـؤـيـةـ شـخـصـ مـسـأـلـةـ صـعـبـةـ وـمـرـهـقـةـ، وـلـاـ تـحدـثـ صـدـفـةـ إـلـاـ نـادـرـاـ، وـأـنـاـ أـغـلـقـتـهـاـ لـكـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـةـ.. كـأـنـ أحـدـهـمـ يـفـتـحـهـاـ لـكـ.

ـ التـفتـ إـلـىـ (بـودـيـ) يـقـولـ:

ـ بـمـ تـشـعـرـ عـنـ دـفـتـحـ الرـؤـيـةـ؟

ـ تـقـصـدـ عـنـدـمـاـ أـرـاهـمـ؟

ـ نـعـمـ.

ـ أـشـارـ (بـودـيـ) لـرـأـسـهـ وـقـالـ:

ـ أـلـمـ قـويـ يـأـتـيـنـيـ هـنـاـ يـسـتـمـرـ وـقـتـ ثـمـ يـخـتـفـيـ، أـرـىـ بـعـدـهـاـ تـلـكـ الـأـشـيـاءـ.

- تصف فتح الرؤية بشكلها الطبيعي الذي أعلمته.
جرس الباب أتى فجأة ليفزع (سليم) وكأنه أخطأ في شيءٍ
يُبيّن ما أتى (أحمد) من المطبخ ليفتحه، خلف الباب كان (مؤيد)
يَتَسَمُ بطريقته الودودة وهو يحمل حقيبة سفر.

三

الكثير من المدايا أخرجها (مؤيد) من حقيقة السفر
أعطها لأحمد، أما الألعاب التي أحضرها معه لبودي فقد
أطارت عقله من الفرحة، تناول الجميع الغداء في أجواء
أسرية من الترحيب بالزيارة والأقسام الغليظة التي أطلقها
(أحمد) لاجبار (مؤيد) على المبيت بشقته والتي رفضها بأدبٍ
لأنه مضطر للسفر الليلة وجاء للاطمئنان على (سليم).
بعد ساعة من شرب الشاي والقهوة اتجه (مؤيد) لشقة
(سليم) مصطحبًا إيه.

- اتفقت مع (عبد) على كل شيء.

فالمأمور (مؤيد) وهو يلقى بجسده على الأريكة و(سليم)
يقول بغضظه:

- هذا المأفوون جاءه ليهدننا و يقول أنك اتفقت معه.

- تحدّث بأدب ولا أدبتك.

ابتلم (سلیم) ریقه بصعوبه وقال:

-آسف پا عمی، لکنک لم تر کیف هددنا.

- لم يهدد جماعتنا، كل ما أراده أن تبتعد خوفاً عليك.

غزا البرود ملامح وجه (سليم) وهو يقول:

- إذًا فقد أتيت لطلب مني فعل ما تمناه (عباد).

- لا.. أطلب أن تسير على إرشادي.

- وما هي؟

- لا تنكر أنك متهرر، وربما فعلت أنا ما تفعله لو كنت في مثل عمرك، ستفعل ما أطلبه منك بلا مناقشة لأنه في مصلحتك وفيه راحة قلبك.

- وإن رفضت؟

- لن ترفض لأنك تعلم في قرارتك نفسك، أني أطلب ثأرك وأبيك ولن أتهاون فيه، لكنني في جلستنا هذه أمثل العقل وأنت تمثل المشاعر، فاستمع للعقل كي نصل هدفنا.

- تفضل.

- نحن نواجه قوة لا قبل لنا بها وإن أردنا النصر فعلينا بفهم عدونا وجمع المعلومات عنه حتى لو اضطررنا للانتظار سنوات.

بعدم اقتناع قال (سليم) مغمضاً:

- نعم نعم.

- ستوقف كل نشاطك في مراقبة السحررة مؤقتاً واتركهم يموتون إن لزم الأمر ذلك، واهتم بإخفاء نفسك مؤقتاً،

وسأرسل لك (يوسف) أحد رجالي لراقب هو ويجمع المعلومات.

- و(يوسف) طبعاً أفضل مني.

- لا تكن غبياً كعهدي بك، أنا أقبل بالتضحيّة به لكن أنت لا، (يوسف) سيبلغك ويبلغني بكل ما يستطيع الوصول له كي تجهز لقاتل عائلتك.

- هل سيقتله؟

- لا لن نقتل أحداً قبل الوصول للملك الثامن فلا أضمن إن قتلت الذي يتحكم به أن لا يتحرر هذا الشيء ويقتل الجميع إن لم يكن له سيد.

- أنت وأبي وأخي تبحثون عن شيء لا أفهمه.

- القصة قديمة يا (سليم)، بدأت من مصر في عصر الملائكة، ما وصلنا منها شحیح سمعناه شفاهة من سبقونا في الجماعة.

- لم يخبرني والدي بأصل قصة الملك الثامن.

- الحكاية بدأت برجل يسمى (إبراهيم بن غراب).
قفز اسم (غراب) في عقل (سليم) لشوان يشعر بأنه سمعه في وقت قرير، حتى تذكر مفزوغاً لكنه حافظ على هدوئه وهو يقول:

- اسم غريب، ما علاقته بها يحدث.

(4)

١٣٨٥ م - القاهرة - مصر

بحارة (المشهد) بالقاهرة تحركت الجمال في طابور طويل ينادي حاديهما بالناس أن يبتعدوا عن الطريق، رجل يحمل مبخرة يدور على الدكاكين ينادي بأدعية يحفظها، باعة ينادون على تجارتهم، شرطي يحمل دورق ضخم من العرقسوس يثبته على خصره.

اخترق (ماجد) الزحام متوجهًا إلى حانوت (ناصر) الجالس على بابها يتأمل الرائق والغادي بلا اكتتراث ويجانبه ابنته ذات العشرة أعوام تلعب بدميتها على مقعد صغير.

- كيف حال شاهيندر التجار اليوم؟

قالها (ماجد) وهو يواجه الحانوت فتأمله (ناصر) كأنه يتذكره.

- نورت المحروسة يا (أبو فضل).

ضحك (ماجد) وقال:

- وعلمت أني تزوجت وأنجبت، أراك تترصدني مثل سابق عهديك.

- أحببت الاطمئنان عليك، وأنت أيضاً أرسلت عيونك
تابعني.

- أحببت الاطمئنان إليك.

- وهل الاطمئنان إلى يكُلُّف سنتين وأكثر، قلت لنفسي
إنك لن تشق بي.

- ومازالت..

ثم نظر (ماجد) إلى الطفلة وقال:

- هذه (فاطمة) أليس كذلك؟

- نعم.. ابتي الصغرى، وشقيقها الأكبر (علي) كما
علمت أنت بالتأكيد.

- عظم الله أجرك في أمها، علمت أنها ماتت منذ شهور في
آخر شوطة ضربت المحروسة.

- لكل أجل كتاب، وددت لو أجلستك معي لكن العيون
تحيط بك دائمةً

- أعلم وإن لم أرها، ما رأيك في مقابلتي الليلة، نصلي
العشاء في جامع الإمام الشافعي كي أخلص من أي عين
ترقبني.

- اتفقنا وإن كنت أتمنى أن يكون خيراً.

- سترى بنفسك.

انتهى إمام المسجد من الصلاة و(ماجد) يسلم على من يجاوره وعيناه تدوران حوله يتفحص المصلين حتى وقعت على (ناصر) الذي كان ينظر له هو الآخر، نهض (ماجد) واقترب من (ناصر) وهو يقول بصوت خافت:

- اتبعني بمسافة.

غادر المسجد متوجهًا للمغارات المقطرة و(ناصر) يتبعه كي يتأكد من عدم ظهور عيون (محمد)، قل عدد الناس بالتدريج حتى أصبح (ماجد) يسير وسط الصحراء والمغارات في عتمة الظلام و(ناصر) يسع من خطواته ليلحقه بعد أن بعثت المسافة بين الاثنين.

مرت نصف ساعة حتى اندهش (ناصر) من أفعال (ماجد) الذي توقف فجأة بجانب إحدى المغارات داخل الجبل وأشار لناصر قائلاً:

- اقترب، فنحن في الأمان.

حرك (ناصر) رأسه من حوله حتى توقفت عيناه على جزء من الأرض أمام (ماجد)، دقق (ناصر) أكثر في ذلك الجزء بعينيه كأنه يرى شيئاً و(ماجد) ينظر هو الآخر لذلك الجزء ثم يرفع عينيه لناصر ويقول:

- هل ترى شيئاً غريباً؟

ابتسم (ناصر) بثقة واقترب من (ماجد) حتى وصل للبقة التي كان يحذّق فيها منذ قليل، فجأة تخلخت الرمال

بتلك البقعة وخرج منها عشرة ثعابين متوسطة الطول سوداء اللون، توقف (ناصر) والثعابين تدور من حوله راسمة في الرمال دوائر غير منتظمة حتى انتصب بعضها متخفزاً، وظل البعض في حالة الدوران المترقبة حول (ناصر) الذي حدق بها وهو يتنفس بصعوبة لكنه سيطر على افعاله عندما نظر إلى (ماجد) هادئاً.

- لماذا نظرت لهذا الموضع قبل أن تقترب مني؟ هل كنت ترى شيئاً؟

لم يجرب (ناصر) فأكمل (ماجد):

- أترى الجن يا (ناصر)؟

أحد الثعابين اقترب من حذائه، ومرّ من فوقه و(ناصر) يقول بنبرة ساخرة:

- مثلها تراهم.

- بعد تلك السنوات أسألك ثانية من أنت؟

- أنا (ناصر بن دوام).

- بحثت وراءك وفاجأني أنك لا تشير الشك، لا تشير الشك لدرجة أثارت الشك بداخلي، تعرف أكثر مما يجب على من هو مثلك معرفته، حتى الجن أرسلتهم وراءك والتוצאה لا شيء.. سوى شيء واحد.

التف أحد الثعابين على قدم (ناصر) اليمنى و(ماجد) يقول:

- جسْدُك مشوئٌ مليء بالجروح وأثار الّكي بالنار، قرينة
يقول إنك لست جندياً ولا محارباً، حتى قرينة لم يذكر أيَّ
شيءٍ غريب يتعلّق بحاضرك، كأنك لفته كل ما تريده.. لو
أضفنا لذلك عدم خوفك من الشعابين سأصل لنتيجة غير
مرضية، وهي أنك خطير علىَّ، قُل لي ما الذي يمنعني من
قتلوك؟

- تقتلني بهؤلاء!!!!!!
قالها (ناصر) وأشار للشعابين المتحفزة وأكمل:

- لكنهم جن تحول لشعابين.

- جن يحمل صفات الشعبان ولدغته السامة.

- لن تستطيع قتلي بهم ولا بغيرهم.

- تحرك من مكانك وسترى بنفسك.

خطا (ناصر) خطوةً واحدةً للأمام فانقضت الشعابين
مجتمعة بسرعة شديدة لتلذغ قدميه، لكنه أحسى ظهره والتقطع
أحدهم وقرب رأسه من كف يديه.. لذغ الشعبان كف اليد
مُصلِّداً فحيحاً غاضباً، (ماجد) رفع يده صارخاً ليوقف ما
يحدث لكنه تسمّر في مكانه وهو يرى (ناصر) يرفع كفه في
الهواء ويقول:

- لدغات الشعبين لن تخترق جلدي.

أكمل خطواته وهو يدهس بقدمه أحد الشعبين و(ماجد)
يقول صارخاً في الشعبين:

- عودوا لمكانكم.

انسحبت طاعة لأمره و(ناصر) يلقي بالشعبان الذي لدغه بكفه بعيداً ويقترب أكثر من (ماجد) قائلاً:

- لا أرى داعي لتخويفي بتلك الطريقة كي تعرف من أنا، أسأل وأنا أخبرك.

- أخبرني بكل شيء.

- حسناً.. أنا حامل دم جدك (غراب) على كاهلي، وذنب سجن أخيك في طباق القلعة.

- الكثيرون يحملونه.

قاما وجلس مفترشا الرمال فاحتذى (ناصر) حذوه وهو يغمغم :

- كنت في مثل عمرك ترثيأ عند هجوم (القبارصة) على (الإسكندرية)، انتقل الخبر للمحروسة سريعاً، كلفت من قبل الغرفة النحاسية بالتوجه للإسكندرية بأسع وقت، وأعلم أنك لا تعرف ما هي الغرفة النحاسية لذلك سأاخ... قطع (ماجد) عبارته بهدوء وهو يحدق في ظلام الصحراء ويقول:

- غرفة صُنعت من سبيكة من النحاس والكريات والحديد وعناصر أخرى، غلّفت بطلاسم لا يعرفها إلا صانعيها، داخل الغرفة مئات من الرموز معلقة على جدرانها

متصلة ببعضها البعض، تتحرك الرموز بانتظام معتمدة على علم الحيل الميكانيكية، رموز وتماثيل وصور لقبائل الجنان والعفاريت في كل بقاع الأرض، إن تحركت إحداها يعني أن شيئاً ما يحدث في عالم الجنان أو البشر أو كلاهما، للغرفة سيد يحكمها ويقرأ رموزها ويتحكم بها، وخدم من الجنان يكتسب قدرات خاصة عند انسجامه للغرفة، يلقب بالجسas، الغرفة لا يعرف مكانها البشر ولا يراها الجنان، فإذا استدعي سيد الغرفة جنباً لها تصبح كميناً قاتلاً.. هل أكمل لك أم اكتفيت يا (ناصر)؟

لم ينطق (ناصر) وإن ظهرت بعض سمات الابهار على وجهه برغم الظلمة، فأكمل (ماجد):

- سيد الغرفة التحاسية له مهمة واحدة وهي منع تداخل عالمنا بعالم الجنان عن طريق مراقبة الجميع، للغرفة إرادة خاصة فعند موته تختار هي من يصلح من نسله أو أي شخص غريب يعرض نفسه عليها، أنت لست سيد الغرفة فمن تكون لتتكلف منها بالذهب للإسكندرية؟ اتسعت ابتسامة (ناصر) وقال:

- معلوماتك ناقصة، للغرفة خادم من الجنان وهو (الجسas) وخدم من البشر وهو أنا.

- وكيف لا تؤثر فيك لدغات الثعابين؟!!

- قدرة تمنع أي شيء من اختراق جلدي.. أنياب.. معادن.. حتى طلقات النقط لن تكسر عظمي.

- لا شيء مُحصّن للنهاية.

- لي نقاط ضعف لكن لا يعلمها غيري، من صناعي
ماتوا وقربي تحيت سسيطرني فلا مدخل لقتلي بسهولة.

- السُّم يؤثُر فيك، أم حصلت معدتك هي الأخرى؟

ضاحك (ناصر) وقال:

- أتريد قتلي؟

- لا أعرف بعد.

قبض (ناصر) حفنة رمالي من على الأرض تأملها وقال:

- سيد الغرفة رأى شيئاً غريباً يتحرك في الإسكندرية،
(الجسas) لم يستطع رصده أو رؤيته، شيء ليس من عالمنا
أو عالم الجان الذي نعرفه، كان هذا في اليوم الأول للحملة
الصلبية، كل الدلائل في الغرفة أشارت أن هذا الشيء مهاجم
ولم يأت مع القبارصة، لكن من سيهاجم؟ نزلت بالإسكندرية
وقت هروب أهلها منها وانضممت لرجال المقاومة الذين
نظمهم جدك وبعض الأعيان، حتى رأيت السيد (غراب)
يتحكم في هذا الشيء.

- ماذا رأيت؟

- أنا أرى الجان طوال الوقت، عندما تراهم يهربون من
الإسكندرية خائفين فأنت أمام حدث ليس له مثيل، في اليوم
الثالث انطلق هذا الشيء يقتل بجنون، رجال ونساء تحترق

أجسادهم بلا مصدر للنار، جنود (القبارصة) يتمزقون وتناثر دمائهم في الشوارع، رأيت (غراب) يحاول السيطرة عليه بلا جدوى.

- ما هيئه هذا الشيء؟

- شيء يأتيك في الكوايس فقط، ليس له هيئه واحدة، هل هو بجسد إنسان؟ هل له ذيل حيوان يتحرك؟ أيمتلك رأسًّاً سديًّاً، لا أعلم كيف أصفه، كأنه تمثال عملاق من تماثيل الفراعنة في صعيد مصر، أو كأنه كل تماثيل الفراعنة المخيفة في جسدٍ واحدٍ، الخوف والرعب تملّكاً مني وقتها بلا قدرة على مواجهته.

صوت أنفاس (ناصر) المتسارعة وتهيج صوته وصلا إلى (ماجد) الذي قال:

- هل أتيت (الإسكندرية) لترصد ألم لتواجهه.

زاد انفعالُ (ناصر) وارتفع صوته قائلاً:

- أتطلُّب مني أن أرى تلك المقتلة العظيمة أمامي ولا أتحرك؟

- وماذا فعلت؟

- قلت لك جينت، أتريدني أن أصرخ بها، خفت ككل البشر، لم أواجهه، عدت أدراجي للمحروسة أجرِّ أذى الْخَيْةِ والعَيْرِ، قصصت على سيد الغرفة ما رأيت وكلفني ثانية بمهمة أفل خطورة.. أن أتواصل مع الأمير (برقوق

اليلبغاوي) بدون أن يرى وجهي وأبلغه بما فعل (غراب)، كان السلطان وقتها مجرد أمير شاب له صلة بخاصة السلطان المقربين من مجلسه، أو عز لهم بتحميل (غراب) مسؤولية خراب (الإسكندرية) ليتخلص منه ووافقه في ذلك الجميع وإن لم يعلموا بأنه خاف من بطشه وبطش ذلك الكائن.

- كيف تواصلت مع (برقوق)؟

- (برقوق) يؤمن بالروحانية والسحر ومخاطبة الأفلاك والرمال، هناك رمال مشعوذ يأخذ برأيه ومشورته منذ شب على الدنيا، هذا المشعوذ صديقي أزوده ببعض الأشياء وينفذ هو طلباتي، هو من تولى إخباره.

- ما تحكيه من حوادث في (الإسكندرية) هو أسطورة نسيها العامة.

- نسيتها واجب على الجميع، حتى أنا نسيتها بعدما ابتعدت عن الغرفة النحاسية.

- ابتعدت بكل تلك البساطة!!

- رجل يملك ما أملك لن يراجعه أحد في قراره.

نهض (ماجد) وهو ينفض الرمال العالقة عن ملابسه ويقول:

- لا أصدق أكثر مما قلت، قصتك غير مكتملة، مليئة بالثغرات.

- (برقوق) أمرَ بأخذ أخيك كرهينة خوفاً منك، والسبب المعلومات التي وصلته مني قديماً.

قال (ناصر) كلّاته وهو ينهض ويقف مواجهًا (ماجد) الذي قال ببرود:

- وما تكفيك عما فعلت؟

- أنقذ أخيك وأحم ظهره، لي معارف في إسطبلات الخيول السلطانية، يزودون طبقة (الصنديقة) بخيوط التدريب، يمكنني أن أهربه من الطباق وأوصله لأي مكان تطلبه. ترجل (ماجد) بخطوات بطئه و(ناصر) يسير بجانبه.

- تهريب أخي ليس خدمة تقدمها، قل لي، هل ما زال المشعوذ الرّمال صديقك على تواصل مع السلطان (برقوق)؟
- ما زال منجّمه الخاص ويثق برأيه.

- سأضع ثقتي بك في حالة واحدة.. اطلب من المشعوذ أن يقنع السلطان بأن بيته أخي خارج الطباق كل ليلة وفترة مساعدة كل بضعة أشهر.

- ما الذي سيقوله المشعوذ بالتحديد للسلطان؟

- أي شيء من أمور الاحتيال التي يجيدها، المهم أن تنفذ طلبـي.

- سأفعل ما بوسعـي.

- تذكر يا (ناصر) أنتي حتى الآن لم أعرف غرضـك

ما تفعل، لا أصدق حكاية التكفير عن الذنب هذه لكن
سأعرف يوماً ما.

- أما أنا فأعرف طلبك خروج (إبراهيم) كل ليلة من
الطبق، تريد أن تدرسه.
نظر (ماجد) له بطرف عينيه وأكمل المسير.

ساحة طبقة (الصنديقية) تعج بالأمراء المعلمين والتلاميذ
المراهقين، تراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة
إلا (إبراهيم) ذا العشرة أعوام والذي ينطح طوله بقية أقرانه.
كان الطواشى (صندل) قد نقله إلى الدرجة التدريبية الأعلى
منذ عام متخطياً الكثير من قواعد الملك، تعلم فيها ضرب
السيف، وضعوا له حائطاً من الطين المعجون وأمسكوه
سيفاً خفيفاً ليضرب الحائط كل يوم مائة ضربة، زادت بعد
أيام لتصبح ألف ضربة، تألم الصبي لكنه سكت، كان في
سباق دائم لإثبات جدارته.

حتى إنه في تدريبات ركوب الخيل وقع عشرات المرات
بلامبة، وأصيب بجروح لا حصر لها، لكنه صمم على
تنفيذ التدريبات، فامتنعه حصان بلا سرج والتحكم فيه كان
غريباً على غير الملك لكنه مطلوب في تدريباتهم.

ملاحظات أستاذته ومديريته أنه ليس أفضل من أمسك
بالسيف والقوس والنشاب، ليس أليق من اعتلى الفرس،

لكنه الأكثر إصراراً من الجميع، وهي ملاحظة جديرة بالجمع بين شيئين في نفس سامعها، الشيء الأول هو الإعجاب والثاني الشفقة، وتظل الآراء حوله بين هذا وذاك، وخاصة مع معرفة أنه مصرى ومع ذلك استطاع تعلم لسان قبائل الترك والشراكسة وبعض من لغة الكرد المنضمين للملائكة.

هل أحبه الجميع؟ القول واضح في تلك المسألة، نعم الجميع يحبه لكن يخشون شيئاً ما فيه.. لا نتكلم هنا عن هيبة أو هالة من القوة، بل خشية من حكاياته الغريبة، السلطان أوصى بتربيته كمملوك ومن وقت لآخر يسأل عن أحواله بحذر لا بحب، الأمير (محمود السوداني) الذي يعلو اسمه سريعاً في وظائف الدولة يوصي عليه الجميع ويزوره أسبوعياً في سابقة هي الأخرى الأولى وربما الأخيرة بأن تفتح أبواب الطلاق لأي زيات خاصة.

شقيق (إبراهيم) هو الآخر يأتي كل بضعة أشهر ليطمئن عليه، كلها أشياء تصنع الغموض على الصبي ويصبح معها الاقتراب منه درباً من الجنون حتى بالنسبة لأقرانه من الملائكة، يعاملونه بحب لكنهم يصنعون سوراً بينهم وبينه، حتى هو فهم ذلك مع الوقت وقبل بالعيش وحياناً بلا أصدقاء.

يقف الآن أمام الأمير (تمراز الناصري) معلم الرمح الذي يؤدي حركات هجومية والتلاميذ يتبعونه وهو يمر عليهم

واحدًا تلو الآخر ليتأكد من أوضاع أقدامهم، بباب الطبقة يفتح ويدخل الأمير (محمود) على ظهر حصانه وبجانبه (ماجد) بملابس المدنية يركب فرسًا يشد لجامه بنوع من الزهو وكأنه يكيد للمالك عندما يدخل معقل تدرييهم.

توقف الجميع وصافح الأمير (قراز) (ماجد) بنوع من الفتور بينما هلت أساريره مع (محمود) الذي كان خشدا شه قدieraً.

- ما أخبار مماليك السلطان وفخر الدنيا والدين؟
امتلاً التلاميذ بالزهو من كلمات (محمود) الذي يلقي عليهم نظرات الإعجاب المصطنعة ليحسن نفسيتهم، بينما (قراز) يقول:

- طبقة (الصدليّة) تخرج أفضل رماحين المملكة، أتحب أن تراهم في الاشتباكات؟

- في وقت آخر آتوك لأشاهد المقاتلين، أما الآن فأستأذنك في (إبراهيم بن غراب).

- هو طوع أمرك بعد إذن كبير الطواشية، كل ما أرجوه أن يعود بسرعة ليكمل التدريب.

- لن يعود قبل زمن، أوامر السلطان.

الكلمات تحمل معنى خفيًّا أفلق التلاميذ وأرعب (قراز)، ناهيك عن (إبراهيم) الذي ارتجف رمحه بيديه و(محمود) يشير له ليتبعه لمبنى الإدارة، ألقى (إبراهيم) برمجه وجرى

وراء (محمود) و(ماجد) اللذان ترجلوا من على فرسيهما
يقصدان مبنى الإدارة.

- من الليلة يا (محمود) تبقيت عندي في منزلي مع عماليكى،
ولك مسامحة شهر تقضيه مع أخيك في المحرose من اليوم،
والليل تعود لداري.

قال (محمود) عبارته وهو يسير بخطوات سريعة و(ماجد)
ينظر لشقيقه المرتبك ويبتسم.

جلس (إبراهيم) على طرف الفراش الصغير في ذلك
الفندق الرخيص في حارة القصاصين، ويجانبه جلس (ماجد)
مرتبكًا متأملًا أخيه، كان قد خرج بالأمس من الطياب لأول
مرة منذ سنين ويشعر بالقلق من كل شيء.

نام وسط عماليك (محمود) في مبنى صغير ملحق بحدائق
قصره، وفي الصباح أتى (ماجد) ليأخذه لذلك الفندق، وها
هو جالس بجانبه صامتاً.

- من اليوم سألفُ بك المحرose لترها.
- حسناً.

قاما (إبراهيم) باقتضاب، ربت (ماجد) على كتفه بحنان
وهو يقول:

- هل أنت سعيد بالتغيير الجديد؟

- سعيد.

- لا يظهر عليك.. قل لي.. هل تعتبر نفسك ملوك؟

- لا، أنا مصرى.

ضحك (ماجد) وهو ينظر أمامه ويقول ساخراً:

- الحقيقة أننا كلنا ممالئ عند من يعتلي عرش مصر،
ولكتنا ممالئ أقل طبقة من المماليك السلطانية.

لم يفهم ما يرمي إليه (ماجد) فقال بشكل آلي:

- حسناً.

تنهد (ماجد) وعاد للنظر لأخيه قائلاً:

- عهدت فيك الاحتفاظ بالأسرار وإنك لعمري لأفضل
مني في ذلك.

هز (إبراهيم) رأسه بالإيجاب بلا أي تعبير على ملامحه.

- سأعلمك في السنين القادمة أشياء تعلمتها من والدك
والذي تعلّمها بدوره من جدك، أشياء كثيرة تخص عائلتنا
وغير مسموح أن يعرفها أحد حتى خشداشك.

نظر (إبراهيم) له راسماً تعبير الدهشة على وجهه لأول
مرة فأكملاً (ماجد) مبتسماً:

- ألم يعلموك أن تقدس صلة الخشداشية داخل الطبقة؟

- نعم.

- أنت مصرى، تذكر ذلك في أعمق جزء داخلك، مصرى

أبا عن جد، مصرى حتى آلاف السنين حتى ولو دخل في
نسلنا غير المصريين.
- حسناً.

- وأول ما استعرفه في تاريخ أجدادك هي حكاية قديمة
قدم الزمن، من آلاف السنين بمصر عاش أجدادنا
مزارعين وصناع وبنائين، حتى نزل عليهم وحش بروفوس
متقلبة كرؤوس الحيوانات وجسد ك أجساد البشر.

- من أين أتى؟

رفع (ماجد) إصبع يده يشير إلى السماء وقال:

- يقولون هبط من الأعلى.

- ملاك؟

- لا، شيئاً آخر، كائن لا وصف له، لقبوه بـ(سخم)، لا
ذكر ولا أنسى، لا بشر ولا جن، لا ملاك ولا شيطان، عاث
قتلاً وذبحاً وحرقاً في المصريين لأيام طوال، كاد أن يردم نهر
النيل بالجثث وتروي المزارع بالدماء، قالوا عن هذه الأيام
أنها النهاية.. الفناء.. عقاب الإله عليهم، حتى جاء كاهن
وأتباعه يلقبون بأتيا (توت).

- (توت)! اسم أول الشهور القبطية.

- هو كذلك، الكاهن صنع كميناً وخدراً الكائن، ثم

حبسه وسيطر عليه، ومن وقت ما حدث أصبح سرّ الكائن
في يد الكاهن وورثته من بعده، توالى الأجيال حتى وصل
السر إلينا من جدنا الكاهن.. نحن عائلة (غراب) من
تحكم فيه وفي محبسه وحريته.

(5)

2008

(بودي) في المدرسة الآن وحان الوقت للبحث في حاجياته، هكذا فكرت (هالة) عمتها وهي تنظف الشقة كعادتها الأسبوعية، ارتدت أقل ملابسها شاناً وربطت ذلك المنديل على رأسها.. وضعت قدر الطبع المتملىء بالماء على المقد ليغلي حتى تلقى فيه الدجاج لغذاء اليوم، (أحمد) و(بودي) يحبون الدجاج المشوي لكنها ترى أن سلقها وتحميرها أفضل بالطبع لتأخذ منها المرق.. من هما يعرفا مصلحتهما!! هي امرأة وتعرف خير من جميع الرجال الأفضل.

لم تكن مسلطه في رأيه أسل ترى أن الرجال الأطفال
يطلبون ما ليس في مصلحتهم؛ لذا وجب إجبارهم بالقوة
أحياناً وإنما فلت عيارهم.

وكان جرعة التسلط على حياة زوجها وأولادها لا تكفيها فتقوم بالتدخل في حياة أخيها وابنه أسبوعياً كنوع من الرياضة الجانبيّة لأشباع هوايتها.

أمسكت بقطعة القماش الثقيلة المخصصة لتنفيض الأثاث من الأتربة ودخلت لغرفة (بودي) تجري عينيها عليها وتفكر كم دخلتها مئات المرات وتحفظ كل ركن فيها، أين سيخبي ذلك الطفل ذو الثانية عشر عاماً أسراره؟ خزانة الملابس أو الدوّلاب تحفظ كل ركن داخله، الفراش أهلكته بحشا ولم تجد شيئاً.. كتب المذكرة حيلة قديمة بالتأكيد بحثت داخلها كثيراً.

لماذا تبحث الآن بكل همة ونشاط؟ سؤال وجيه لا إجابة نهائية له، هي أم، وعمة، ومن واجبها - كما تعتقد هي - أن تكشف كل شيء، هل يحفظ زوجها بحسابات بنكية سرية؟ هل تتحدث ابنته في الهاتف ليلاً؟ هل يدخل ابنها للموقع الإباحية برغم عدم وجود الإنترنست بالمنزل؟، هل يخبي (بودي) مجلات إباحية أو رسائل حب لفتاة أو مذكرات خاصة تافهة من وجهه نظرها - يتحدث فيها عن حبه الأول؟

ربما جاء دافعها من طبعها الشخصي الذي يعشق السيطرة على كل ما يحيط بها، واليوم يجب أن يكون مفصلياً في كشف سر (بودي).. جلست على طرف الفراش تفكّر بصوت عالي فلا أحد في الشقة على كل حال.

- لو كنت مكان (بودي) أي سأخبئ أشيائي الخاصة..
(بودي) خجول، ذكي، يتحدث أقل مما ينبغي كأي فتى تافه

في بداية المراهقة، يحب قراءة سلاسل كتب الجيب والقصص المصورة، لو كنت مكانه أين سأخبئ أسراري.

لأفكار.. رأت تلك الطريقة في مسلسل تلفزيوني قديم حين فكر البطل بصوت عالٍ محدثًا نفسه وفجأة سقط الإهمام عليه، ولكن الطريقة لم تنجح على ما يبدو، غادرت الغرفة وخرجت لصالحة الاستقبال تلتفت حولها بحسب و هي تفكير فيما يفعله (بودي) في يومه.

يعود من المدرسة، يجلس قليلاً مع (سليم) في شقته أو يشاهد التلفزيون أو يفتح الكمبيوتر يلعب لعبة سباق سيارات، ثم ي يأتي (أحمد) والده ويتناول الغداء ويدخل (بودي) لغرفة الصالون ليذاكر حتى ينام.. لحظة، لقد أتى الأهتمام أو على الأقل أتت فكرة جيدة.

(بودي) لا يمتلك أي ذكاء دراسي خاص فهو طالب متوسط أو أقل في بعض الأحيان لدرجة يمكن أن تتعذر في أوقات ما بالغباء مقارنة بأولادها هي، لماذا يقضى الساعات في غرفة الصالون في المذاكرة إذا؟ دخلتها وهي تقول لنفسها أنه برغم غباء الدراسي إلا أنه يمتلك ذكاء من نوع خاص، ذكاء من يطن أكثر مما يظهر وهو ذكاء غير مفيد في تقييمها لكنه يمكنه من إخفاء تفاصيل ما يفكر فيه.

غرفة الصالون نظفتها هي الأخرى كثيراً ولا مكان لمداراة أي شيء، قطع الأثاث لن تسمع بإخفاء أي شيء.

حوائط الغرفة عبارة عن مكتبة خشبية تمتلئ بالكراسي كما تراها والتي تصنف كديكور يصمم (أحمد) على الاحفاظ بها، مزهريات بورود بلاستيكية.. تابلوهات صغيرة الحجم.. تماثيل من خان الخليلي.. الكثير من الكتب غير المتناسقة الوجود يرصها (أحمد) كنوع من الديكور ليدلل على ثقافته. كانت الكتب في آخر رف في الأعلى ولأنها قصيرة نسبياً فقد فشلت في الوصول لتلك الكتب حتى مع وجود مقعد خشبي تقف عليه؛ لذلك فهي تكتفي بتنفيذ الأترية من عليها بالقماشة لأنها لمن تخرج الكتب كتاباً كتاباً.

رفعت عينيها تنظر لرف الكتب وفكرت هل يستطيع (بودي) الوصول لتلك المنطقة، فهو قصير مثلها، هل يستخدم مقعدين فوق بعضهما البعض ليصعد؟؟ استبعدت تلك الفرضية لكن الفضول يقتلها البحث تلك المسألة.

أحضرت مقعداً خشبياً ومقشة بيد خشبية طويلة، صعدت على المقعد وعينها تجربان على الكتب لتأكد من عدم وجود كتاب دينية أو مصحف كي لا تحمل ذنب، أسماء الكتب وأحجامها متباينة بشكل يوحى بأن (أحمد) يصنفها كديكور هي الأخرى.. (صحيح البخاري الجزء الثاني) (تفسير الأحلام للنابلسي) (موسوعة تربية الكتاكيت الجزء الأول) (حوار مع صديقي الملحد) (علاج البواسير والبروستاتا بالأعشاب) (تعلم الكارتية في 7 أيام)، فكرت أن

عليها إقناع (أحمد) ببيع تلك الكتب لباعة الروايات كيما مع الكتب والروايات التي يقرأها (بودي).. مدت طرف المقشة تحاول إسقاط تلك الكتب على الأرض.

بصعوبة نجحت في إسقاط بعض الكتب والأترية تشار في شكل غيمة أعلى رأسها فهي لم تنظف الرف الأعلى أبداً بدقة.. هتفت بانتصار وهي ترى دفتراً ورقيناً يقع مع الكتب أرضاً، أكملت إسقاط بقية الكتب لفهم أخيراً أين المخبأ.. الرف من الداخل يمتلىء بكتب صغيرة الحجم وأوراق متاثرة حشرتها الكتب الضخمة الخاصة بأحمد فأخذتها، أسقطت بعض تلك الكتب بالمقشة ثم نزلت أرضًا تكاد تموت فرحاً بكنزها وهي تمني نفسها بالعثور على كتاب (ليلة الزفاف) الذي عثرت عليه عند ابنها أو ما يكفيه.. تخيلت شكل الفضيحة التي ستتصنعنها بودي كي يترى كما يجب وهي تسحب دفتر الأوراق وتضعه على طاولة الصالون برفق كأنها تعامل قطعة جوهرات تخصها، سحبت الكتب الصغيرة من على الأرض وقرأت اسم أول كتاب لتصعق، (المرشد في رؤية الأرواح العلوية والسفلية).

ألقت الكتاب أرضاً وهي تصرخ:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. الله الأمر من قبل ومن بعد، الله الأمر من قبل ومن بعد.

كتب سحر!! فكرت هل أخطأت في القاء الكتاب أرضاً؟ ربما تلبسها الجان، رفعت الكتاب ثانية بيده مرتعشة

وهي تقرأ آيات القرآن التي تحفظها للصلة، فتحت الكتاب من متصفه.. وهي تقرأ في سرها ما وجدته في صفحة عشوائية، ((أحضر بيضة واصنع بها ثقب بابرة، أفرغ ما بها واكتب عليها بالحبر الروحاني أول أربعاء من الشهر العربي اسم المتسلط عليه بحروف متفرقة، أحرقها بالنار في الساعة المرصودة التي أخرجتها من اسمه حتى تتهبب البيضة وأنت...))

قطعت قراءة في الكتاب وهي تغلقها رعباً وتعيد قراءة آيات القرآن على غير هدى.

- (بودي) ملبوس.. نعم بالتأكيد ملبوس.

قالتها ووضعت بقية كتاب السحر الصغيرة بحرص على الطاولة وتناولت دفتر الأوراق متمنية أن تجده بـه بعض جوابات غرامية أو يوميات وإن تعاملت بقلق بسبب ما رأته.. فتحت الدفتر، قلبت الأوراق برعـب مما وقعت عليه عيناهـا، بخط (بودي) غير الدقيق كـتب تعاوـيد بشكل منظم وأشياء من قبيل ((خدام الأيام السـبعة)) ((حساب الجمل الكبير)) وتحـت كل عبـارة شـرح مستفيض بـحسابـات وأـرقـام معقدـة وـعـشرـات الأـسـماء الغـرـبيـة التي لم تـجـرـؤـ حتى عـلـى لـفـظـهاـ في عـقـلـهاـ.

(بودي) يدرس السحر، هـكـذا فـكـرت وهي تـغلـقـ الدـفـتر وـتـفـكـرـ بـالـاتـصالـ بـأـمـدـ فيـ عـمـلـهـ ليـلـحـقـ تـلـكـ المصـيـةـ.

جميع الطلبة تخرج من تلك المدرسة الخاصة بالمعادي في تلك اللحظة، لا تتعجب نفسك بتخييل اسم المدرسة فهي تحمل اسمًا تقليديًا كالزهور والطلائع والبشاير والصفوة ويرفق باخر الاسم لفظة (دولية)، وكلنا نعرف أن هذا النوع من المدارس لا يقرب للعالمية بشيء ولا حتى المحلية، ربما كان هناك رجل متواضع بأفكار متواضعة يختار تلك الأسماء للمدارس الخاصة قديمًا، مصاريف الدراسة تتحملها الكثير من الأسر المتوسطة والعاملين بدول الخليج المتدرجين بالطبع تحت الفئة السابقة.. لذلك لا تغتر بكونها مدرسة خاصة في ذلك الوقت.

طلاب الإعدادي بملابسهم قليلة الهدام يخرجون جريأً فرحين بالخلاص من اليوم الدراسي الكثيف، وكل الأيام الدراسية كثيبة على معظم الطلبة، لكنها أكثر كآبة وملائلاً ورعباً على نفس طالب واحد فقط.. (بودي) الذي يخرج وحيداً كل يوم يسير إلى منزله ناظراً إلى الأرض بخجل كأنه ارتكب جريمة مخلة بالشرف.

لا تلومه فهو يشعر أنه مخطئ ذاته ولم يعرف سبب خطئه حتى الآن، خجول من كل شيء حتى إنه ليشعر بأن الجميع يتحدثون عنه بسخرية بينهم، وضع قائمة في ذهنه للأشياء التي تشعره بالخجل من شكله، لون بشرته الأسود، قصر طوله، شعره الأكرن، عيناه الجاحظتان، أسنانه غير المرتبة

والتي تداخلت مع بعضها البعض، ملابسها التي لا تليق على جسده بسبب تحوله، والقائمة تطول في خياله إلى ما لا نهاية. على الرغم من حقيقة أن كثير من البنات في المدرسة يرونه وسيماً وإن لم يصرحن له بذلك طبعاً لأنه يتتجنب الحديث مع زملائه طول الوقت، وحتى لو سمع منهم ذلك لن يصدق فقد حدد صورة داخلية عن نفسه لن يقبل عقله بغيرها، لذلك تراه جالساً في الفصل الدراسي منكمشًا على نفسه يشعر بالعيون تخيطه في كل وقت، حتى الآن وهو يسير خارج باب المدرسة متعدداً عن الحشود.

وحيداً يخطو منكس الرأس يحمل حقيبة المدرسية على ظهره يتطلع من وقت لآخر إلى وجوه الطلبة المتحدين في جماعات كأسراب الطيور.. سرب واحد يهمه، ثلاث صديقات بينهن (سمرا)، شيء متوقع طبعاً أن يعشقها بضم حسب طفولي بلا سبب، (سمرا) ليست الأجمل ولا الأكثر جاذبية، حتى لسؤال نفسه عن سبب إعجابه لما وجد رداً.

في نفس فصله الدراسي هي منذ الابتدائية، ولم يتحدث معها إلا مرة أو اثنين ونثم على ذلك الحديث إن اعتبرناه حديثاً من الأساس، نعم لأنه لم يقل شيئاً تقريراً، والحقيقة أنها لم تهتم به أو تبادله النظارات برغم ثقتها أنها تعرف بإعجابه.

فمن هذا الذي يتبعك سنوات كل يوم خروج من

المدرسة ولا يهتم بـك عشقاً، لكنها لم تشغل بالها به لأن
لا خوف منه ولا عليه، وها هواليوم يتبعهما كعادته ناظراً
لظهورها من وقت لآخر حتى يتهمي ذلك الشارع الطويل
وتحتفى في شارع جانبي مع صديقاتها ويسلك هو شارعاً
آخر لبيته.

وصل العماره وصعد درجات السلم بسرعة حتى وصل
لشقته، الجن المتحركون حوله يسرون برتابة ويختفون
كطبيعتهم التي تعود عليها، ميز شكل جنٍ لا يعرف يتحرك
بسريعة خروجاً من حائط شقة (سليم) لكنه تأكد من هيئته
أنه جنٌ من طبقة قليلة من يسكنون المنازل، لم يتخلص من
خوفه تماماً من أشكال الجن وخاصة في الشارع لأنَّه يرى
أعداداً هائلة تختفي وتظهر، بعضها يقترب منه فيجفل لأنَّه
معتمد على ألا يُظهر لهم أنه يراهم.

أخرج مفتاح شقته وفتح الباب ليجد والده جالساً على
الأريكة المقابلة للباب وبجانبه عمته (هالة) تمثُّل الحزن،
دخل الشقة وقبل أن يغلق بابها وقعت عيناه على كتب
السحر التي اشتراها منذ عام من مصروفه ملقة بلامبال
على طاولة الطعام، تسمَّر عند الباب المفتوح يحاول التفكير
فيما سيقول.. لكن والده كان أسرع عندما قفز من الأريكة
غاضباً وهز يمسك بملابسها ويسحبه للداخل و(هالة)
تصبح بلوعة:

- لا تضر به يا (أحمد).

وأشار والده ناحية الكتب وصرخ:

- هل كفرت بدينك يا (عبد الرحمن)!!!!!!

- يا بابا..

لم يكمل (بودي) العبارة بسبب صفعه من والده هزت
تركيزه والدموع تخرج من عينيه قبل حتى أن يدرك ذلك.

- أتقراً في كتب الكفر !!!!!!

- لم ...

طبعاً لم يكمل العبارة لأن الصفعه الثانية والثالثة أتوا في
ثانية واحدة، (هالة) تحاول بحركة تمثيلية منع (أحمد) لكنه
أبعدها وهو يقول:

- اتركيني أرببي ولدي.

- ستقتله.

الغريبة أن كلها كانت تعطيه حافزاً ما كأنها ترشده
بأن عليه زيادة سرعة الصفعات، صرخت (هالة) وولدت
والضربات تأتي لبودي في كل مكان وعلى كافة الأشكال من
صفعات ولكنها على الجسد وضربات احترافية بالقدم،
وسط دموعه نظر لسقف الشقة فرأى الجن يتحركون
كالسحالي غير مبالين بما يحدث، اطمأن قلبه قليلاً أنه لا
يضرب أمامهم فهو لا يحتاج شهوداً على الإهانة.

ترك نفسه لوالده يضربه وهو يفكر في أن هذه المرة أقوى من المرات السابقة لكنه سيتحمل حتى تنتهي العلقة الساخنة، نسي (بودي) أن باب الشقة مازال مفتوحاً والجيران بدأت تظهر على استحياء تسأله عن سبب نواح (هالة).

- أيعجبك الآن الفضيحة التي سببها!

قالها (أحمد) وهو يجر (بودي) الذي ارتحى جسده من الألم والخجل من مشهد ضربه أمام الجميع حتى دخل الشقة (فتحي) جارهم يسأل بطريقته المتعالية عنها يحدث.

- الحقنا يا أستاذ (فتحي).

قالتها (هالة) بلوعة باكية فردّ هو بسرعة:

- ما الذي فعله (بودي)؟

- مصيبة.

قالها (أحمد) فردّ (فتحي) بسرعة وبحماسة:

- لو كانت مشكلة دراسية فهو يستحق أكثر من ذلك، قم بتربيته يا أستاذ (أحمد)

- ياليتها مشكلة في الدراسة.. درجاته سيئة وسكت، المدرسون يشتكون من خبائه وسكت، لكن يقرأ في تلك الكتب فلن أعتقه اليوم.

نظر (فتحي) للكتب التي أشار لها (أحمد) في نفس لحظة خروج (سليم) من شقته مهرولاً ليضع جسده أمام ضربات

(أحمد).. أما (فتحي) فقد تغيرت نظرته المتعالية وتحولت لدهشة ثم لذهول وهو ينظر ناحية (بودي) الباكى.
- توقف يا أستاذ (أحمد).

قالها (فتحي) بنبرة عالية حازمة وهو يغلق باب الشقة في وجوه الجيران الفضوليين وقد تسمى كل في مكانه حتى (سليم) الذي لم يصدق أن (فتحي) لأول مرة ينصح شخصاً ما بعدم ضرب ابنه أو ابنته.

- ألم ترّ بنفسك يا أستاذ (فتحي)!

قالها (أحمد) وهو يحكم قضيته على ملابس الصبي و(سليم) يحاول الفصل بينهما، بينما (فتحي) يتقدم بخطوات واثقة ويقول أمراً:

- (سليم) خذ (بودي) لشقتك حتى يهدأ.

تخلّي الأب عن ملابس (بودي) مذهولاً من (فتحي)
الذي قال:

- لا يجب القسوة عليه بهذا الشكل.

قالها وهو يضع يده على كتف (أحمد) ويسحبه برفق
ناحية غرفة الصالون.

وضع (سليم) زجاجة كولا أمام (بودي) على الطاولة وهذا الأخير يحاول إمساك دموعه.. (سليم) في بداية العشرينات من عمره الآن وقد تخرج من كلية التجارة منذ عام ويحضر نفسه ليتهي من ورق شركة محاسبة قرر أن يمتلكها في أسرع وقت، لم تتغير هيئة كثيراً سوى طوله الزائد وعضلاته التي برزت من الذهاب المتظم لصالحة الألعاب الرياضية واهتمامه بشعره وهيئته وطريقه تحذثه.. حسناً قد تغير فلن ننكر، لكنه أصبح أكثر حكمة ورزانة وإن لم تتغير أفكاره لكنه استطاع تحجيتها.

الشيء الوحيد الذي لم يتغير في حياته هي علاقته بـ(بودي) وأحمد عائلته التي اختارها وحافظ على صلاته معها، كما استمرت جلساته شبه اليومية مع (بودي) وإن لم يعد يتناول الطعام في شقة (أحمد) يومياً بعدما تعلم الطبخ.

- لكن ألم تلاحظ أستاذ (فتحي) وما فعله اليوم؟

قالها (سليم) ساخراً فنظر له (بودي) بصمت.

- لقد دافع عنك يا فتحى.. والأهم من ذلك أنه ارتدى قميصاً وسروالاً.. لم نره سوى بالبيجاما طوال حياتنا.

ابتسم (بودي) وهو يمسح دموعه و(سليم) يسأل:

- تلاعني مصارعة على جهاز (بلاي ستيشن)؟؟

هز (بودي) رأسه ثقياً فقال (سليم) يمثل الجدية:

- سيحزن (صالم) أنه لم يكن هنا عندما جاء أستاذ (فتحي) بدون البيجاما.. أعتقد أنه ولد بها؟؟

لم يتكلم (بودي) فنظر (سليم) لساعة يده وهو يقول:

- عندي ميعاد بعد قليل، لكن سألغيه لأجلك.

- اذهب لموعدك، فأنا أفضل حالاً الآن.

- أخيراً انطلقت.

فأها (سليم) وهو يلوح بيده ضاحكاً، ثم قال:

- أتمن أن نتناقش فيها حدث؟

هز (بودي) كتفيه بمعنى أنه لا فارق.

- لمحت كتب سحر على طاولة الطعام، هل تخصك؟

- نعم.

- لماذا لم تخبرني بوجودها من قبل؟

- لا أعرف.

- أتريد تعلم السحر؟

- لا.

شبك (سليم) ذراعيه وقال:

- تريد أن تفهم ما يحدث لك؟

هز الصبي رأسه بالإيجاب.

- لكني أجيبك عن أي سؤال يخطر ببالك عن الجان، تلك الكتب لن توصلك لشيء.. هل أردت التواصل مع الجان؟

- أريد أن أصبح مثلك.

- مثل؟

- نعم.. تفهم كل شيء وتعرف كل شيء.

قال (سليم) من وسط ضحكاته:

- لكنني لا أعلم الكثير، وأنت بنفسك تعرف أنني طوال
الستين السابقة لم أصل هدفي.

لم يجب (بودي) فقال (سليم):

- لماذا لم تطلب مني أن أعلمك ما أعلم؟

- لن توفق.

- صحيح لأنني أتخى أن تحظى بطفولة سعيدة بعيداً عما
أفعل.

- أنت تختار لي بغض النظر عما أريده.

الدهشة المختلطة بالاعجاب ظهرت على قسمات وجه
(سليم) وهو يقول:

- كبرت يا (بودي) واستطعت المجادلة.

- أرجو لك كفاك سخرية مني.

- لا أسخر لكن تعلم ما أعلم ليس بالمسألة السهلة.

- أنا تعلمت الكثير عن الجن.

- تعلمت ماذا؟

- الأقسام والعقود والطلاسم.. لم أحفظها بل كتبتها في دفتر يوميات.

- هل تحفظ بهذا الدفتر في مكان أمن؟

- كان مع الكتب التي اكتشفها أبي.

ضحك (سليم) ثانية فثار (بودي) قائلاً:

- لا تضحك علىَّ.

- آسف آسف.. لكن أول قاعدة تعلمتها معك ألا تحفظ بشيء على الورق، كل ما تحفظه يظل في رأسك.

قفز السرور في وجه الصبي وهو يقول:

- قررت أن تعلمني؟

- نعم.

- أستضمني معكم في جماعة (أرض النحاس)؟

- لا تذاكَر، أنت تعرف بأنها إرث عائلي، لكن سأعلمك ما تحتاجه حتى تقول إنك اكتفيت، ولو خالفت تعليماتي في أي يوم سأتوقف.

- اتفقنا.

نهض (سليم) واتجه لغرفة نومه وهو يقول:

- سأبدل ملابسي سريعاً لألحق بميعادي.

- هل ستراقب (مالك غراب) الليلة؟

أتاه صوت (سليم) من غرفة النوم يقول:

- نعم، لكن لن أقترب منه.

- هل وجدت دليلاً بعد على تورطه في الحادثة؟

- لا.

مررت دقائق وخرج (سليم) يقول:

- الآن سألفن قريني ثم أصالحك على والدك، لنأخذ الكثير.

أحضر منديلاً قماشياً وجلس على مقعد بينما (بودي) يقول:

- أنا أحفظ ما ستقول، هل أخبرك؟

ابتسם (سليم) وهو يقول:

- لا وقت للهزل، سأنتهي في دقائق.

وضع المنديل على وجهه ليغطيه وهو يسترخي في المقعد ويتمتم بتعويذة، بينما (بودي) يلتقط زجاجة الكولا ويشربها بهدوء وهو يشاهد (سليم) الذي انتهى من التمتمة وتصلب جسده وانتفض مرتين ثم ارتخى.. ارتفع المنديل القماشي للأعلى كأن رأس (سليم) قد تضاعف حجمها، ومن تحت المنديل قال (سليم):

- اسمي (سليم عبد الغفار جاد الرب)، مصري، أعيش بمنطقة المهندسين، والذي يعيش مع والدتي في محافظة البحيرة بقرية صغيرة، ليس لي إخوة، لا صلة لي بعالم الجان أو العفاريت، جبان، قليل الذكاء، أحلم بالمال والغني.

أعاد (سليم) التمتمة ثانية فعاد حجم رأسه لطبيعته وانتفض جسده لمرةأخيرة وسكن وهو يزبح المنديل عن وجهه ويتنفس بصعوبة، (بودي) على الجانب الآخر أكمل شرب الكولا وهو يقول:

- هل تم استجواب قرينك من قبل؟
- بضع مرات.
- وهل (مالك) هذا من استجوبك؟
- لا.. هو الآن متزوج وله طفلة ويعيش حياة طبيعية لا جن فيها.
- وما الذي يجعلك متيقناً من أنه مثير للشك؟
- شقته يا (بودي).. لقد طلسَ شقته كي لا يدخلها الجن، كأنه يخشى على نفسه وأسرته، بالإضافة لشيء آخر.
- ما هو؟
- اسمه في الأوراق الرسمية لا يحتوي على اسم (غراب) ومع ذلك هو مشهور به كاسم عائلته.
- اسم مضحك.. لكن ما مشكلته؟
- فيها بعد سأخبرك.

تقسم (فتحي) بسيارته العتيقة في الطريق المؤدي لقرية (شاترمة) بأسوان، ولكن قبل أن يصل للقرية توقف بسيارته على جانب الطريق المحاط بالأراضي الزراعية من الجانبيين، خرج من سيارته يتأكد من أنه وصل للنقطة الصحيحة، أغلق السيارة جيداً وسط زراعات القصب مسترشداً بالقمر المكتمل تلك الليلة، بعد عشر دقائق سيراً على الأقدام وسط مساحة فارغة من المزروعات يقع بها منزل من الطوب الأحمر يتكون من طابقين، أمامه يجلس شاب أسمر اللون على دكة خشبية، يرتدي جلباباً أزرق ويضع قدمه من تحته مسحّاً بسيجارة يدخنها بهم وهو ينظر للقمر.

انتبه الشاب لفتحي وهو يتفرس في ملامحه قبل أن يقترب منه :

- (فتحي)!!!! أتيت في غير موعدك!!!!، خير؟
- أريد الحاج (حسين) في أمر عاجل.
- لكنه نائم، هياً لتيت الليلة في المنزل وفي الصبا....
فأطعه (فتحي) وهو يجلس بجانبه على الدكة:
- لا وقت عندي، يجب علي السفر بعد قليل للعودة للقاهرة.
- أتحمل نتيجة استيقاظه في هذا الوقت؟
- أتحمل.. وأعد لي كوب شاي في طريق عودتك.

نهض الشاب متأفلاً وهو يلقي بالي سيجارة أرضاً.. مرت
ربع ساعة قبل أن يأتي الشاب بكوب الشاي لفتحي الذي
التقطه وهو يشعل سيجارة صامتاً.

- ادخل يا بنى.

جاء الصوت العجوز صائحاً من الداخل فجرى (فتحي)
بعد أن وضع كوب الشاي جانباً وألقى بالي سيجارة، دخل
المنزل المتواضع الذي يجلس داخله الحاج (حسين) على
مقعد قديم اهترأ قماشه، (حسين) كان عجوزاً امتلاً وجهه
بالتجاعيد التي تعطيه عمرًا أكبر من عمره الحقيقي، برغم
أنه في الستين إلا أن الشمس تكفلت بإظهاره في الثمانين، لكنَّ
الحيوية ما زالت تدبُّ في أوصاله وتنجلي في حركاته السريعة
وانتصاب ظهره.. حليق الوجه خفيف الشعر أشييه، يرتدي
طاقةً من القماش على رأسه وجلباب منزل تم كيه بعنایة.
كان (حسين) ينفض آثار النوم عن رأسه وهو ينظر
لفتحي الذي تقدم منه والتقط يده يقبلها ويقول:

- ساحني لكن الأمر غريب وأحتاج مشورتك.

- لا عليك يا ولدي، اجلس وهات ما عندك.

جلس (فتحي) متأدباً على مقعد قريب وقال:

- أول أمس اكتشفت أن (عبد الرحمن) يقرأ في كتب
السحر.

سعل (حسين) ثم قال بهدوء:

- هل أوصلها له (سليم)؟

- لا لا.. كتب سحر غير مهمّة متشرّة في القاهرة عند بعض باعة الكتب، (سليم) لا يعلمها شيء بل يحبّه من وقتٍ لآخر عن أسئلته، لكن أعتقد يا حاج أن الطفل قد أصبح جاهزاً؟

- أنت قلتها بنفسك.. طفل، لن يتحمل ما نريده.

- لكنني وجدت دفترًا يكتب فيه ما جمعه من كتب السحر.

- ألعاب صبيان لا خوف منها، يكفيه الآن أن يتعود على هيئة الجن وأن ينزع الخوف من قلبه تدريجياً.

- لكنه ما زال خائفاً، نفسيته مدمرة مما يشاهده ولا يفصح به لأحد.

- ألم تقل إنه يحكى كل شيء لسليم؟ إذاً فقد وجد متنفساً.

- أخشى عليه من الجنون.

- أنت متعاطف معه لا أكثر ولا أقل، هيأ عذًّا للقاهرة وزُرْني المرة القادمة وأنت تحمل أخبار (مؤيد) ورجله (يوسف) في مصر.

نهض (فتحي) ليغادر لكنه توقف واستدار لحسين قائلاً:

- علمت خبراً عن الغرفة النحاسية.. لقد دمرت.

- لا تشغل بالك، صراع الغرفة النحاسية لا يخصنا في شيء،

ستختار الغرفة سيداً جديداً لها وهذا يعطينا الوقت قبل أن يكشف ما يعيقنا، اذهب أنت ولا تنس أن تخفف من فتح الرؤية لعبد الرحمن، أعطه فترة راحة طويلة بين كل مرة تفتح له الرؤية وتغلقها.

(٦)

١٣٩١ م - القاهرة - مصر

عاد السلطان (برقوق) للحكم ثانية، تسؤال وهل تركه؟ كلها أمور وملأ عيوب مماليك فلا تشغله بالك، باختصار في ١٣٨٩ قام (يلبغا الناصري) - تشعر بأنهم جميعاً يسمون بيلبغا - بانقلاب عسكري على السلطان (برقوق)، حشد جيشاً من مماليك الشام ودخل في معارك عددة حتى هزم (برقوق) وسجنه في (سوريا) وولى مكانه السلطان (صلاح الدين حاجي) لمدة عام واحد.

انقلب بعدها الماليك على (يلبغا الناصري) بعد أن دعموه، حرروا (برقوق) من محبسه وأمدوه بجيش دخل به مصر وعاد لكرسي العرش، التفاصيل كثيرة لكن كما ترى كلها أمور مماليك تعودوا عليها.

المهم أن الأمير (محمود السوداني) تحول إلى الأمير (محمود الأستادار)، تولى كل شؤون المال في الدولة المملوكيَّة بعد عودة (برقوق)، ارتفعت درجاته أكثر لأسباب عديدة أهمها أن (يلبغا الناصري) كان يكرهه وألقاه في السجن فترة، وكان

هذا كفياً بإعطائه شهادة تقدير عند (برقوق) الذي رفعه إدارياً وأطلق يده في شؤون الدولة.

وعاد طباق القلعة للعمل ثانية لتدريب الماليك السلطانية، ومن بينهم (إبراهيم بن غراب) والذي أطلق (محمود) عليه لقب (سعد الدين) لشاشة وجهه، طوالخمس سنوات السابقة وهو يبيت في داره كل ليلة، ومع الوقت أحبه (محمود) واعتبره ابنًا، فقد حذر روايداً لدرجة أنه ولاه هذا العام شؤونه المالية الخاصة برغم أنه الذي لم يتعد السادسة عشر، لم يدخل (محمود) عليه بالتربيه وحسن المعاملة والإرشاد والتعليم، حتى إنه ألحقه بمجلس (ابن خلدون) الذي يلقي فيه دروساً عن العمران البشري والذي سيسمى فيما بعد باسم (علم الاجتماع)، و(إبراهيم) حاز على إعجاب (ابن خلدون) وصداقه.

- لي عندك حاجة يا شيخي؟

قام (إبراهيم) في مجلس (ابن خلدون) الذي نظر له وسأله:

- الحاجة في درس اليوم أم أمور الدنيا؟

- في أمرٍ خاص.

- بعد المجلس إذا.

كان مجلساً في دار (ابن خلدون) يُعقد كل خمس ليالٍ، يحضره عدد محدود من الطلاب انتقامهم الرجل بعناء،

يجلس (إبراهيم) بجانب صديقه (أحمد) الذي يكبره بأعوام كثيرة لكن جمعت بينهم صفات الوحيدة وحب القراءة والذكاء، تعرف على (أحمد) في هذا المجلس وأحبه (إبراهيم) لأنّه عامله كمصري لا ملوك يعامله الجميع.

انتهى المجلس وانصرف الطلاب إلا (إبراهيم) و(أحمد) اللذين نهضَا يقفان جانبًا في انتظار أن يسمح لهم الشيخ بالكلام، جمع (ابن خلدون) أوراقه وطوى كتبه التي كان يقرأ منها و قال بصوته الرخيم المميز:

- (إبراهيم) يحتاجني، فما حاجتك يا (أحمد)?
قال (أحمد) بفرحة:

- (إبراهيم) سيتزوج الخميس القادم يا شيخي.
ضحك (ابن خلدون) وهو يقول:
- هو سيتزوج، ما سر سعادتك أنت?
ـ سعيد لأنّه سيتزوج.

كان (ابن خلدون) لطول إقامته في مصر فهم دعابات المصريين وما يطلقون عليه (خفة الدم)، وعلمَ أن (أحمد) يمتلك روح دعابة طاغية لكنه يدرِّبه على أن يتخلَّ عنها..
تكلَّم (إبراهيم) بجدية وأدب يقول:

- أدعوك لعقد قراني إن آذنت لي.

- سأحاول زيارتك إن أنهيت مجلسي سريعاً، وطبعاً (أحمد)

المقريزي) لمن يحضر مجلسي، سيكون معك أليس كذلك؟
قالها (ابن خلدون) بابتسمة خفيفة فهر (أحمد) رأسه
بحماس وهو يقول:

- وقبل عقد القرآن سأحضر تأميره.

أخذت الدهشة (ابن خلدون) وهو يردد:

- تأميره !!!

- نعم يا شيخي، الأمير (محمد الأستادار) طلب من
السلطان إقامة مراسم تأمير لي قبل عقد قراني.

سرح (ابن خلدون) بخياله للحظات ثم نظر لأحمد
المقريзи وقال بلهجة أمراء:

- اخرج أنت الآن، أحتاج لإبراهيم على انفراد.

أطاع (أحمد) الأمر بلا مناقشة.

- أجلس يا (إبراهيم)

- سمعاً وطاعة.

- تقول إنك ستتأمر.

- نعم.

- بمراسم تأمير الملائكة؟

- بإذن الله سأخرج من الطلاق في نفس يوم التأمير.

- أنت أول حُر يتأنّر كالملائكة، زاد شأنك وعلّت مكانتك
يا (إبراهيم).

- ببركتك ودعائك يا شيخي.

- اسمع يابني، أنت الآن في فُرصة لم ولن تسع لأحد بعدك، أول مصرى يصعد بين الحكام ويناطحهم الإمارة، فكُنْ طموحاً عاقلاً واصنع مالم يصنع غيرك تعلو سيرتك وتزهر في عقول وقلوب العامة منها ماضى من السنين.

- أتعرف فيها أفكراً يا شيخي؟

- أعرف.. ستجدني في ظهرك دائمًا.

- وإن فشلت في مسعائي لا قدر الله.

- سيعتاشك العامة ولن يبقى من سيرتك سوى عاش (إبراهيم بن غراب) وأكل الطعام ومات.

اقترب الغروب وحانَت ساعة احتفال التأمير، القلعة كلها تناقل خبر ما يحدث بالدهشة والخيرة والشكوك، من هذا الذي بلغ السادسة عشرة من عمره ويتأمر في احتفال لا يحظى به معظم المماليك حتى من تولوا أعلى المناصب، يكفي المملوك أن يكتب له السلطان منشور بتأميره فيتدرج في مناصب الإمارة من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أربعين إلى أمير مائة إلى أمير ألف وربما بعد كل هذالن يحصل على احتفال تأمير حتى موته.

ناهيك عن أن تلك العادة تقريراً اختفت منذ تولى السلطان (برقوق) والأمير (حمود) الذي لم يتأنّر هو الآخر

طلب منه إعادةه لأجل (إبراهيم)، الألسنة تتناقل أن (محمود) يسيطر على السلطان لدرجة تنصيب مصرى كأمير مملوكى. الطبول تدق في جنبات القلعة، و(إبراهيم) يدخل قاعة العرش مرتدًا حلة الملايك السلطانية، يتقدم حتى يقف بالقرب من السلطان، ينحني على ركبة واحدة ويقبل الأرض بين يدي السلطان الذى أعجب بتلك الفتة، يخلع السلطان عمامه (إبراهيم) ويضع على رأسه (الشريوش) الذى يشبه التاج لكنه مثلث الشكل ومطرز، ينهض (إبراهيم) بكل احترام ويأخذ يد السلطان يقبلاها فيربت (برقوق) على ظهره بحنان.

يقف (محمود) مزهوًا كأنه هو من يتأمر، وبجانبه يقف أمير آخر وأمير جاندار وأمير السلمحداريه، أعلى رؤوس الدولة تشاهد المراهق الخبيث الذى أصبح أميرًا محبوبيا لدى السلطان، ينضم إليهم (إبراهيم) فيخرجون جميعاً عدا السلطان ويركبون الحيل ليغادرو القلعة في موكب هائل من الجنود.

يقطع الموكب شوارع القاهرة المزينة الممتلئة بفرق العزف والغناء والعامنة يلوحون للأمراء الذين يرشون الدراديم يميناً ويساراً بوجوه مبتسمة وقلوب تشتعل فيها نارُ الحقد.. الموكب يصل إلى المدرسة الصالحية عند (بين القصرين)، ينزل الأمراء أمام قبر الملك (الصالح نجم الدين أيوب).

بقية الأمراء وكبار رجال الدولة يتظرون عند باب القبر
ووسطهم يقف (ماجد) يبتسم بسعادة، يترجل (إبراهيم)
ليدخل القبر مع حاجب الحجاب ويرفع يده اليمنى قائلاً
كما حفظ ((أقسم بساله سبحانه وتعالى وبالقرآن الكريم
وسيدنا محمد النبي الأمي أن أظل طوال حياتي مخلصاً
للسلطان، متفائلاً في خدمته ومحبته ونصحه، وأتعهد أن أكون
وليّاً لمن والاه وعدواً لمن عاداه)).

ثم يصبح حاجب الحجاب بـأن يقرأ الجمیع الفاتحة
للملك (الصالح نجم الدين أيوب) من جمع المماليك تحت
لوائه وكان لهم الأب والسد.

انتهى التأمير بمباركة الجميع لإبراهيم الذي طافَ على
جميع رجال الدولة محيياً حتى وصل لأخيه (ماجد) الذي
تلقاه بين ذراعيه بفرحة غامرة، ثم جاء دور مصافحة (ناصر
بن دوام) الذي باركه اللهُ وهو يشد على ذراعيه وإبراهيم)
يقول بفرحة:

- بعد قليل نذهب لعقد القران يا حمای.

نعم فماجد اختار عروساً تناسب (إبراهيم)، (فاطمة) ابنة
(ناصر) حتى يضمن ولاءه.

(7)

2011

طلاب الصف الثاني الثانوي يخرجون من المدرسة، الشوارب بدأت في الظهور والأصوات اخشتّ والشهوات تغيرت، عرفت الطفلة أنها فتاة وعلمَ الفتيان بأن هناك أشياء أحمل في الحياة من لعب الكرة وألعاب الفيديو جيم، الفتيات والفتيا كلُّ منهم لا حظ الآخر بصورة مختلفة، انفصلت عوالمهم وأصبح كلُّ عالمٍ غامضاً حالاً عند الآخرين.

تطورت الهواتف المحمولة وأصبح من الممكن لطالب ثانوي أن يشغل عليها أغنية كاملة بصوت عالي يكفي ليصل لحبيته، فتشغل هي الأخرى أغنية تردد بها على أغنيته، ويظل هذا الإزعاج المزعج يحيط (بودي) الذي ظل على حاله.

يشعر أن الجميع يستمتع بعمره إلا هو، تزايد التساؤلات داخله عن شعور زميله في المدرسة الذي يخرج بصحبة زميلتهم يسرون جنباً إلى جنب منعزلين عن صخب الشارع حالين بعالم خيالي يجمعهم في جزيرة بعيدة أو أي من هذه الأشياء التي يحلمون بها.

ظللت عادة تتبع (سمر) كما هي وخاصية أنها تشاركه مع بعض الزملاء في درس اللغة الفرنسية الخاص، سمحت له بعض الفرص لالقاء نظرات عليها من قرب، الغريب أنه أحبها أكثر وأعجب بملامحها أكثر، لم تكن الأجمل كما قلنا سابقاً لكن ملامحها صارت هي الأجمل بالنسبة له.

والمشكلة أنها تتجاهله عمداً كأنه هواء يعبر أمامها، منذ سنوات لم يكن يملك الجرأة ليعبر لها عن إعجابه، وما زال يفتقد للشجاعة، لكنه امتلك شيئاً آخر، أو بالتحديد العديد من الأشياء التي علمها الله (سليم).. طارده فكرة أن يستعمل ما تعلمه ليجذب انتباها.

الفكرة لم تخطر على باله فجأة، بل تدرجت في السيطرة عليه حتى تملكت منه اليوم، ها هو يقترب من منزله ويصعد السلالم، يدخل الشقة، لن يعود والده قبل ساعتين، فرصة كافية ليفعل ما فكر فيه.

سيمارس الرومانسية التي أرادها لكن بطريقته، (سمر) ستتبهر به وبرومانسيته، دخل الحمام ليتحمم سريعاً، أحضر طبقاً من المطبخ ممتلئاً بالماء، فتح أحد أقلام الحبر وكسر الأنوب لتفع قطرات الحبر داخل الماء، أحضر دبوساً عقمه بالنار ونفث به إصبع الإبهام، تساقطت بعض قطرات من الدماء داخل الماء مختلطة بالحبر.

جلس بغرفته واضعاً الطبق أمامه وهو يُخرج هاتفه

المحمول ويفتحه على صورة لسمر قطعها من صورة أكبر مع زميلاتها في رحلة مدرسية.. حصل على الصورة من الملف الشخصي لأحد زملائهم المشتركين، وضع الهاتف المحمول بجانبه وقال:

- عرشٌ عرشي فرشٌ فرشٌ نمود نموده...

كررها 1100 مرة وهو يعد على عقل أصابع يده بطريقة حسابية علمها الله (سليم)، عندما وصل للرقم المطلوب دار الخبر والدماء في وسط الماء لأن شخصاً ما يقلبهم بملعقة خفية، ابتسם لنجاحه، وقال وهو ينظر للصورة على الهاتف المحمول:

- يا من حضرت بفتحي تشكل في هيئتي وصورتي واذهب إلى (سمر) من أنظر لهيئتها الآن، ادخل موضع نومها بعد متصرف الليل وأيقظها.. أخبرها أني أحبها.

كرر ما قاله ثلاث مرات حتى توقفت الدماء والخبر عن الدوران، تخللت السعادة وهو يتخيّل وجهها الليلة، ستهيم به حجاً بكل تلك الرومانسية المبتكرة.

وضع (يوسف) ثلاثة ملفات أمام (سليم) على الطاولة في تلك الكافيتيريا، تناولهم هذا الأخير وقرأهم على عجل، كانت ملفات ثلاثة رجال تراوح أعمارهم بين نهاية العشرينيات والثلاثينيات، يعمل كل منهم في مكان مختلف، اثنان منهم له أسرة وأطفال وثالثهما مطلق.

- أعلم عن هؤلاء بالطبع وراقبتهم من فترة.

فاما (سليم) وهو يلقي بالملفات ليوسف، الحقيقة أن مقابلات هذا الأخير لSlim قليلة جدًا، فمنذ أتى (يوسف) من سلطنة (عمان) عندما أرسله (مؤيد) كان يعمل وحيداً، لم يبلغ (سليم) بالكثير من المعلومات وكان جلياً أن ولاعه مؤيد الذي يعلم كل شيء أما (سليم) فعلم بالقليل مما توصل إليه (يوسف) في السنوات السابقة.

(يوسف) كان رجلاً يغيب (سليم)، لأنه في الأغلب أعلى منه في علوم السحر، وله مواجهات حقيقية استخدم فيها ما يعلمها عكس (سليم) الذي يحفظ أكثر مما يطبق.

الاثنان يجمعان معلوماتهما بطريقة مختلفة، (مالك غراب) يراقبه الاثنان على فترات متباينة ويتحققان أنه لا شيء عليه يدينه، وكان الحل البديل هو مراقبة أصدقائه إن استطاعا. لم يتداولا الكثير من المعلومات كما قلنا، لكن ثلاثة أصدقاء مالك ابتعدوا عنه فجأة عام 2006، الوقت الذي انتهت فيه مذبحة السحرة الطويلة التي قضت على العشرات منهم، وما زال كل واحدٍ فيهم حياته بطريقة طبيعية ولم يتقابلوا بعدها، الغريب أن الثلاثة كانوا من طريق واحد غير معترف به من بقية طرق التصوف، فهل هذا معنى !!

- أعلم بأنك تعلم معلومات عنهم، أنا أطلعك على الملفات لأنني سأبدأ التحرك عليهم.

- أي تحرك!!!

- الغرفة النحاسية في سلطنة عمان تجهزت للسيطرة على الملك الثامن، سأتحرك من مصر للوصول لمكانه وأنت ستكون مساعدني للسيطرة عليه.

هز (سليم) رأسه غير مصدق وهو يقول:

- سيطرة على من؟ لو كنا اكتشفنا مكان هذا الشيء لدمناه، وما علاقة هؤلاء الثلاثة بالملك الثامن، هل ظهر دليل أنهم من يتحكمون به وليس (مالك غراب)؟

- نحن لا نعلم حتى الآن إن كان (مالك) هو الهدف أو هو من قتل عائلتك.

- لقبه الذي يتبعاه في العمل والحياة هو (غراب) ليس صدفة أن يكون حفيد (إبراهيم بن غراب) ويتحكم فيما تحكم به جده.

- جميل ولكن كيف سنعرف؟
لم يجد (سليم) إجابة فأشاح بوجهه بعيداً لكن صوت (يوسف) أتاه قائلاً:

- ستلعب على نقط الضعف التي امتلكها أصدقاء (مالك)، الأسرة، الزوجة والولد، (جمال) صديقه هو هدفي الأول، وهو من سيطليعني على أسرار (مالك).

- ولو تدخل (مالك)؟

- هذا هو المطلوب، أن يحاول (مالك) إخراج الملك الثامن من مكمنه ليدافع عن أصحابه، عندها سأسره

- ولو لم يتكلم (جمال)؟؟

لم يظهر أي تعبير على وجهه (يوسف) فاعتدل (سليم)
بمقعده وقال:

- ستقتل رجلاً بريئاً؟

- عن أي براءة تتكلم؟

- لا تفعل ودعنا نجد وسيلة أخرى.

بكل غطسة لوح (يوسف) في وجهه وهو يقول:

- اسمع يا (سليم) أنا طلبت مساعدتك لا رأيك، لقد حددت كل شيء وأتحرك، وأنظر منك ردًا خلال أيام.

دخل الطلاب إلى المركز التعليمي الذي يتلقون فيه دروس اللغة الفرنسية الخاصة، مسيو (فوزي) يقف في الغرفة والطلاب يدخلون واحداً وراء الآخر بما فيهم (بودي) الذي كان يبحث بعينيه عن (سمر) ولم يجدها.

والغريب أنها غابت عن المدرسة اليوم، جلس الطلاب على المقاعد ومسيو (فوزي) يقول بصوته الأخفق قليلاً:

- أين (سمر)؟ أتفق بالخارج وستدخل أم ماذا؟

إحدى صديقاتها قالت:

- عندها ظرف مرضي.

- ماذا حدث؟

- شقيقتها أخبرتنا بأنها مرضت بالأمس، ظلت تصرخ خائفةً حتى أغاثي عليها ونقلت للطوارئ، هي اليوم في المستشفى في حالٍ أفضل، زرتها أنا وبعض الزملاء.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، بعد الحصة الدراسية سأخذ رقم هاتف أبيها منك لأطمئن عليها.. والآن لنبدأ درس اليوم.

امتنع وجه (بودي) بينما مسيو (فوزي) يتحدث عن تصريف الأفعال بحراسة.

انتهى (بودي) من رواية قصته لسليم الجالس أمامه بشقته، حرك هذا الأخير طرف لسانه على شفتيه وهو يحدق في (بودي) القلق، خيم الصمت على المكان و(سليم) يهز قدمه اليمنى في موضعها بعصبية ولا يتوقف عن تسلط نظراته على (بودي).

- (سليم) قُل شيئاً لا تشر خوفي.

- كم الساعة في يدك؟

نظر (بودي) لساعة يده بقلق فهو يعرف أن (سليم) سينفجر في أي لحظة.

- الساعة الثامنة.

- جيد.. أبق بمكانك حتى أعود.

قفز من مقعده بخفة ليخرج من باب الشقة ويضرب جرس باب شقة (بودي)، فتح له (أحمد) وأدخله.. الألم أعلن في معدة الفتى خوفاً وقلقاً لكنه تحمل وهو يمني نفسه بأن (سليم) لن يقنع أبواه بأن يضريه مثلاً، وبالتأكيد لن يخبره عن تعلم السحر.. ارتفعت شدة الألم و(بودي) يمسك معدته بيده في نفس لحظة عودة (سليم) الذي قال وهو يسحب مقاييسه المعلقة بجانب الباب:

- هياً لتذهب معى ل مكان، استاذت أبوك بأنك ستتأخر.

- ماذا قلت له؟

- هياً ولا تناقش.

نزل السلم خارجين من العمارة و(سليم) بنفس الوجه البارد المتحفظ وهو يفتح باب سيارته المركونة ويدير محركها ثم يشير لبودي بالركوب بجانبه، أطاعه وانطلقت السيارة تنهب الطريق نهباً و(بودي) يطرح بعقله كل الاحتیالات ولكنه لم يصل لشيء، توقفت السيارة بجانب كشك سجائر وخرج (سليم) ثم عاد ليكمل قيادة، المصيبة أنه لا يعرف الطريق جيداً خارج منطقة (المعادي)، فهو الآن بالقرب من جبل المقطم الذي يعرفه طبعاً لكن لم يقربه من قبل، أكملت السيارة طريقها حتى توقفت بجانب منطقة مقابر، الظلام

والوحشة وصوت الرياح صنعوا هيبة لم ير الفتى مثلها من قبل.

خرج (سليم) من السيارة وأشار له ليتبعه ففعل، (سليم) يتحرك وسط أحواش المقابر المظلمة التي علقت عليها من الخارج لافتاتٌ من الرخام محفور بها أسماء عائلات، لكل عائلة سور يحيط بفتحة القبر وباب من الحديد مغلق بسلسلة من الحديد عليها قفل.

لدقائق سار الاثنان حتى وقف (سليم) أمام حوش قبر بلا لافتة ويظهر عليه حداة الإنشاء، أخرج سلسلة مفاتيحه وقام بفتح القفل وهو يقول بفتوح:

- هذا القبر الجديد اشتريته منذ عامين، أليس غريباً أن أتمني دفني غريباً في بلد غريب عنِّي؟

دخل وسط الظلام لا شيء يضيء في المكان سوى ضوء باهت من القمر صبغ المكان بلون رمادي، أخرج (سليم) هاتفه المحمول وأضاء الكشاف وهو يقول ببرودة:

- لن ترى جنّا هنا، فهم يحترمون الأموات.

الحوش عبارة عن أرض رملية زرعت في أجزاء منها أشجار قصيرة لم تنم بعد، ووسط تلك الأرض فتحة القبر المربعة ويجانبها حجر على نفس مقاسها أبعد قليلاً، على ضوء الكشاف نزل (سليم) سلم القبر الحجري و(بودي) يتبعه بصمت حتى وصلا إلى أرض القبر الداخلية، رائحة

التراب والعطاء تسري في أنف الفتى لكنه ظل يمني نفسه
بأن هنا تعلم شيء جديد.

الفت له (سليم) وأغلق ضوء كشاف الهاتف المحمول
فسبح القبر في الظلام إلا درجات السلم الحجرية التي وقع
عليها ضوء القمر.

- تخاف أنت من كل شيء يا (بودي)، العفاريت التي تراها
منذ صغرك ومع ذلك تخشاها، الفتاة التي تحبها من قبل
حتى أن تفهم معنى الحب خفت الاقتراب منها، وبدل من
المواجهة جئت لي لتعليمك السحر كي تتوافق مع مخاوفك،
وحتى هذه الخطوة لم تقدم عليها بل استخدمت ما تعلمته
لتحصل على قلب فتاة لا تريده.. ألا ترى معي المشكلة؟
المشكلة هي أنت.

شعر فجأة (بودي) بدفعه في صدره من يد (سليم) القوية
ألفته أرضاً، هو لا يراه لكنه يعلم مصدر صوته الذي قال
بنفس البرود:

- ألم تفك للحظة في خوف تلك الفتاة البريئة؟

تحسس (بودي) الأرض وعاد للنهوض وهو يرى خيالاً
توقع أنه (سليم) يقترب منه قائلاً:

- ما بك؟ أتخاف أن ترد عليَّ.

تبع قوله بدفعه أخرى من يده أوقعت (بودي) ثانية
فقال صارخًا:

- لن تستفزني.

- أتعتقد أنني أستفزك لأنّي ملكاتك مثلاً؟، أنت تكثر من مشاهدة الأفلام.

تبع قوله وهو يصفع (بودي) على وجهه فصرخ هذا الأخير حقداً وهو يمسك الظلام بيده في وضع المجلوس حتى عثر على قدم (سليم) فأمسك سرواله يستند عليه ليneathض، لكنه شعر بيد (سليم) تحيط بعنقه وترفعه وهذا الأخير يقول:

- أين هي القوة التي شعرت بها وأنت ترسل هاتفًا لفتاتك؟ أنا لا أعلمك درساً جديداً، أنا أكرهك وأكره نفسي.

تجرأ (بودي) وضربه في وجهه مرتين لكن (سليم) ظلَّ قابضاً على رقبته وهو يقول بنبرات تعلو تدريجياً:

- أين القوة التي تسرى في عروقك وتوهمك بأنك ملكت الدنيا وتسلطت عليها؟، ما بقي لك في حياتك؟، أقتل فتاتك في المرة القادمة؟ أقتل الناس غيلة بعد أن أكمل تعليماً؟ أين هو طريقك؟ أين هدفك السامي؟ أين قاعدتك الأخلاقية؟

لم يفهم (بودي) كلمة مما سمع، ويرغم ألم رقبته إلا أنه اندهش من (سليم) الذي يوجّه له حديثاً لا يقصد به، لم يتظر كثيراً لأنّه شعر بـ (سليم) يلقى أرضًا في الظلام وهو يقول:

- أنت تعلمت بما فيه الكفاية، حان الوقت لتجرب..
استدعي جنِيَا وتواصل معه ليقبل بأن يكون خادمك.
رأى (بودي) (سليم) يصعد درجات السلم وهو يقول
صارخًا:

- لو فكرت في الصعود قبل أن تنفذ أمري تنتهي علاقتي
بك، أما إن جئت وعرفت قدرك الدنيء فاصعد على الدرج
ونادِ عليَّ، سأفتح لك الحجر.

خرج (سليم) من القبر والقمر يلقى عليه ظللاً وهو
ينخرج من جيشه عليه ثقاب يلقىها في القبر ويقول:

- إن أطعْتني فتحست لك عالماً لن تصدق وجوده، وإن
أصابك الخوف تركتك في عالمك السخيف لتصير واحداً آخر
من ملايين الأحياء.

أزاح (سليم) الحجر ليغطي على فتحة القبر ويغلقها،
(بودي) ينهض شاعرًا بالغضب والكره يشحذ جسده
والظلم الدامس يحيط به تمامًا.

المخاوف كما لم يفهمها أو يعرفها، القبر أثار في نفسه رعب
الدفن والحساب، لقطات سريعة ملأت رأسه عن عدم
انتظامه بالصلاوة، هل سيدخل جهنم؟ حتى لو انتظم فهل
سيدخلها وهو يتعلم عن السحر ويطبقه؟

ما الذي جاء به هنا في الأساس؟ خوفه من الجان؟ أم
اشتياقه للسيطرة التي افتقدها.. قال لنفسه إنه لن يخاف،

فهو يرى الجان دائماً وتعود عليهم، لكن السائل الساخن الذي سال على قدمه وأغرق سرواله أشعره بالعجز.. لقد ترسول على نفسه كالأطفال.. لو كان أبوه معه لضرره، يرى الجان ويعرف السحر ويخاف من صفات أبيه، والآن أصبح يخاف من صفات (سليم) هو الآخر.

سار في الظلام باتجاه السلم في الموضع الذي سمع فيه صوت وقوع علبة الثقب، نزل على ركبتيه وهو يتحسن الرمل ويخبر نفسه بأنه لا يخاف، كم مرّ عليه وهو يبحث عن العلبة؟ لا يعرف كأنها الساعات والأيام لا الدقائق.

ثانية خاتمه مرة أخرى وشعر بدفقات من السائل الساخن يتغرق ملابسه ثانية، شعر بشيءٍ جديدٍ يطغى على خوفه.. شعور العجز، ال欺辱، الوهن.. جلس على الأرض وبكى ولا يعرف لم يزره خيالٌ أمّه!! لكنه لم يطمئن لذلك الخيال بل عاد له الخوف وهو يتخيّلها جثة متحللة في قبرها. فكر أنه لو سُنحت له الفرصة ليكون بفراشه الآن ينام بعمق وليذهب (سليم) و(سمر) ووالده وكل الناس إلى جهنم. حرك يده على الرمال بغيظٍ فاصطدمت يده بعلبة الثقب، أمسكها بفرحة من عادله الأمل مرة أخرى ونسى كل أفكاره وهو يخرج عوداً ويشعله.. أحرقت لهب النار عينيه فأغمضها وبدأت الأفكار الجيدة في التسلل لعقله، يمكنه الآن صعود درجات السلم ومناداة (سليم)، لكنه يكرهه ويتمنّى

ألا يفعل ذلك، ولكنه لن يجلس هنا ليقرأ قسماً أو تعريضاً
ليستدعي جنباً، خوفه منعه من مجرد التفكير بالأمر.

انطفأَ عودُ الثواب بفعل أنفاسه وعادت عيناه تغرقان
بالدموع ومثانته تُطْلِق دفعات تغرقه أكثر وأكثر وقد ترك
لها الحرية فيما تفعل.

في صمت حوش القبر جلس (سليم) مفترشاً الأرض
صامتاً ينظر أمامه بلا صوت سوى (صالم) الذي يقول في
أذنه من فترة لأخرى:
- أخرج الفتى.

لكنه لم يسمع شيئاً ولم يفكر حتى، عقله خاوي وكأنه يغطّ
في سبات عميق، مرت ساعة ونصف وهو على هذا الحال
حتى سمع صوت صرخة عنيفة ألمت أذنه، لم يكن القبر
مصدرها، بل هو صوت (صالم) يكمل صراخ.

نهض (سليم) ينظر حوله فوجد ضوءاً أحمر يظهر من
العدم بجانبه ويختفي ثانيةً وهو يشم رائحة كريهة، سمع
وَقْع خطوات أقدام تقترب من الحوش، صاحبها يسير بشقة
في الشارع الرئيسي الذي يشق المقابر، جرى على البوابة
فوجد صاحب الأقدام يقترب أكثر ويخرج من ظلال الظلام
لتتجلى ملامحه التي أزعجت (سليم) وشلت حركته، أنه
(فتحي) يلصق وجهه بالبوابة الحديدية وهو يقول بجدية
وبطريقة حديث تخالف طريقته المعهودة:

- لقد تماذيت يابني، ما الذي تفعله بالفتى؟

تراجع (سليم) خطوة للوراء و(فتحي) يكمل:

- لم أكن لأقترب منك و(صالم) في خدمتك، وجب عليّ قتله.

انعقد لسان (سليم) وهو يهز رأسه غير مصدق و(فتحي) يقول :

- (صالم) لم يكن خادمك، بل هو عين (مؤيد) عليك ينقل له أخبارك وأخبار (مالك) الذي تراقبه.

- أنت.. أنت.. كيف عرفت؟؟

- تصورتُ أنك أكثر حكمة لكنك أخرجت همومك وضعفك على (عبد الرحمن) فأثقلته بأزيد مما يمكنه تحمله.

- أنت تعرف كل شيء!!!!!!

- أخرج الفتى من القبر ولا تخبره بحقيقةتي، وعند عودتك ستحدث.

غادر (فتحي) المكان و(سليم) متسمراً بمكانه لا يفهم ما يحدث، بعد دقيقة نظر للقبر وجرى عليه يزبح الحجر ويفتح كشاف هاتفه المحمول وهو ينزل درجات السلالم للأسفل.

حرك الكشاف بحشاعن (بودي) فوجده جالساً على

الأرض مستنداً ظهره لأحد الحوائط ينظر له بهدوء.. وقتها
شعر (سليم) أن وجه الفتى تقدم في العمر عشر سنين أخرى.

- أنا آسف يا (بودي).

ردّ عليه الفتى بهدوء:

- أحتاج سروالاً جديداً من ملابسك قبل أن أدخل
لوالدي.

الفصل الثالث

صلة المماليك

(١)

١٣٩٧ م - القاهرة - مصر

في دار (علاء الدين ابن الطبلاوي) والتي القاهرة جلس (إبراهيم بن غراب) متادباً في قاعة المسافرين، حين دخل عليه (ابن الطبلاوي) وحوله خادمان يحملان أكواب الشراب وقطع من الحلوي على صوان كبيرة وضعاها أمام (إبراهيم) الذي نهض بسرعة وهو يتناول طرف ثوب (ابن الطبلاوي) ويقبله احتراماً والأخير يقول بسرعة:

- العفو العفو يا أمير (سعد الدين).

جلس (إبراهيم) بجانب (ابن الطبلاوي) وهو يقول:

- لي عندك حاجة إن أتمتها لي نفعت بها ديار المسلمين، وأفرحت السلطان والمماليك والعوام.

- قُل يا (بن غراب) وكلي آذان مصغية.

- أريد مقابلة السلطان (برقوق).

ناوله (الطبلاوي) كوب الشراب فأمسكه (بن غراب) بدون أن يقربه من شفتيه و(ابن الطبلاوي) يقول مندهشاً:

- السلطان يحبك ويعطيك قدرك فإذا طلبت لقاءه أذنك قبل مني.

- لو دخلت القلعة بصفتي الأمير (سعد الدين إبراهيم بن غراب) لانتشر الخبر، حاجب الحجاب سيلغ أستاذِي (مُحَمَّد الأَسْتَادَار) بالأمر.

- وما الضير في ذلك؟

قالها في خبيث فردٌ (إبراهيم) متلطفاً:

- حضرة الوالي أنت تعلم مكائد الماليك وتدابيرهم، وأنا لا أطلب إلا مصلحتك ومصلحة البلاد.

رشف (ابن الطبلاوي) من كوب الشراب وقال:

- اسمع يا أمير، أنت مصرى مثلى وإن كنت أنا أعلم بمكائد الماليك فأنت أدرى مني بفهلوة المصريين، دعنا من اللف والدوران ولتعرض علىَّ الأمر مباشرة.

- لك ما طلبت، يا سيادة الوالي أنت تمر بضائقة مالية في إدارة الولاية وتسدِّد من مالك الخاص بعض نفقات الدولة، وهذا العام لو ظهر عجزٌ جديدٌ لن تقدر على تسديده، هل أخطأت؟

- لا والله لقد أصبت ولم تُضف جديداً عما يعرفه الجميع.

- أعرض عليك حلاً تنهي به مشاكل الأموال وتعلي من قدرك عند السلطان.

- هات به فرج الله عليك.

- اليوم تطلب مقابلة السلطان وتأخذني مع طواشيك المحنكين الذين يغطون أفواههم بطرف عيائمهم، أرتدي مثلهم وأرافقك معهم، تدخل لديوان العرش وتعرض على السلطان مقابلتي بعد أن تحكي له طلبي هذا.

- لن أفعل أيّاً مما تقول قبل أن تكشف ما برأسك.

- سأدخل للسلطان وأشكوه من الأمير (محمد الأستادار)، كم كنز من أموال السلطنة في خزائنه التي أعرفها وحدي، وكلها أموال ملك للسلطان ولبيت المال، فإن أراد ساعدته في الكشف عنها، وتقسم الأموال بين بيت المال والسلطان وولاية القاهرة.

وضع (ابن الطبلاوي) الكوب على الصينية وعيناه معلقتان يإبراهيم يحاول قراءة ما في نفسه حتى قال:

- وإن غدر بي الأمير (محمد)؟

- أنت في حماية السلطان، والأهم أن تمثل أمام السلطان أنك لا تعلم سبب طلب لقائه فإن رفض عوقبت أنا وخرجت أنت سالماً، وإن قبل أظهر له معرفتك بالأمر ومساعدتي من البداية، هل توافق؟

لم يتحدث (ابن الطبلاوي) وإن جرى ريقه متخيلاً كسم المال الذي سيسلبه عجز خزانة الولاية، إلا أن (إبراهيم) قال فجأة:

- ولأننا سنعيد الحق المسلوب فلنافيه نسبة نأخذها سراً، فكما تعرف نحن نحمل تخاطر بالكثير هنا.

- لا تحدث معي في التفاصيل قبل أن تنجح في إقناع
السلطان، ولا تنسَ أني سأنكر أيَّ معرفة بما تنوِي إن تعقدت
الأمور.

- لك ذلك يا والينا.

فرس (إبراهيم) يشق سكون ليل حارات المحرفة، كان قد عاد من عند السلطان ونفذ ما أراد بعد ما طلبَ من السلطان أن يمهله يوماً واحداً لكشف مخابئ مال (محمد)، عاد ملتزلاً الكائن في (بركة الحبش) ليسلم على زوجته وطفله وهو ينطلق بأسرع ما يمكن لمنزل أستاذه.

توقف عند باب القصر الذي يطلق عليه منزل لا تواضعاً
والحراس يلقون عليه السلام والتحية، فبعضهم تربى معه
عندما كان يبيت قديماً في مسكن ماليك (محمد).

- أوقف الأمير بسرعة يا (إينال) وأبلغه بأنِّي أطلبُه في
الحال.

- الأمر ليس بيدي يا أمير (سعد الدين) ألا يمكن ...

قاطعه (إبراهيم) وهو يتراجُل من على فرسه:

- اذهب لطواشية قاعة الاستقبال، وأخبرهم أنَّ الموت
والحياة في إيقاظ الأمير.

فتح أحد الحراس البوابة ودخل معه يهروُل للداخل
ليفاجأ بالأمير (محمد) بجلباب النوم يجلس في حديقة
القصر وحيداً.

- (إبراهيم)!!! ما وراءك؟

انصرف الحارس و(إبراهيم) يجري خائفاً ناحية (محمود) وهو يقول:

- عليك الهروب يا أستاذى، السلطان سيعذب عليك الحسبة.

ابتلع (محمود) ريقه ورُبَّت على ظهر (إبراهيم) مهدئاً وهو يسأله متى سألك؟

- أهداً وقل لي من أين عرفت؟

حاول (إبراهيم) التقاط أنفاسه وهو يقول:

- منذ ساعة طلبني (ابن الطبلاوي) في منزلي فذهبت له، عرض عليَّ أن أكشف له عن مالك، وأن أشهد أمام السلطان بأنك تنهب خيرات (الأستدارية) ليعذب عليك الحسبة، طاوعته في كلامه وعلمت أنه سيعذبك صباح الغد لقصر السلطان ويأخذني معه.

- خير ما فعلت.

- لم يكن خيراً، وبعد خروجي من بيته سمعت أصوات حرسه يتحركون حركة غير عادية، فكمنت له عند حارة قرية، وشاهدته يخرج مع حراسه في طريقهم للقلعة، (ابن الطبلاوي) لم يصدق مهادنتي له وتحرك الآن لمقابلة السلطان. لأول مرة يرى (إبراهيم) أستاذه يرتعد خوفاً وقد فقد القدرة على النطق، فللحقة مكملاً كلامه بخوفٍ:

- اهرب يا أستادي واتجّه للشام وأنا سأبقى بمصر
لأشهد ضدّ (ابن الطبلاوي) حتى يتّهي الغمّة وتعود.
- أولادي في (الإسكندرية) يا (إبراهيم).

- سأرسل من داري بعد قليل بريد حام زاجل لأنّي
(ماجد) ليبلغ أولادك بالتجهيز لتقابلهم أنت في ميناء
(الإسكندرية) سيعجهز (ماجد) طريقة نقلّكم إلى الشام بحراً.
خطا (محمود) بسرعة لداخل قصره و(إبراهيم) يتبعه،
فجأة توقف (محمود) وقال:

- جهز أنت الآخر حريمك ومالك ولتذهب معّي.
- لو تبعتك لثبتت التهمة عليك، وربما طارداً السلطان
بنفسه على رأس تحريردة حربيّة، سأبقى حتى يتّهي التحقيق.
- لا.. لو بقيت لأودعوك (خزانة الشّمائّل).
- أنا فداك يا أستادي، وإن كنت أتمنى دخول الشّدائّل.
- ماذا؟!!

- لو سجّنت بهـا العذبوـني حتـى أقـرـبـاً أعرف من
مالك وخرائـنكـ، فـلوـ أـقرـرتـ لهمـ بـمـوـضـعـ أوـ اـثـنـانـ يـهـدـأـ بالـ
الـسـلـطـانـ وـيـعـرـفـ أـنـكـ لـاـ تـمـتـلكـ أـكـثـرـ مـاـ تـعـلـنـ، وـيـجازـيـ (ابنـ
الـطـبـلـاوـيـ) عـلـىـ صـنـيـعـتـهـ
فكـرـ (مـحـمـودـ) قـلـيلـاـ ثـمـ قـالـ:

- (إبراهيم)، أنا سأتحرّك السّاعة أـمـاـ أـنـتـ فـعـنـدـكـ فـرـصـةـ إـلـىـ
الـصـبـاحـ، سـأـعـطـيـكـ قـائـمـةـ بـأـمـاـكـنـ الـمـخـازـنـ وـالـخـزـائـنـ، خـذـ مـاـ

ترى من ماليكى وقم بتغيير أماكنها واترك أربعة خازن بهما
ما يقدر بأربعين ألف دينار فضة وثلاثة آلاف من الذهب
وألفي جوال قمح وشعير، هذا المبلغ يكفى السلطان لو
عشر عليه، وإن قبض على فقُم بنقل أموالي إلى الشام وأمّن
خروجهم.

- لك ما تأمر يا أستاذى.

- أولادي يا (إبراهيم)، لا تنسى، إن قبض على صاروا
أمانة في عنقك.

- روحى فداء لك ولأولادك.

طلع الصبح على (إبراهيم) وهو يجلس في حديقة متزلمه
المتواضعة يتأمل قرص الشمس يصعد على استحياء في السماء،
سمع صوت أقدام تأتي من خلفه فلمح حمامة (ناصر) يسير
حاملاً طفل (إبراهيم) ذا الأربع سنوات يلاعبه ويداعبه،
وقف بجانبه وقال:

- هل أتممت مقصداك؟

ظلت عين (إبراهيم) معلقة بقرص الشمس وهو يقول:

- سأرسل رسالة بعد قليل لابن الطلاوي أخبره فيها
بأن (محمد) قد هرب وهو في طريقه للإسكندرية، سيقبض
عليه السلاحدارية بأنفسهم غداً على الأكثر.

- لم استعنت بابن الطلاوي في صناعة مكيدتك؟

- لأنه مصرى مثلى لا أكثر.

- أتشق بي يا بنى؟

- عقلى عارٍ أمامك يا عمى، أنت تعلم فيما أفكرا أكثر
ما يعلم أخي.

جلس (ناصر) بالقرب منه وهو يترك الصغير ليجري في
الحدائق وقال:

- (ماجد) لم يودع ثقته بي حتى الآن.

- يخاف مما تحت جلدك.

نظر (ناصر) لجسده وابتسم و(إبراهيم) يقول هائماً:

- أتعرف لم زوجني بابنتك (فاطمة)؟

- ليضمن ولا شيء وألا أغدر بك.

التفت (إبراهيم) له وقال:

- ليشهد الله أننى أحببها وأحببتك وظهرى متصلب
بوجودك، لكن لي تساؤل طالما شغل بالي.
- قل.

- لماذا خدت الغرفة النحاسية؟

تأزم (ناصر) فقال (إبراهيم) بسرعة:

- أعتذر إن خانتي الكلمات، لكنى رأيت ما تفعله من
أعاجيب ولا أفهم كيف قبل أن تعيش حياتك تاجرًا وتترك
ما يتمنى غيرك تملكه.

- ربما لأننى اخترت لأول مرة في حياتي.. أجدادي في إماماة

(عَمَان) كُلُّهُمْ كَانُوا مُثْلِي، نَسَلُنَا مِنَ الذِّكْرِ هُمُ الْوَحِيدُونَ
الَّذِينَ يَتَحَمَّلُونَ أَنْ تَشَقَّ جَلُودَهُمْ لِيَضْعُوا حِجَابًا مِنْ تَحْتِهَا،
أُجْبِرَتْ فِي صَغْرِي عَلَى ذَلِكَ لِأَنِّي وُلِدْتُ مِنْ نَسْلٍ (دَوَام)،
أُجْبِرَتْ عَلَى مُواجهَاتٍ لَمْ أَخْتَرْهَا، أَنْ أُقْتَلَ مَنْ لَا ذَبْلَ لَهُ،
رِبِّيَا الاختِيَارُ الْوَحِيدُ الَّذِي فَعَلَتْهُ فِي حَيَايِي أَنْ أُبْتَعِدَ، وَيَتَوَقَّفَ
حِجَابُ الْجَلَدِ عَنِّي.

- لِيَتَنِي كُنْتُ مُثْلِكَ.

- أَنْتَ مُثْلِي أُجْبِرُوكَ فِي صَغْرِكَ، وَلَهُذَا أَحْبَبْتُكَ.

عاد (إِبْرَاهِيم) لِيُنَظِّرُ لِقَرْصِ الشَّمْسِ وَيَقُولُ:

- لَا إِجْبَارٌ بَعْدَ الْيَوْمِ يَا عَمِيِّ.

قُبِضَ عَلَى الْأَمِيرِ (مُحَمَّد) وَابْنِهِ الْأَكْبَرِ وَأُودِعَا فِي خَزَانَةِ
الشَّيَائِلِ كَمَا تَوَقَّعَ الْجَمِيعُ، أَيَّامَ مَرَتْ عَذْبَ فِيهَا الْأَمِيرُ لِيَدْلِلَ
عَلَى مُخَازِنِهِ وَأَمْوَالِهِ، وَلَكِنْ بِلَا جَدْوِيِّ، طَبَقَ خَازِنُ بَيْتِ
الْمَالِ نَظَامَ الْخَسْبَةِ الْمَلُوكِيِّ عَلَى (مُحَمَّد) وَأَبْنَائِهِ، حَصَرَ جَمِيعَ
مُتَكَاثِرِهِمْ لِتَسْلِيمِهَا لِلْسُّلْطَانِ حَتَّى ذَهَبَ (إِبْرَاهِيم) لِلْسُّلْطَانِ
بِشَكْلِ رَسْمِيٍّ يَطْلَبُ الْعَفْوَ عَنْ (مُحَمَّد) لَكِنَّ السُّلْطَانَ
رَفَضَ.

عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ اجْتَمَعَ السُّلْطَانُ مَعَ (ابْنِ الطَّبَلَوِيِّ)
وَ(إِبْرَاهِيم) بِشَكْلِ سَرِيٍّ لِيَدْلِلَهُ (إِبْرَاهِيم) عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ
مُتَكَاثِرَاتِ (مُحَمَّد) الَّتِي لَمْ تُسْجِلْ فِي بَيْتِ الْمَالِ، مَائَةٌ
وَأَرْبَعُونَ قَنْطَارًا مِنَ الْذَّهَبِ وَأَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ عَدَّاً وَنَقْدًا،

أو بلغة اليوم مليون دينار، وألف ألف درهم من الفضة، وأعداد لا تُحصى من الغلال والبضائع والأعمال والتحف إلى الخ إلى الخ.

استلمها السلطان وأعطى جزءاً منها للموالي ليسد عجزه المالي وإن كان السلطان يعلم بأنه ضعف ما أخذه احتفظ به (إبراهيم) لنفسه هو و(ابن الطبلاوي)، لكنه رضي بذلك بل ورقى (إبراهيم) ليتولى (ناظرة الخاص) تحت يد (ابن الطبلاوي).

لكن كل ذلك لم يشفي غليل (إبراهيم) الذي زار بشكل سري خزانة الشمائل بالقلعة ليلاً، وقد أغدق على الحرس الدرهم الفضية حتى يدخلوه إلى عنبر (محمد) داخل السجن.

أوصله الحارس حتى باب الزنزانة وفتحها له ليدخلها بخطوات صامتة، على الأرض نام (محمد) بملابس الداخلية والدماء متجمدة على وجهه الذي فقد معظم ملامحه من تكسر عظامه وانتفاخ فمه من التعذيب.

– استيقظ يا أمير.

فتح (محمد) عينيه الوحيدة السليمة ليرى صاحب الصوت، انتابته موجة من الفرحة وهو يحاول النهوض و(إبراهيم) يساعدنه أن يرتكن للحائط و(محمد) يقول بصعوبة بالغة من آلام جسده:

- الحمد لله الحمد لله، كنت واثقاً أنك لن تتركي هنا
لأموت.

- لا تقلق يا أمير، فتدبريري كلل بالنجاح.

- الحمد لله.. هل أخفيت الأموال جيداً؟

- أموالك ومخازنك بين يد السلطان و(إبن الطبلاوي)
ويندي، وطبقت الحسبة عليك منذ يومين وأخذنا كل شيء،
والآن حريمك ونساؤك يتسلون في الحارات والأزقة.

اتسعت عينه الوحيدة المفتوحة فزعًا، حاول النهوض
لكنه فشل.

- أتعرف يا أمير أن عائلتي تسخر الجان لخدمتها، وخدام
جدي من الجان أخبروني باللقاء الذي جمعكمما قبل إعدامه،
أتذكر ما قاله لك؟

صرخ (محمود) وهو يحاول النهوض ويفشل ثانية
و(إبراهيم) يقول:

- صلاة الماليك الخيانة، وضيامهم الكذب، وزكاتهم
القتل، وقبيلتهم التي يحجون إليها هي عرش مصر
زادت صرخات القهر من (محمود) وتحولت لنحيب
و(إبراهيم) يغادر الزنزانة وهو يعطي للحارس قطعة من
الذهب ويقول:

- غداً يعلن خبر وفاة الأمير (محمود) من التعذيب.

(2)

2011

طرق (سليم) بباب شقة (فتحي) بعنفٍ ففتح له هذا الأخير وأشار له ليدخل لغرفة الصالون، بعد قليل لحق به وجلس يقول:

- زوجتي نائمة لكن أخفض صوتك على سبيل الاحتياط، هل أعددت الفتى لأبيه؟
- أدخلته منذ قليل ولم يشك أحد في أي شيء، دوري للأكل.
- تفضل.
- من زحام الأسئلة في عقلي لا أعرف كيف أنتقي أحدهم.
- ليس عندي وقت لحديث غير عملي، قل ما جئت لتقوله.

سحاب (سليم) شهيقاً ليكتب ثقة وقال:

- من أعطاك الحق لتقتل (صالم)؟
- أجبتك في المقابر منذ قليل.

- كيف أصدقك أنه تجسس علي؟، من أنت على أي حال؟

- لك كل الحق في معرفة الحقيقة فأنت لست مثلهم على كل حال.

- مثل من؟

- جماعتك الذي يطلقون على أنفسهم رجال أرض النحاس، إلا أن (عمران) اشتهرت قديماً باستخراج النحاس تسمون أنفسكم بهذا الاسم، أهون نوع من الاستهال؟ لم يفهم (سليم) الدعاية ناهيك عن عدم تصديقه أن يتكلم (فتحي) بتلك البساطة بدون رسم العنججية التعالي الذي يجيدهم.

- أستاذ (فتحي) كيف تعلم كل هذا؟

- سأبدأ لك من البداية التي تخصك.. والدك (صابر) رحمه الله أتى لمصر لا ليتبع مقتل السحرة، بل لمواجهة الكائن الذي يتحكم فيه (مالك غراب)، ما امتلكه من مخطوطات وخلال بحث طويل أوصله لشيخي ومعلمي (حسين جاد) ليتفق معه على مساعدتي في إعداد (عبد الرحمن).

- من؟

- كما سمعت، أنا أقيم هنا منذ مولد (عبد الرحمن) لأكون قريباً منه وأدرّيه على ما سيواجهه، (صابر) أحضركم وأقام هو الآخر بجانبه حتى يشب ويكبر ويكون عوناً له.

هَرَّ (سليم) يده بحركة غير مفهومة وهو يفتح عينيه
ويغلقها فائلاً:

- أتتحدث عن (بودي)؟

- هو بعينه.

- والذي كان سيكون عوناً لبودي.

- اخرس أنت ودهشتك، واسمع لتفهم.

- جماعتك تواجهت مع هذا الكائن في زمن المماليك
البرجية، عن طريق السيطرة على سيد الغرفة النحاسية
واعطائه هدية قيمة يستعملها فيما يبغى.

- حاول تبسيط كلماتك لأفهم.

بنفاد صير قال:

- سيد الغرفة له خادم من الجن (الجساس)، جماعتك
أعطتهم خادماً من البشر، اسمه (ناصر بن دوام)، كان من
المقدر لناصر أن يعيش في بلدكم (عمان) ليكون خادماً لغرفتها
النحاسية، لكن جماعتك أرسلوه ليخدم الغرفة المصرية، كل
هذا ليس بسيطرة على هذا الكائن ويخضعوه لهم، لكن (ناصر)
انقلب على جماعته وعلى الغرفة النحاسية وانتحفى بمصر.

- وما فائدة (ناصر) هذا؟

- المعادن لا تخترق جسده وبضعة أشياء أخرى.

- كيف لا تخترق جسده؟

أشار (فتحي) لجسد (سليم) وقال:

- زرعت في جسده أحجوبة طلسمت بأقلام روحانية لا يعرف سرّها إلا (ناصر) وأجداده، وهو الوحيد وذراته الذين يمتلكون جينًا خاصًا يمكنهم من تحمل وجود تلك الأحجوبة داخلهم.. في عصر المماليك فشلت جماعتك في السيطرة على الكائن، حتى ظهرت تحركاته ثانية في الغرفة النحاسية بيبلدك، وعاد حلم السيطرة عليه للظهور، (مؤيد) يحلم بالوصول له، ووالدك حلم بقتله.

- لم تجني عن علاقتك بهذا.

- أنا وشيخي توارثنا سر عمل حجاب الجلد من (ناصر بن دوام) نفسه وراقبنا نسله حتى جاء الوقت الذي ظهر الكائن وأتي والدك وبدأنا التعاون.

- كل هذه الجماعات التي تعامل مع الجن في مصر!!!
أليس هناك شخص طبيعي ينتهي؟

- ماذا تقصد؟؟

- لا شيء.. إذاً فأنت تقول إن أستاذ (أحمد) الموظف المخترم يمكن أن يتحول لرجل مضاد للرصاص.

- يجب أن يرى الجن من صغره ليعتاد ما سيفعله، ولو استطعت إقناعه برؤيةihan من الآن تفضل نيابة عنـي.

- أنت من فتحت الرؤية لبودي؟

- والدك هو أول من فعلها قبل موته بقليل لذلک استطاع الطفل رؤیة الكائن كما حکى لك، وأنا من أكملت من بعده.

- لكنني حاولت أن أحمو ذکرى ما رأی من خلال قرینه.

- هذه إحدى صفات نسل (ناصر بن دوام) قرنائهم مميزين وإن تعلم (عبد الرحمن) ما أنسى عليه ستفهم سرّ تميّز قرنائهم.

استرخي (سلیم) في مقعده وهو يقول:

- معنی هذا أن (بودی) أجداده من سلطنة (عمان) مثلی، بل ومن رجال أرض النحاس.

- اسرح بخيالك كما تريده لكن عليك بفعل أهم شيء الآن.

- أشياء كثيرة يجب عملها.

- أولاً أن توجّد لأحمد سبباً كي يرحل بعيداً بصورة مؤقتة، أستطيع إيجاد عقد عمل له في بلدك في أسرع وقت؟
- (مؤيد) يستطيع.

- أبتعد عن (مؤيد).

- أبتعد عنه وألقي نفسي تحت أقدام رجل يحكى لي قصة مسلية عن معادن لا تخترق الجسد و طفل سيصير سوبر مان في المستقبل، و فوق كل هذارجل قتل (صالم)؟

ضاحك (فتحي) ساخراً وقال:

- اختر جانبي أو جانب (مؤيد) كما يحلو لك، لكن لا تنسَ أن (مؤيد) ينفسي عليك أكثر مما يطعن، وسترى بنفسك الأيام القادمة عندما تتلطخ يدك بالدماء.

- قلت لي ما الفارق بينك وبين (مؤيد)؟

اقرب (فتحي) برأسه وقال:

- هو يحلم بالسيطرة على الكائن، وأنا أُنوي قتله.

استيقظ (جمال) من نومه مفروعاً ينظر لزوجته النائمة بجواره على الفراش، هناك صوت سمعه ويُكاد يقسم على ذلك، سُعِل من آثار السجائر التي يحرقها قبل نومه وأطلق سبّة على التدخين ثم نهض وهو يتناول علبة السجائر من على الكومود ويخرج إلى صالة الاستقبال.

جلس على مقعد مريح وقرب مطفأة السجائر منه وهو يشعل سيجارة ويُسعل مجدداً، تأمل صورة زفافه المعلقة على الحائط أمامه ثم نظر لكرشه وزنه بحسرة.

- كنت وسيئاً مفتول العضلات ناعم الشعر.. ماذا حدث؟

قالها نفسه وضحك وهو يُسعل، أشتم رائحة في الجو فقرب دخان السيجارة من أنفه واشتمه، لم يجد فيه ما يريض، سحب نفساً آخر لكنه أشتم نفس الرائحة، بخور كما أعتقد، خليط من العطور، عقله يعالج المعلومات التي تلقاها من نفسه، يخللها، يعرضها على ذكرياته، أين أشتم

هذه الرايحة؟؟

أنت الذكريات بجمال من مكان سحيق، التواصل مع
الجان!! نظر حوله بسرعة فوجده رجلاً يجلس على أحد
مقاعد طاولة الطعام البعيدة الغارقة في الظلام، فَكَرْهَ
يرى رجلاً فعلاً أم أنه تأثير الظلام والاستيقاظ من النوم؟

تحرك هذا الرجل ونهض من مقعده يتمشى ناحيته، وقع
(جمال) أرضًا عندما حاول القفز من مكانه لكنه نهض
والرجل الغريب يقترب منه، جسده وملابسها تطابق وصف
شاب طويل الجسد، أما وجهه فأقرب لوجه القرد لو
أضفت له قرون قصيرة وعيون سوداء تماماً وأذن حسان.

- بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله.

صرخ بها (جمال) وهو يرفع يديه أمام وجهه للحظة،
أنزلها ثانية متى الـ كـ أعصابه يتفرس في هذا الوجه المخيف
ويقول:

- أنت لست جنّياً، بل تمارس نوعاً من سحر التلاعب
لتخفي وجهك.

تكلم الرجل فخرج صوته رناناً يقول:

- أجب عن أسئلتي وربما أتركك.

تحفز (جمال) وفرد ظهره وهو يقول:

- أنت لا تملك شيئاً يخيفني، مارست ما تمارسه في صبافي.

- والآن تمتلك عائلة تخشى فقدانها، أليس كذلك؟

لم يتكلم (جمال) لكنه نظر للأرض قائلاً:

- كنت أتمنى ألا تتحدث عن عائلتي.

تبع عبارته بقفزة لا تناسب جسده الممتلئ ليهبط أمام الرجل ويشبك معه.

- كما قلت منذ أسبوعين يا أستاذ (أحمد).. اعقلها وتوكل.

قالها أستاذ (فتحي) بطريقته المتغطرسة حتى وهو ينصحك، بينما (أحمد) جالساً مرتبكاً بملابس الخروج وبجانبه حقيبة سفر ضخمة يقف بجانبها (بودي) صامتاً.

منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع أتى (سليم) بعقد عمل بمربى ضخم في شركة عالمية في سلطنة (عمان)، عرض الأمر على (أحمد) فرفض ووافق ورفض ووافق، ظل في حالة التخبط أسبوع كامل، والمشكلة أنه يخشى على (بودي) من الإقامة وحيداً في مصر، صحيح أن (هالة) عمته سترعايه من وقت لآخر، و(سليم) يقيم بجانبه، لكنه ما زال طفلاً، وفكرة نقل دراسته لبلد آخر شبه مستحيلة.

حتى ظهر أستاذ (فتحي) بشاربه المنمق وحكمته التي طالما لم يستطع (أحمد) مقاومتها، جلس معه ساعة واحدة طمأنه فيها على كل شيء، من ضمن ما قال أنه حان الوقت ليتعلم (بودي) معنى المسؤولية وتلك فرصة لن تعوض، وأيضاً حان الوقت لإدخار بضعة نقود لتأمين حياة (بودي)،

كما أنه حان الوقت لأن يعيش (بودي) معه هو وزوجته وخاصة أنها لم يُنجِبَا أطفالاً، وكما تعرف فقد حانَ الوقت ليتحول (فتحي) لأستاذ (فتحي) الخارق الذي يعرف كل شيء في وجهة نظر (أحمد)، تقريباً ترددت عبارة (حان الوقت) ألف مرة وسط الساعة التي افتتح فيها هذا الأخير بأهمية السفر.

الأوراق انتهت بسهولة وتم حجز التذاكر والآن موعد السفر، الكثير من الأحضان لأستاذ (فتحي) والتوصيات، ثم ظهور (سليم) يتعجل (أحمد) ليلحقاً موعد الذهاب للمطار.

حل (بودي) حقيقة السفر ويهبط بهامع والده، أما (فتحي) فämpسكت بذراع (سليم) خارج الشقة وقال في أذنه.

- (مؤيد) في مصر منذ أيام، هل كنت تعرف.

- لا.

- إذاً تعرف بمقتل عائلة (جمال الجوهري) في شقتهم حرقاً.

رنَّ الاسم بعقل (سليم) وتذَكَّره، (يوسف) قال بأنه سيداً بجمال صديق (مالك) القديم، سقطت مفاتيحه على الأرض من الارتباك و(فتحي) يقول:

- هل اخترت جانباً بعد أم ما زلت على حالك؟

(3)

١٣٩٨ م - القاهرة - مصر

لا حديث سوى عن (علاء الدين بن الطبلاوي) والي (القاهرة)، الناس في المحروسة يتعجبون مما أصابه، بعد أن كان من أقرب ندماء السلطان نزلت عليه لعنة غريبة، الأمير (إبراهيم بن غراب) ذهب إلى (يلبغا المجنون) الذي أصبح (أستاذاراً) ليقضي إليه بسرّ خطير.

(ابن الطبلاوي) سارق، نعم فقد سرق من دار الأمير (محمود الأستادار) رحمة الله الكثير العام السابق، وخرزه في منازل ومخازن سرية يمتلكها، والأدهى أنه يطمع في إزاحة (يلبغا) عن منصبه والإتيان بالأمير (جركس المصارع).

ودارت العجلة ولف بابن الطبلاوي راكباً حماراً ومسلاً بالحديد، جرسه العامة ولفظه الخاصة، وحجز لنفسه موضعًا بخزانة الشمائل، عذبوه حتى اعترف بكل موضع خبأ فيه مالاً أو بضاعة أو غلة، ويقولون إنه اتحرر بمحبسه وإن لم يصدق العامة ذلك.

وارتفع شأن (إبراهيم) بين الملائكة، وأصبح من أمراء الألوف تضرب عند منزله الطبول في الدخول والخروج، وله من الملائكة مما يفوق المائة، لكن مع كلّ هذا حافظَ (إبراهيم) على حضور دروس (ابن خلدون)، بل وتوسط له عند السلطان ليدخل في سلك المناصب الإدارية.

- مات (ابن الطبلاوي) يا (إبراهيم).

يقولها (ابن خلدون) بصوت خافت وهو يجلس بالقرب منه في داره، فيرد (إبراهيم):

- رحمة الله يا شيخنا وتجاوز عن ذنبه.

- يقولون إنك أزحته لتصبح والي (القاهرة).

- ولادة (القاهرة) منصب بعيد عن يدي.

- كرسي السلطان قريب منك إن أجدت السياسة.

- سياسة الملائكة تختلف عنها تدرستنا يا شيخي.

- السياسة واحدة، أما تطبيقها بعدد أنفس البشر.

- أعدائي يتربصون بي.

- تحالف معهم حتى يضعفوا، ثم ناطحهم أمرهم.

- سياسة الملائكة القتل.

- لا سياسة مع الدم، إن لطخت يدك به تقترب نهايتك.

يقول بعض العامة إن (ابن خلدون) معلم (إبراهيم) الأول الذي وسع مداركه وحسن فطنته، والبعض يقول إن

معلمه الأصلي هو الأمير (محمد الأستادار) وقد غدر به ليبين له أنه تعلم الدرس جيداً.. أما صديقه السابق (أحمد المقرizi) الذي فضل الابتعاد عنه فيقول في مجالسه الخاصة أن معلم (إبراهيم) هو الطباق، وفيه عرف بالقاعدة الذهبية للسياسة في عصر الملاليك.. ((الحكم لمن غالب)).

لكن الوحيد الذي لم يرض بما حدث هو (ناصر) الذي جلس مع (إبراهيم) يوماً وسأله بحزنٍ:

- ناطحت أميرك (محمد) وهزمته، وستطأطح (يلبعا الجنون) وتبيده، لكن لم ناطحت (ابن الطلاوي)؟

حدق (إبراهيم) في عينيه طويلاً حتى قال:

- أقصد أني قتلتة لأنه كان سيد الغرفة النحاسية في الخفاء؟ أم تعتقد أني لم أعرف بذلك يا عمسي؟

امتنع وجه (ناصر) و(إبراهيم) يكمل:

- قلت إنك ابتعدت عن الغرفة وندمت على أيامها التي وللت.

- لكن الرجل لم يكن ينوي أذيتك.

- لكنه كان سيفعل بعد سنين، سواء كان (ابن الطلاوي) والي (القاهرة) أو سيد الغرفة النحاسية.

- وما القادم يا (بن غراب)؟

- أفضل من السابق

- أنت تعاقب من قتلوا جدك ومن لم يقتلواه.
- لو كنت مكانى لفعلت المثل.
- لكنى أحمل دماء جدك على عاتقى، متى سيأتي دورى؟
- أنت من أهلى، ولا خيانة من الأهل حتى لو رأيتها أيام عيني .

١٣٩٩ م - القاهرة - مصر

القلعة تهتز تحت أقدام أمراء المماليك من (مصر) و(الشام) أتوا بآلاف العساكر لجسم خلاف يظهر في الأفق، السلطان (برقوق) على فراش الموت والطامعون في كرسي العرش يختبئون بين الأمراء، أو لنقل أنهم معظم الأمراء.

هل سيقبل المماليك بتوريث عرش السلطة كما حدث مع عائلة (قلاؤون) في عصر المماليك الترك؟ مبدأ المماليك الأصلي معروف، لا توريث إلا باستثناءات، يجب أن يتأقى السلطان على ظهر فرسه، يتلقى تدريسه في الطباق، يحارب وسط صفوف الجيش، تحول جروحه في المعارك إلى أوسمة على جسده تؤهله لاعتلاء العرش.

واليوم سيحسن الجدل أو تحدث مقتلة عظيمة بين الأمراء المتحفزين، وإن كان في مكان آخر داخل أروقة القلعة يجلس (فرج بن برقوق) ذو الثلاثة عشر عاماً مع (إبراهيم بن غراب) وأمير جاندار وحاجب الحجاب.

- أوصى لك السلطان بالعرش من بعده ونحن نشهد على ذلك.

قالها حاجب الحجاب فاعتلت القسوة وجه (فرج) وقال:

- إذاً لنعلنها على الملك الغاضبين ليخرسوا.

تحنح الأمير (إبراهيم) وقال بأدب:

- مولاي السلطان (فرج)، لو أعلنناها لمن تجد مناصرين لك وسط النساء، الحال بما فيه من تقليل الشأن إلا أنه الأعلى أمّا.

- لن أتنازل عن العرش لأيّ أمير.

- معاذ الله، بل سنفكّر بعقول النساء، لو أحسوا بقوتك من البداية لأُهُوا على حياتك، أما ضعفك الظاهري فيزرع في نفس كلّ أمير أنّ السلطة ما زالت متاحة أمامه.

- أوجز القول يا (بن غراب).

- سأخرج من عندك وأطلب اجتماع أمراء الألوف والطبلخانة والجандارية وكلّ من لهم كلمة في الدولة، وأعرض عليهم فكرة أن تحكم أنت اسماً فقط وتنتفق على أميرين منهم يديرون الدولة بحجّة صغر سنك.

- أكيل نفسي بيدي؟

- لا، نعطي لأنفسنا الفرصة لنعرف العدو من الصديق، من حاول التسلط عليك وقتها من النساء نضعه في خانة

العداوة، ومن وقف بصفتك يصبح خير صديق.. يا مولاي
نحن نلقـي بحـجر في مغـارـة لـتـخـرـج الشـعـابـين والـعـقـارـبـ منـهـا
فتـقـيـ شـرـهاـ.

وكان ما أقرّه (إبراهيم)، نجحت الخطة ومات السلطان
(برقوق) الذي شك بعض العامة في أنه قتل، وتسلطن
(فرج) ظاهريًا، وبدأ عصر جديد من اصطدام أمراء المماليك
من قبل (بن غراب) الذي أمسك مقاليد الدولة بين يديه.

(4)

2011

- عندي لك اعتذار وقصة وطلب.

قال (سليم) عبارته وهو يجلس على طاولة الطعام بشقة (بودي) الذي استمع له ببرود وقليل من الدهشة لحضور (فتحي) هذه الجلسة.

- تفضل، أستمع لك.

- اعتذر عما فعلته معك في المقبرة، لم أكن أعنفك بل أعنف نفسي، تمنيت أن يلقي بي أحدهم في قبري ويغلقها عليّ. وسط ببرود وجهه (بودي) ظهرت الدهشة وهو ينظر بطرف عينه لفتحي.

- أستاذ (فتحي) يعرف كل شيء، في الواقع عنده قصة تخصك، إن فضلت أن تسمعها.

روى (فتحي) نفس التفاصيل التي قالها سليم من قرابة شهر، وبودي يحافظ على وجهه البارد إلا من بعض لحظات لم يفهم شيئاً فأوضحه له (فتحي).

- إذا أنا مُهِمٌ بـشكلٍ ما.

- نعم.

- وأهميتي أنني أستطيع فعل شيء ما وأقتل وحشًا على حسب ما فهمت.

- لنقل نعم.

كان جليًا أن (بودي) لم يعد هو الذي دخل القبر، تراقص في عينيه نظرات تأرجح بين برودة المشاعر والكره، لم يكن تمثيلًا أو محاولة ليكسب نفسه حالة، بل كانت طبيعته الجديدة.

- وما المطلوب مني؟

سؤال (بودي) فكاد أن يرد (فتحي) لكن (سليم) قال:

- أعلم علم اليقين أنك لم تعد شقيبي كما كنت، وعلى كل الأحوال أنا فقدت ثقتي بنفسي وعقلي منذ ذلك اليوم، لكن سأطلب منك أن تتعرض لحجاب الجلد لتحمي نفسك قبل أي شيء إن حدثت مواجهة قريبة.

- مواجهة مع من؟

- مع أي شخص، مع (مالك) أو (مؤيد) أو حتى معي أنا.

تدخل (فتحي) في الحوار قائلاً:

- ما سيحدث سيكون مؤلماً لك ولا أعلم كل عواقبه.

- وما يجبرني عليه؟

- لن يجبرك أي شخص، لو كنت في موضعك يا بني
لرفضت بلا نقاش.

قاها (فتحي) بخيه أمل لكن (بودي) قال:

- (سليم).. هل تيقنت من أن (مالك) هذا هو من قتل
عمو (صابر) وأمك و(فاطمة) و(هاشم)؟

- أنا متيقن منذ سنين ولم أعرف لنفسي حتى الآن
بالحقيقة.

- أي حقيقة؟

- أنتي خائف من مواجهته.

- متى يمكنني بدء حجاب الجلد هذا؟
كاد (فتحي) أن يصرخ من الحماسة قائلاً:

- من الغد لو أردت.. سأخبر أباك أنك في نزهة طويلة
لزيارة الإسكندرية معي أنا وزوجتي لأغطي على سفرك.

- سفري؟

- نعم سوف نجري العملية في مكان بعيد عن هنا.

لم ينام (بودي) ولا (سليم) على فراشيهما تلك الليلة في
منزل الحاج (حسين) بالقرب من قرية (شاترمة)، وصلا
 بالأمس مع (فتحي) واستقبلهما الحاج بنفسه، لم يتحدث أيُّ
شخصٍ عن حجاب الجلد أو الجان أو خلافه، كان حديثاً

شِبَهٌ وِدِيٌّ حاول فيه (حسين) أن يلطف الأجواء على قدر المستطاع، وبعد العشاء أوصلاهما لغرفتهما في الطابق الثاني. صوت طرقات على باب الغرفة أعقبه صوت (فتحي) يدعوهما للنزول.

في الأسفل كانت هناك حركة نشطة من رجال يدخلون صناديق لاحدي الغرف وبعض الشباب يتحدثون مع (حسين) وهو يوجههم لاحضار بعض الأشياء فيطبعون أوامره بلمح البصر.

ظهر (فتحي) وهو يعطي قرصاً دوائياً لبودي وكوباما من الماء.

- ابتلع هذا الكبسول، سيريحك نفسياً.. لا تقلق فهو مهدئ من وصف طبيب سأعرفك به.

تناول (بودي) قرص الدواء وجلس متظراً حتى خفت الحركة في المكان، ومن تلك الغرفة التي دخلتها الصناديق خرج رجل الخمسين يرتدي مريحة طيبة خاصة بإجراء العمليات جعلت قلب (بودي) يقع بقدمه.

- أنت (عبد الرحمن) أليس كذلك؟

قالها الطبيب وهو يمد يده ليصافح (بودي) و(سليم) القلق، أشار (فتحي) له قائلاً:

- دكتور (فادي جورجي)، استشاري جراحة عامة، معنا منذ البداية، تفهمون قصدي طبعاً.

- معكم !!، أقصد أنه يفهم ما يجرى؟

قالها (سليم) بحدٍ فضحك (فادي) وهو يقول:

- أنا و(فتحي) تربينا على يد الحاج (حسين)، وورثت عن أبي سرّ ما يحدث، لا تشغل بالك فأنا أفهم مقصدك.
انتهى من عبارته وأشار للغرفة وهو يتقدمهم قائلاً:

- هيّا لأريك ما سيحدث.

دخل (سليم) الغرفة يسبق (بودي) كأنه يحميه مما سيواجهه وعيناه تدوران فيها، كانت كغرف الأطباء في المستشفيات الحكومية المصرية، بها بعض الأجهزة التي لم يتعارف على معظمها سوى جهاز التنفس الذي يراه في الأفلام وثلاثة بها بعض أكياس الدم، في منتصف الغرفة نصب سرير طبي وبجانبه أجهزة أخرى لم يتبيّنها.

- هذه الغرفة غير صالحة، (بودي) سيعود معي للقاهرة الآن.

قال (سليم) عبارته وهو يجذب (بودي) لكن (فتحي)
مذَّراعه يمنعه وهو يقول:

- أنت خائف وهذا طبيعي، لكن لا تنقل خوفك للفتي،
دكتور (فادي) قام بكل ما يجب عمله لتتم العملية بأمان.

تقدّم (فادي) ناحية (سليم) وقال بنبرة هادئة:

- أستاذ (سليم) لا تقلق على أي (عبد الرحمن)، الغرفة ليست متطرّفة لكنها مزودة بما تحتاجه وأكثر

ثم أشار للثلاجة وهو يقول:
- أترى.. حتى أكياس الدم المناسبة له موجودة بأكثر من حاجته.

- من أين لكم بفصيلة دمه؟
- (فتحي) يجمع عنه كل المعلومات من يوم ولادته في المستشفى وحتى الآن، لا تقلق

ثم نظر لبودي وقال:

- أتمن أن أناديك (بودي) أم (عبد الرحمن)؟
- أي شيء

- حسناً سأناديك (بودي)، أشعر بخوفك من العملية لكن كل ما سيحدث أن طبيب التخدير سيدخل بعد قليل ويعطيك حقنة بسيطة ستتمام وتصحو لتجد بعض الألم في أطرافك وظهرك حتى تلائم الجروح، وفي هذه الأيام سنمدك بالمورفين اللازم الذي سيدهب الكثير من الألم.. هل تفهمني؟

هز الفتى رأسه بالإيجاب، فقال (فادي):
- الآن اذهب مع (فتحي) لتغيير ملابسك وترتدي ما سيعطيك إياه.

خرج الفتى مع (فتحي) و(سليم) يقول:
- سأحضر العملية معكم.

- لاؤسف لا يمكنك، أحتاج للتركيز وأنت لن تحمل.
- سأحضر معكم.

- العملية ليست بالخطسورة التي تخيلها، أنا متواجد فقط للإشراف الطبي على الخطوات وتقديم المساعدة، لكن (فتحي) وال الحاج (حسين) هما الأساس.

- كلامي نهائى، سأحضر معكم وإلا لا عملية.
زفر (فادي) الهواء من فمه وهو ينظر يميناً ويساراً كأنه يستنجد بشخص غير موجود.

- اذهب لفتحي وهو سيحضرك للدخول معنا، ولكن إن أثرت أي مشاكل أثناء العملية فسأخرجك فوراً.

وقف (سليم) يرتدي ملابس أطباء الجراحية بعد أن ارتدى القفازات وغطى شعره وقدميه وفمه بالكمامة، وعلى الطاولة تمدد (بودي) بملابس العمليات وحوله وقف الجميع، (فادي) ومعه محضر آخر، طبيب التخدير الذي حقن في وريده ثم وضع قناع على وجهه ليغيب بعدها (بودي) عن الوعي.

قاد (سليم) أن يقع هو الآخر مغشياً عليه بعد مارأى طبيب التخدير يثبت أنبوباً متصلًا بجهاز داخل فم (بودي)، ويجانب كل هؤلاء وقف (حسين) و(فتحي) مرتدien نفس الملابس بنفس نظام التعقيم ويجانبهما على منضدة صغيرة صندوق مفتوح امتلاً بأوراق غلفت بأكياس بلاستيكية.

أشار (حسين) لفادي بعمل أول شق في جسد الفتى في جانبي ذراعه، فقام الممرض بحلاقة الشعر على المناطق المحددة ثم رسم (فادي) خطًا صغيرًا و هو يتناقش مع (حسين) و (فتحي) في المقاس المضبوط، بعد ذلك تناول (فادي) المشرط الجراحي و نفذ الشق بيد ثابتة و (فتحي) يخرج أول كيس ويفضه ثم يطوي الورقة التي كانت بداخله حتى أصبحت في حجم نصف علبة الثقب، ثم لفها بخيط دقيق ورشهاب ببرادة لزجة وناوتها لفادي.

هنا اهتز (سليم) وهو يرى (فادي) يضع الورقة بداخل جسد (بودي)، ولم يتمكن أكثر من ذلك وغادر المكان.

خرج الجميع من الغرفة بعد ساعتين ليجدوا (سليم) جالساً باستسلام على أحد المقاعد.

- لقد استفاق من التخدير اطمئن

قالها (حسين) مبتسمًا وهو يخلع القفاز الجراحي، بينما أشار (فتحي) له ليدخل الغرفة، جرى (سليم) للداخل ليجد (بودي) ممدداً شبه عاري و جسده يمتد باللاصقات الطبية الكبيرة في ذراعيه و بطنه و قدميه وعلى جانبي رقبته. و بجانبه علق جهاز يمدده بالمورفين من خلال محقن يتصل بذراعه الأيسر.. كان (بودي) مغمض العينين لكنه يتمتم بكلمات غير مفهومة.

- كيف تشعر يا (بودي)؟

بلسان ثقيل من أثر التخدير قال:

- أنا واع ولن أخرف.. أنا واع ولن أخرف.

ضحك (سليم) مطمئناً فسمع صوت (بودي) يقول

بنفس ثقل اللسان:

- لا تخبروا أبي.. لا تخبروا أبي.

ضحك (فتحي) وهو يضغط بإصبعه على موضع خالي

من الاصوات الطبية بجسده (بودي) ويسأله:

- هل تشعر بشيء؟

- نعم أشعر.

أمسك (فتحي) مشرطًا جراحيًا وقال لسليم:

- انظر.

وضع المشرط الجراحي على نفس الموضع الذي ضغطه بإصبعه، لكن هذه المرة حرك المشرط كأنه يقطع جلده، أمسك (سليم) يد (فتحي) لكنه انتبه، المشرط لم يؤثر في هذه المنطقة.

ساعاً الخبر مختلف عن رؤيته، اختلطت الدهشة بالفزع في عين (سليم) وهو يرى ما لم يكن ليتوقع أن يراه في حياته.. جذبه (فتحي) ناحية دولاب مغلق وفتحه ليخرج منه صندوقًا نحاسيًا مليئًا بالزخارف، فتحه وقربه من (سليم). كان مليئًا بأدوات جراحية، محاقن بأحجام مختلفة ومسارات

جراحية وإبر وخيوط طبية، لكن الغريب في كل هذا أن هذه الأدوات صنعت من الذهب الخالص كما أخبره (فتحي):

- المعادن لن تخترق جسده إلا معدن الذهب، سترافقه تلك المعدات الطبية طوال حياته القادمة.

أغلق الصندوق وأعاده للدولاب وهو يسحب (سليم) للخارج قائلاً:

- بعد قليل ستنقله لغرفة أعددت خصيصاً له الأيام القادمة، دكتور (فادي) أوصي بأن يتحرك من الليلة، وسيستعيد حركته الكاملة خلال أسبوع، ولا تقلق لن تحدث أماكن الخياطة في جسده الكثير من التشوّه، سيلتstem جلده بأسرع مما نتوقع جميعاً.

كان الصمت العلامة البارزة مع (سليم) الذي ظهر وكأنه يفك في شيء ما.

نقل (بودي) للغرفة وجلس (سليم) مع (حسين) و(فتحي) على طاولة طعام يتحدثون حتى سألهم (سليم):

- متى سيعود (بودي) لمنزله؟

- ليس قبل أن ندربه.

- على ماذا؟

هنا رد (حسين) قائلاً:

- أعتقد أن كل ما يمتلكه (عبد الرحمن) الآن هو جسد لا يخترق؟ تلك الخاصية وجدت لها في حياته أثناء استخدام قرينه.

- كيف سيستخدمه؟

- قرينه ملتصق بك حتى مماتك، لو ابتعد عنك فيعني هذا موتك أو اقتراب أجلك بعد ثوان أو دقائق، صاحب حجاب الجلد يمكنه إخراج قرينه من جسده ليقاتل به، ولكن أمامه فرصة أقل من دقيقة أو اثنين قبل أن يموت صاحب الحجاب إن لم يعد قرينه بجسده.. أثناء فصل القرین عن الجسد سيكون (عبد الرحمن) في أضعف حالاته، كأنه في حالة سكر، عدم اختراق المعادن بجسده هي لحياته في هذه الحالة من أي هجوم عليه.

قال (فتحي) هنا:

- ألم أقل لك إن قرينه (بودي) عزيز، سنعلمك كيف يتواصل معه ويتتحكم به ومن الليلة.

سكت (سليم) وشد للحظات ثم قال:

- سأعود غداً للقاهرة فلي مصلحة لم تنقض بعد.

- نحن الآن في مركب واحد، أخبرنا.

- سأمنع (يوسف) و(مؤيد) من قتل المزيد، كنت أنتظر الاطمئنان على (بودي) وأعتقد أنه جاهز

- انتظر لنعود جميعاً لنرسم خطة جيدة كي نوقف (مؤيد) ونستدرج (مالك) ليخرج الكائن ونقتله
- سأنتظركم في (القاهرة) إذا.

(5)

١٤٥٣ م - القاهرة - مصر

اختفى السلطان (فرج بن برقوق)، من سيصدق هذا!!
يصحو العامة من النوم ليعرفوا أن لا سلطان في القلعة،
انتفض الأمراء ومن بينهم الأمير (إبراهيم بن غراب) الذي
خرج على رأس مائة مملوك يبحثون عنه في صحراء (الرايدانية)
وما يحيط بها من مناطق، كذا فعل بقية الأمراء لتعج مصر
بين ليلة وضحاها بآلاف المماليك المسعورين يبحثون عنها لا
يعلمون ماهيتها.

جثة.. رداء.. دماء.. أي شيء يشير للسلطان لكن بلا
جدوى.

أما (إبراهيم) فعاد للقلعة يتظاهر بالأمراء القادمين من
جهات المحروسة، بعد ساعات اجتمع أكثر رجال الدولة من
الأمراء داخل قاعة العرش ودار النقاش عما سيحدث، توالت
الآراء والتي انصبَّ معظمها على إكمال البحث عن السلطان
الغائب، إلا أن (إبراهيم) حذرُهم من مغبة ذلك الفعل، لوم
بنصب سلطان موضعه لتقاتلت المماليك في بحر أيام.

استحسنوا رأيه فأضاف بأن الأنساب هو توليه شقيق السلطان الغائب (عبد العزيز بن برقوق) ووضع وصي عليه، وقبل أن يتجادل الأمراء اقترح عليهم (إبراهيم) اسم الأمير (بيبرس الأتابك) والذي لا خلاف عليه.

وكي لا يكتب أحد عداء الأمير (بيبرس) المشهور ببطشه وافقوا بالإجماع وبدأت مراسيم تنصيب السلطان على عجل في الليل ليخرج المنادي فجراً يرزف الأنباء للعامة والخاصة. وعند مطلع النهار غادر (إبراهيم) مع بقية الأمراء القلعة وعاد كل منهم لمنزله، أما (إبراهيم) فدخل منزله بعدما انطلق المنادون وسط الأحياء، وصل لقاعة خاصة أعدّها منذ زمن، استأذن للدخول فيها فجاءه إذن صاحبها.

- مولانا السلطان المعظم (فرج بن برقوق) أدام الله عزك.

كان السلطان (فرج) يجلس بجانب الشرفة على وسادة محملية يرتدي ملابس منزلية متواضعة، نظر لإبراهيم بخيبة أمل وقال:

- صدقت يا (بن غراب) الماليك السلطانية كانوا يتحضرون لقتلي وتنصيب أخي مكانى، سمعت المنادي منذ قليل يعلن تسلطه.

جلس (إبراهيم) على ركبتيه وقال:

- قلت لك مراراً يا مولاي أن الأمير (بيبرس الأتابك) يعد العدة ليقلب عليك، ولم يمر يوم إلا واجتمع بنا في القلعة لتنصيب أخيك.

لم ولن يصدق أحد في وقتها أن السلطان هرب على حصانه ليلاً ليس معه إلا طواشيه الخاص ليقابل (إبراهيم) عند باب القلعة السري ويبدل ملابسه ثم يأتي به لتراته، ولم يتوقع الأمراء أنها إحدى ضربات (بن غراب) لهم كعادته وهذه المرة ستكون الضربة ليبرس الذي نازعه في سلطة البلاد.

فإبراهيم الآن بيده سلطة (الأستدارية) والقضاء ونظارة الجيش والدواوين وعدد لا يحصى من المناصب جمعها شخص واحد لأول مرة، حتى إن لقبه الرسمي أصبح (القاضي الرئيس الأمير سعد الدين إبراهيم بن غراب).

بعد شهرين من هذا التاريخ سيعيد (إبراهيم) السلطان (برقوق) لعرشه ثانية ويقضي على آخر أعدائه دفعه واحدة. صوت طرقات على باب القاعة جعلت (إبراهيم) ينهض ليفتحها مستفسراً، أحد خدمه يخبره بزيارة خاصة من رجل لا يرد.. إنه (ابن خلدون)، جلس (إبراهيم) كعادته بين يديه أديباً و(ابن خلدون) يقول:

- العامة يتحدثون عن عربان الإسكندرية.

- ما بالهم؟

- يقولون إنهم يستخدمون أسلحة غريبة عليهم، الدبوس والرمح والقوس والنشاب، ويقسم آخرون إنهم امتلكوا مدفع النفط.

- تغیر وجه (إبراهيم) وهو يتمتم:
- أغبياء، يستعرضون قوتهم.
 - متى مددتهم بالأسلحة؟
 - منذ شهر تقريباً.
 - أسلحة الملائكة في يد العريان بلا تدريب تساوي الموت يا (بن غراب).
 - بعد انتهاء أزمة السلطان سأرسل بعض عالكي الثقات ليبدأوا تدريبهم.
 - متى نويت على التحرك؟
 - بعد إنتهاء المشاورات مع عربان الفيوم وسیناء والصعيد، أقل من عام بإذن الله وسأكون جاهزاً.
 - والسلطان (برقوق) هل يقيم عندك الآن؟
 - نعم، كل شيء يسير على ما يرام.
 - خوفي من لحظة الصدام.
 - لا تخف يا شيخي، فعندى مكيدة أخيرة أدخلها الآخر لحظة.

(6)

2011

مررت ثلاثة أيام منذ عاد (سليم) للقاهرة، اطمأن على (بودي) بالهاتف أكثر من مرة، وعرف أن تدريياته بدأت وحركة جسده أصبحت أفضل من المعتمد، وعده بأن يأتيه بعد يوم عندما يتلهي بما وراءه.

قضى اليومين جالساً في صالة استقبال شقته، يلعب ألعاب فيديو جيم قليلاً، يشاهد أفلام على التلفزيون ويضحك من قلبه على الكوميدي منها، يطلب الطعام من الخارج هاتفياً، لأول مرة يشعر أنه في إجازة، وكأنه يكافأ على شيء فعله، أو تحديداً يشعر بالحرية، اختفى ثقل قلبه وجاءته ذكرياته السعيدة مع عائلته بدلاً من جثثهم المحروقة.

نام بعمق في غرفة نومه قرأ كتبًا عادية، أحسَّ بأنه شخصاً آخر غير الذي تعود عليه، في نهاية اليوم الثالث تلقى مكالمة من (مؤيد) برقم هاتف مصرى، ردَّ عليه بهدوء وسکينة، عندما طلب مقابلته وافق.

دخل ليستحم وهو يغlesi لحنا لا يتذكر مصدره، ارتدى

أفضل ملابسه وخرج من منزله يستقل سيارته وهو سعيد، بدلاً من الاتجاه لشارع الهرم مقابلة (مؤيد) ذهب لمدينة نصر عند مبني يحفظه عن ظهر قلب لأنه راقبه كثيراً.

دخل المبني وصعد للطابق الثامن عند شركة مقاولات طلب مقابلة السيد (مالك) مدير الشركة وأخبر السيكرتيرة أنه صديق دراسة قديم، بعد دقائق كان في مكتبه، لأول مرة يراه عن قرب، (مالك) ذو النظارة الطيبة والشعر فاتح اللون الذي ظهرت منه مقدمة صلعته، والطول الفارع والصوت الجهوري.. استقبله (مالك) بابتسامة عذبة ودعاه للجلوس.

- ذكرني بسيادتك لأن نظري ليس على ما يرام كما ترى.

ضحك (سليم) بصدق وقال:

- أنا (سليم صابر الحريري)، ألا يذكرك اسم عائلة (الحريري) بشيء؟

ففكر (مالك) وهو يتطلع إلى سقف الغرفة ثم قال:

- هل الاسم خليجي؟

- أنا من سلطنة (عمان).

- أهلاً بسيادتك، هل تقابلنا من قبل؟

- في الحقيقة أنت قابلت أبي وأخي منذ زمن، أعتذر لك على نسيانهما.

بابتسامة مجاملة قال (مالك):

- اعطني أي شيء لا تذكرهما.

قال عبارته وعرض سيجارة على (سليم) الذي رفضها فأشعلها هو.

- سأُنعش ذاكرتك، تقريباً عام 2002 قتلت أبي وأمي وأخي وأختي في شقتهم بالمعادي ولم أمت تلك الليلة لأنني كنت عند صديقي.

ارتسمت ملامح عدم الفهم على وجه (مالك).

- عذرًا !!! هل سمعتَ جيداً؟

- لا أريد الدخول في تفاصيل لتشغل بالك، أنا كنت من رجال أرض النحاس وإن كنتأشعر بالخجل الآن من اسم جماعتنا، ربما علينا التصويت على تغييرها.. المهم، أحد كبراء جماعتنا وهو (مؤيد) يريد السيطرة على الكائن أو الكيان أو الملك الثامن الذي تحكم فيه أنت وعائلتك منذ آلاف السنين، وبالمناسبة عليك اختيار اسم لهذا الكائن، أعتقد أن من يسخرون الجان عندهم مشكلة في اختيار الأسماء.

(مالك) يسحب أنفاس سيجارته ويرسم تعبر عدم الفهم على وجهه والذي تغير لتعبير المترقب، و(سليم) يقول بكل هدوء كأنه يتحدث في موضوع سعيد:

- (مؤيد) أرسل (يوسف) لقتل (جمال) صديقك القديم الذي كان يُساعدك في قتل السحررة، وربما حصل على معلومات عنك منه، ليجبرك على إخراج الكائن هذا فيمكنه هو السيطرة عليه عن طريق إعداد كمين لك، وإن كنت أرجح أنه سيستخدم ابتك وزوجتك كرهائن حتى تكشف عن موقع الكائن أو تعطى سرّ تحكمه له.

لم يتكلم (مالك) وأكمل تدخين سيجارته فابتسم (سليم)
وقال:

- والاثنان الباقيان من أصدقائك ينحطط لاستجوا بهما وربما
قتلها، تذكر أن السر كله في تحريك الكائن، فالغرفة النحاسية
في سلطنة (عمان) تستطيع رؤية مكانه إن خرج من سباته، آه
بالمثلية أين موضعه؟ فهو في قبر (إبراهيم بن غراب) أم في
معارة في جبل المقطم؟ توقعت أماكن كثيرة لكنني فشلت.

- لم شرفتني بالزيارة يا سيد (سليم)؟

- ربما تعجبت من مراقبتك طوال السنين السابقة، ربما
خفت على عائلتك التي أعرفها جيداً، ربما أشعر بأننا
صديقان حميمان لم يلتقيا من قبل وحان وقت ذلك.. المهم
أن تخمي عائلتك فلن أحمل دماءها القبرى، وبالمثلية أسعار
المقابر عندكم بمصر غالبة جداً.

بكل هدوء أطفأ (مالك) سيجارته وسأل:

- هل اشتريت قبراً بمصر؟

- نعم، لن تصدق جماله ما لم تره بعينك، مشكلته الوحيدة
أنه لن يزورني أحدٌ عند دخولي فيه.

- أخشى أن أخبرك بأنك تخلط بيني وبين شخص آخر.

وقف (سليم) وابتسم وهو يصافح (مالك) ويقول:

- لا مشكلة، تشرفت بمعرفتك، أعرف أنك أكثرت من
ذكر كلمة (المثلية)، لكن بالمثلية أنا مازلت أقيم في شقة
عائلتي بالمعادي ولا تحف فليس هناك كمين لك.

أُنهى عبارته وغادر المكتب.

لم يعد (سليم) لترزه على الفور، بل قام بدخول السينما، اختار فيلماً عشوائياً واشترى المقلّلات ليأكلها بالداخل، استمتع بالفيلم والمقلّلات وخرج من دار السينما يستمتع بنقاء الهواء، مرّ على محل لبيع البيتزا واحتوى ليأكلها على العشاء.

وصل لترزه وظل بملاسه التي خرج بها وهو يفتح البيتزا ويتذوقها باستمتاع، فتح التلفزيون وقلب في القنوات حتى وجد فيلماً لمحمد هندي، يقضم من البيتزا ويضحك حتى ولو كان مشهداً تراجيدياً.

رنّ جرس الباب، فكر هل توقعه في محله، فتح الباب فوجد (مالك) يقف ثابتاً.

- حماتك تحبك، عندي بيتسا بكل المكونات.

دخل (سليم) وهو يدعوه (مالك) للدخول برحاب شديد مغلقاً الباب خلفه، أغلق التلفزيون وعاد للجلوس على طاولة الطعام، دفع باليتسا التصل مالك الذي جلس على الناحية الأخرى من الطاولة لكن هذا الأخير هز رأسه نفياً.

- هل جئت لتهديدي اليوم في مكتبي؟

- لا تكون غبياً بالله عليك، جئت لتحذيرك.

- والسبب؟

فَكِرْ (سَلِيم) وَهُوَ يَمْضِي قَطْعَةً مِنَ الْبَيْتَرَا ثُمَّ قَالَ:

- لَأَنِّي أَحْبَبْتُكَ.

- هَلْ تَحْبُّ دَائِئِي السُّخْرِيَّةَ مِنْ حَوْلِكَ؟

- لَا أَبْدًا، هَذِهِ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَعْتَرَفُ فِيهَا بِكُلِّ شَيْءٍ،

أَعْتَرَفُ يَا (مَالِكَ) أَنِّي لَازِلتُ عِنْدِي يَوْمَ مَقْتَلِ عَائِلَتِي،
كَأَنِّي مَتُّ مَعَهُمْ وَتَأْخَرْتُ دَفْتِي حَتَّى الْآَنَ.

أَلْقَى بِقَطْعَةَ الْبَيْتَرَا فِي عَلَيْتِهَا وَتَنَاهُ مُنْدِيًّا مُبَلَّا مَسْحِ

بِهِ يَدِهِ وَفَمِهِ وَهُوَ يَضِيفُ بِجَدِيدَةٍ:

- رَاقِبْتُكَ أَنْتَ وَمَنْ حَوْلِكَ، رَأَيْتُ فِيكَ الْحَيَاةَ الَّتِي
تَمْنَيْتُهَا، خَدَعْتُ نَفْسِي بِأَنِّي سَأَنْتَهُمْ، وَالْحَقِيقَةُ أَنِّي جَبَتْ
عَلَى مَوْاجِهَتِكَ فَظَلَّتْ حَيَايِي مَعْلَقَةً، لَا أَنَا اسْحَبْتُ وَعْدَتْ
لِبَلْدِي وَلَا أَنَا وَاجِهَتِكَ وَمَتُّ بِشَرْفٍ، عَلَى الْجَانِبِ الْأَخْرَى
كُنْتُ أَنْتَ الْقَوِيُّ الشَّجَاعُ الذَّكِيُّ الْخَيْثُ دَمَرْتُ عَشْرَاتَ
السُّحْرَةِ فِي مِصْرَ وَاخْتَفَيْتُ لِتَكْمِلَ حَيَايِكَ فِي هَدْوَءٍ، تَزَوَّجْتُ
وَأَنْجَبْتُ وَنَجَحْتُ شَرِكَتِكَ، وَالْحَقِيقَةُ أَنِّكَ كُنْتَ لِي الْقَدْوَةُ
الَّتِي خَشِيتُ أَنْ أَتَبَعَهَا.

- كَانْ يَمْكُنْ أَنْ تَعُودَ لِبَلْدِكَ وَتَرْتَاحَ مِنْ كُلِّ مَا قَلْتَهُ.

- فَقَدْتُ هُوَيْتِي يَا (مَالِكَ)، لَمْ أَعْدَ أَعْرِفَ هَلْ أَنَا عَمَانِي
أَمْ مَصْرِيُّ، اخْتَاطَتْ شَخْصِيَّتِي الْحَقِيقَيَّةَ بِالشَّخْصِيَّةِ الَّتِي
اخْتَرَعْتُهَا، وَالْأَجْمَلُ أَنِّي اخْتَرَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ لَا وَاجِهَكَ وَانتَهَى
بِالْحَالِ بِدَلَّا مِنْ مَوْاجِهَتِكَ بِتَعْوِيذَةِ أَمْسَكْتُ فِي يَدِي قَطْعَةَ
بَيْتَرَا.

حافظ (مالك) على بروده وهو يقول:

- لم يكن قتل عائلتك في نيتني، كنت أخيف أباك لا ...

قاطعه (سليم) بإشارة من يده وهو يقول:

- لا تبرر شيئاً، أجب عن سؤالي فقط.. لم قتلت السحرة في مصر؟

بساطة قال (مالك) وهو يعدل إطار نظارته:

- أحدهم خذل زميلتي في الجامعة واغتصبها فدمى حياتها، أحببتها وقررت إعادة ثقتها، ونجح الأمر كما ترى.

- أهي زوجتك الآن؟

- نعم.

ابتسم (سليم) وقال:

- والآن ما خططك؟

- أنت قلت بنفسك، عائلتي في خطر لن يقسى أحد على قيد الحياة يمكن أن يمثل تهديداً لهم.

- وكيف ستصل لمن تنوی قتلهم؟

- سأستجوب قرينك.

ضحك (سليم) وقال وهو يلعب بياصبعه في أنفه:

- أتعرف أنني طوال التسع سنوات السابقة أقوم يومياً بتلقين قريني معلومات مغلوطة كي لا تستجوبه، لكن منذ بضعة أيام تركت قريني على حاله ربما كان يحمل شيئاً من هويتي الأصلية.

- أراك لا تنوي المقاومة.
 - أصبت، لكن لي عندك سؤال وطلب..
 - تفضل.
 - كيف تتوافق مع هذا الشيء؟
- فأك (مالك) أزرار قميصه وكشف عن كتفه الذي رسم عليه علامة تشبه الدائرة محفورة بالنار وقال:
- من هذه العلامة يصل لي في أي مكان فهو يراها، وإن لستها وطلبتها أتى في الوقت وال الساعة.
 - لم أفهم الآلية لكن على كل حال ألف مبروك وربنا يتمم على خير، طلبي الأخير كي لا أنساه، أريدك أن تبدأ بمؤيد، وترسل له تحياتي.
 - سأحاول.
- نهض (مالك) من مقعده فرفع (سليم) يده أمامه يقول بسرعة:
- انتظر انتظر، هناك شيء يجب أن تعرفه.
- ضحك (سليم) بقوة وهو يقول:
- فعلت كل ما فعلت في حياتك ومن سيقتلك اسمه (بودي).
 - (بودي)؟
- لم يستطع (سليم) التوقف عن الضحك وصوته يجلجل في أرجاء الشقة.

(7)

الأربعاء - 1406/3/18 م 19... رمضان 808هـ
القاهرة - مصر

الأمير (إبراهيم بن غراب) مريض، من ملأ الدنيا سخباً
وعنفواً طريح الفراش منذ أيام واحتار الأطباء في دواعه،
لم يصل لعمر الثامنة والعشرين بعد، وكاد أن يحكم مصر
والشام.

اختلفت الآراء عليه من العامة، منهم من قال بأنه خرق
الأصول والأعراف ولعب لعبة المهايلك، ومن قال بأنه
ناطحهم نطاح الكباش فاذلهم، ومن يهين السلطة يستحق
المدح والثناء.

لكن أعداءه لم ينكروا عليه أنه بنى المدارس والأوقاف لله،
وفي زمن الوباء دفن على حسابه عشرة آلاف جثة ارتمت على
الطرقات وتکفل بمثلهم من المحجاجين والعاطلين، واليوم
يأتي المهايلك من كل ربوع مصر والشام ليزوره في بيته.
يدخلون عليه مخدعه فلا يجلسون أمامه حتى وهو على

فراش الموت، للأمير هيته ولو كان جثة متحللة، يقدمون له الهدايا ويدعون الله بتعجيل شفائه، ثم يخرجون للشارع يتهامسون بأنها إحدى ألاعيبه ليعرف من يناصره ومن يعاديه.

يصوم (إبراهيم) لأن الطعام يؤلمه والدواء لا يفيد، يقولون إنه مبطون، مرض أصاب أمعاءه أو معدته أو أي شيء، المهم أنه يسحب الحياة منه يوماً بعد يوم.

يدخل (ناصر بن دوام) حماه ومعه أولاد (إبراهيم) يقبلونه ويتمسون له الشفاء، يطلب منهم (ناصر) المغادرة ويجلس هو على طرف فراشه يتأمل عظام وجهه التي ظهرت ويات ف يقول (إبراهيم) بيا رهاق:

- أوصيك بأولادي يا عمي.

- سأرسلهم لأخيك (ماجد) فهو سيطلبهم على كل حال، وهو أحق بهم مني.

تسرب دمعة ألم من عين (إبراهيم) ويقول بأنفاسه اللاهثة:

- ضاع كل شيء.

- لم تمتلك شيئاً ليضيع يا (بن غراب).

- امتلكت كل شيء واستعددت للوقت المرتقب ولكن ضاع كل شيء.

دمعت عين (ناصر) وهو يقول:

- أحلمت حُلماً بحُكم مصر؟

لم يرد (إبراهيم) فأضاف (ناصر):

- العريان المسلمين سترجع لهم التجريدات المملوكيّة
وتعيدهم قطاع طرق كما كانوا، لم ولن يصلحوا جيشاً يواجهه
المَلِيك، أم كنت تحضر لهم الملك الثامن ليُساعدك على
اعتلاء العرش؟ وتتكرر حكاية جدك (غراب)، الملك الثامن
يقتل المَلِيك والعامّة وتتسلطُّن أنت على عرش من الجيفة.

- كنت أحضر لثورة العامّة.

ابتسم (ناصر) ومسح دموعه قائلاً:

- أتعرف لم صنعني يا بني؟ لأقتل الملك الثامن، ولأنّي
جبان فقد تركت في يدك قوة لا تفهمها، وحان وقت
تصحيح أخطائي، السم يسري في جسدك يا بني، وأنّا من
دسته لك.

- من حرضك؟

- أعداؤك في كل مكان، ولو لم أقتلك أنا القاتل غيري،
ولن يهدأ باعُل للمَلِيك قبل أن يتخلصوا من كل معاونيك،
ربما مت أنت ومات بعدك (ابن خلدون) بمرض غريب
مثلك، ربما مات (ماجد) وربما مت أنا، الخصيلة واحدة.

بصعوبة قال (إبراهيم):

- شيخي كان يقول إنهم سيكتبون عنى عاش وأكل الطعام
ومات.

ابتسم (ناصر) وهو ينهض ويقبل رأس (إبراهيم) ثم
يغادر المخدع.

استأجر الناس أسقف بيروت والحوانيت ليتمكنوا من
رؤية جنازة الأمير (إبراهيم بن غراب) وهي تمر بين شوارع
المحروسة، نزل السلطان (فرج بن برقوق) من القلعة في
سابقة لم تكرر ليصلي عليه ويحمل التابوت بنفسه إلى مدافنه.
وبعد موت (إبراهيم) بيوم واحد، توفي (ابن خلدون)
فجأة يوم الخميس 20 رمضان 808 هـ

(8)

2017

استيقظ (بودي) في الصباح ونزل من على الفراش وهو يحرك أطرافه ويقدر نسبة الألم بعدما أوقفوا عنده المورفين فتح باب الغرفة في الطابق الأرضي ليجد (فتحي) و(حسين) وشابين يتجادلون بصوت مرتفع ملوحين بالأيدي.
توقفوا عن الجدال عند رؤيته.

- ما الذي حدث؟

سأل (بودي) فرد (فتحي):

- لا شيء.

صرخ (حسين) فيه:

- أخبره، فمن حقه أين يعرف.

هز (فتحي) قدمه اليمنى بعصبية وكأنه يسيطر على انفعالاته ثم قال:

- زوجتي أخبرتني على الهاتف أنهم سمعوا أمس جلبة في شقة (سليم) ولم يرد عليهم، حطموا الباب فوجدوا جثته ممزقة والأثاث محطم.

اختار (بودي) مقعداً قريباً وجلس عليه و(فتحي) يكمل:
- تأكيناً من أن عمار المكان من الجن قتلوا مثل حادثة
مقتل عائلته.

سقطت دمعة من عين (بودي) فمسحها بسرعة، تصلب وجهه فجأة وهو ينظر حوله ويقول:
- أنا لا أرى أيَّ جنٍ حولنا، ولا حتى عما.....

بتر (بودي) عبارته لأن جزءاً من سقف المنزل انهار عليهم، الأحجار التي وقعت قتلت (حسين) في الحال و(فتحي) والشابان يحاولان جره من تحت الركام.

قفز (بودي) من مقعده محاولاً تفادي الركام الساقط من الأعلى وهو يخرج من باب المنزل مفكراً في البحث عن (مالك) إن كان هنا، خرج إلى المساحات المترامية بالقصب خارج المنزل وظلَّ يلف حول نفسه كالمجنون، فجأة اشتعلت النار بملابسِه وجسده كله، صرخ وهو يخلع ملابسه ويلقي بها بعيداً، لكنه توقف عندما لم يشعر بالآلام الحروق، شم رائحة الشياط لشعر رأسه الذي يحترق لكنه وقف ينظر يميناً ويساراً وجسده مشتعل، من وسط زراعات القصب خرج (مالك) يرتدي قميصاً وسروراً من الجينز يدخن سيجارة.

وأُقتِلَت السيجارة من فمه وهو يرى (بودي) التي تشتعل النار بكل جسده ووجهه لكنه هادئ ينظر له، لم تكن تفصلهما عن بعضهما سوى بضعة أمتار، لم يستطع (مالك)

إخفاء دهشته وهو يتراجع خطوة للوراء و(بودي) يقترب منه بخطواته، لكن فجأة تلقى (بودي) ضربة من شيء مجهول ألقت به عشرة أمتار وسط أعواد القصب التي اشتغل بعضها بعد أنلامس جسده.

وجد (بودي) طريقةً للعودة لساحة المنزل الخارجية ثانيةً وتوقف عند (مالك) الذي كان يتحدث مع شيء ما يقف بجانبه، هنا خرج من جسد (بودي) قرينه، يشبهه لكنه أضخم بكثير ولا عيون ولا أنف، أصبح قرينه هو عينه التي يرى من خلالها، ولأول مرة يرى الكائن الواقف بالقرب من (مالك).

لم يكن جنِّياً فهو يعلم أشكالهم، لكن هذا الكائن ضخم طويل لا يقل طوله عن ثلاثة أمتار، جسده كجسد رجل عار مفتول العضلات، رأسه مثل رأس الأسد بدون الشعر، له جناحان يخرجان من ظهره يشبهها أجنحة الوطاويط.

هجم القرین على الكائن الذي أمسكه وطار به للأعلى.. خرج (فتحي) في نفس اللحظة من باب المنزل ونظر لمالك بغضب وهو يقرأ شيئاً بفمه، هبط الكائن على الأرض بجانب (فتحي) ولسه فاشتعلت النيران به وهو يصرخ، بينما نظر الكائن لبودي التي قلت النار في جسده تدريجياً. خرج أحد الشابان من المنزل يحاول إطفاء (فتحي) ومساعدته على خلع ملابسه، الكائن يقترب من (بودي) الذي شعر بالوهن فجأةً ووجد نفسه يسقط أرضاً على

ركبتيه، (حسين) أخبره بأن يتحكم في قرينه ويعيده جسده
إن شعر بالضعف وإلا سيموت بعد ثوانٍ.

لكنه لا يشعر بمكان قرينه، يرى من منظور عين القرين
لون أيض يحيط به، هبط القرين من السماء خلف الكائن
بالضبط وأمسك بجناحيه جاذبًا إياهم من الخلف ليقع
الكائن أرضاً.

نجح الشاب في إخاد معظم الحريق من على (فتحي)
بينما الهواء ينفذ في رئة (بودي) عند وقوع على وجهه يحاول
سحب الهواء لرئته بلا نتيجة.

القرين يسحب جناحي الكائن الساقط أرضاً حتى خلع
أحدهما فصرخ الكائن بصوت سمعه الجميع، سحب القرين
بسرعة لجسده (بودي) المدد وكأنه جبل يصل بين جسده
وكرينه.. تنفس الفتى بسرعة وغادر قرينه جسده ثانية
ليشتبك مع الكائن و(بودي) ينهض والقرين يتلقى ضربات
من الكائن لكنه يتحملها ويعاود له الضربات.

الذعر يتملك (مالك) الذي يشاهد العراك بعينيه ولا
 يستطيع المشاركة، الوهن عاود (بودي) لكنه لم يستدعى
القرين الذي أمسك الكائن واهتزَّ في مكانه كأنه يرتعش
بردًا، الكائن يقاومه لكن القرين يكمل اهتزازاته.

وأمام عين (فتحي) والشاب ظهر الكائن لهم بوضوح
هو والقرين الذي رفعه لأعلى وألقاه على المنزل الذي هدم،
سقط (بودي) أرضاً لكنه حرك القرين ليحمل حجارة

ضخمة من ركام المنزل وينزل بها على رأس الكائن الذي يتلوى، تحطم الحجارة فأتى القرین بأخرى وأكمل عمله. فلا حون يأتون من أراضٍ زراعية مجاورة يخترقون القصب المزروع ليعرفوا سبب هدم المنزل، تحوّل جسد الكائن لشفاف ثم اختفى نهائياً.. عاد القرین بجسم (بودي) الذي نهض يلتقط أنفاسه وهو يشاهد (مالك) يهرب داخل القصب.

خرج قرينه من جسده وراء (مالك) يدفعه بقوة ليسقط أرضاً وسط القصب يتلوى ألمًا، اخترق (بودي) بنفسه المزروعات حتى وصل بجسم (مالك) الملقي أرضاً ووقف عند رأسه وهو يقول:

- أمات صاحبك أم هرب وتركك؟

رفع (مالك) رأسه للأعلى ينظر للفتى الذي أضاف قائلاً:

- ليس مهمّاً، عصفوري في اليد خير عندي من صاحبك، سأبحث عنه فيما بعد.

فتح (مالك) فمه ليتكلم لكن (بودي) رفع قدمه وأنزلها على رأسه وهو يصرخ، مرة واثنتين وثلاث، وصوت تحطم رأس (مالك) يدفع الفتى لإنزال قدمه مرة أخرى حتى ارتعش جسد (مالك) وهدّ تمامًا مخلفًا جحمة محطمة وبركة من الدماء تتسع لتحيط بالفتى.

تمت

سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب
الإسكندراني، كان خذارا لا يتوانى عن طلب عدوه، ولا
يرضى من نكته بدون إتلاف النفس، فكم ناطح كثيراً
وتل عرضاً وعالج جبالاً شائخة واقتلع دولاً من أصولها
الراسخة

كتاب الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار
المقريزي

وكان مليح الشكل شديد الزهو والعجب، يحب الانفراد بالرياسة، يظهر التعفف، عارفاً باللغة التركية مع الدهاء والمكر والمعرفة التامة بأخلاق أهل الدولة، وهاباً مفضلاً كثير البذل وافر الحرمة، بلغ في المملكة مال لم يبلغه أحد، فإنه لم يمت حتى صار أميراً يتقدمه ألف، تنقل في الولايات نظر الخاص والجيش والاستدارية وكتابة السر وغيرها، ولقد تلاعب بالدولة ظهراً البطن، وخدم عند الأضداد، وعظم قدره حتى شاع أنه لابد أن يلي السلطة

كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
السخاوي